محمد حسين يونس

على شفا الموت
على شفا الجنون



محمد حسين يونس

على شفا الموت
على شفا الجنون

النـــــاشر :
دار الثقافة الجديدة
٣٢ ش صبرى ابو علم/القاهرة
ت : ٧٤٢٨٨٠

تصميم الغلاف : الفنان بهجت عثمان

من لوحة حفل الدوسه لادواردلين (١٨٣٦)

« كل يوم يستيقظ الرجال فى الصـــباح لكى يعانوا .. وليس للفقير قوة تنقذه ممن يفوقه.. تمر المصائب اليوم ولـــكن احزان الغـــد ليست ماضية بعد »

نص لكاهن مصرى فى القرن ٢٠ ق.م

اهـــــداء

الى صـــديق كـــل مصرى آمـــن بالحـــرية والاشـــتراكية والوحـــدة الى الرمـــز الـــدائم للنضال .

الى جمال عبد الناصر .. الزعيم الذى آمن به جيلى دائما واختلف معه قليلا .

الفصل الاول

نحن الآن فى عصر الانفتاح .. وصديقنا انهى منذ لحظات طقوس اول جمعية عمومية ومجلس ادارة لشركته الجديدة .

لقد اصبح عضوا لمجلس ادارة شركة من شركات الاستثمار المصرية الأمريكية الخاضعة للقانون ٤٣ لعام ١٩٧٤ والمعدل بالقانون .. الخ ستسأل ان لم تكن من عصرنا عن معانى الانفتاح والاستثمار والقانون ٤٣ وتعديلاته والتى اتحدث عنهما كما لو كانت من حقائق الحياة التى يجب ان يعرفها كل البشر .

ولك الحق .. كل الحق .. فان هذه المسميات محلية جدا وصاحبت فترة محدودة وخاصة من تاريخ بلدنا حتى أن المعاصرين لها لم يفهموها جيدا ولم يقدروا مدى خطورتها فى حينه .

وعموما ستتاح لنا الفرصة لحديث طويل من المعنى الحقيقى لهذه الكلمات فيما بعد .

ستسأل لماذا بدأت اذن بعصر الانفتاح اذا كنت قد قررت الا أستطرد فى مناقشته ؟

واجيب بدون تردد لأن هذا الحدث الذى تم منذ لحظات هو النقيض لحياة صديقنا وقيمه وافكاره التى ترسبت عبر رحلته منذ ان ولد فى ربيع يوم من أيام الحرب العالمية الثانية وحتى هذه اللحظة !!

كان يتلقى التهانى من المحيطين به ... وقد لصق على شفتيه ابتسامة باهتة ويفكر فى احتمالات المستقبل .

لقد قال له والده وهو فى العشرين .. «لماذا تعمل اثنتى عشرة واربع عشرة ساعة يوميا .. ماذا تريد أن تفعل ؟

واذا كنت فى سنوات قليلة ستمتلك الشقة والعربة والمكتب ورصيدا فى البنك فماذا ستفعل بباقى عمرك ؟

لقد كان لوالده دور هام ومؤثر فى حياته .. وايضا كان لصديقنا دور مواز فى حياة والده رغم الصراع التقليدى الذى نشأ بينهما فى فترات مختلفة من حياتهما .

كان بينهما احساس بالامتداد بالاستمرار جعله دائما يشعر بأنه امتداد لخط بدأ منذ آلاف السنين يمثل فيه والده أقرب ماض ويمثل فيه حاضره ومستقبله القريب .

جعلهما هذا الاحساس لا يفتقدان أبدا رابطة الصداقة والثقة المتبادلة وأيضا الصراع .

عندما كان صديقنا صغيرا فى المركز الأضعف من الصراع كان والده يحبسه دائما فى حجرته الصغيرة ليستذكر دروسه يقهره ليكون الأول .

وكان الآخر يقاومه بالحلم — يهرب فى احلامه — يحلم بأن والده قد مات أو أن منزلهم قد انهدم .. أو انه قد صدر قرار بالغاء التعليم أو أنه قد كبر بالقدر الكافى للاستقلال عن والديه .

ولم تكن احلامه الشريرة هذه تسبب له اى تأنيب ضمير ولم يجد لذلك تفسيرا الا بعدما درس تحليل سيجموند فرويد للأحلام .. أن موت والده لم يكن رغبة شريرة فى نفسه وانما كان وسيلة لامتلاك حريته .. لذلك لم يشعر بالحزن أو تأنيب الضمير .. ان حلم الحرية محور خيالات طفلنا وهو فى التاسعة من عمره ظل المؤثر الأساسى فى كل تصرفاته وعلاقاته بالحياة بعد ذلك وللأبد .

وهو السبب الذى جعله فى وقت لاحق يوقع استقالته من مجلس ادارة الشركة التى كونها منذ لحظات ويبيع اسهمه فيها .

كان يقول — لا استطيع أن اشارك فى جريمة نهب مصر .

وهو أمر متسق تماما مع نشأته .. لقد جاء الى العالم كما قلنا مع بدايات الحرب العالمية الثانية وما صاحب ذلك من تغييرات جذرية فى العالم اهمها انهيار الامبراطوريات القديمة الانجليزية والفرنسية وانبثاق قوى أخرى سيطرت على العالم عمالقة السوفيت وأمريكا والصين ..

وبعد ذلك اضطرب العالم .. سقطت كل القيم القديمة ووسائل

الحياة وعلاقات الانتاج ووجد من لم يحصن نفسه بالمعرفة انه قد اصبح يعيش فى متاهات .

اننا لا نختار جنسيتنا او لوننا أو ملامحنا أو دياناتنا او بيئتنا .. ولكن هذه المعطيات تحدد بدايات ماهيتنا .. التى تتشكل بعد ذلك باختياراتنا .

ان وجودنا ليس قدرا لا يمكن تغييره .. بل يمكن تغييره باختيارنا هكذا قال سارتر .. وعلى أساس مجمل اختياراتنا .. يتحدد شكلنا النهائى يوم وفاتنا .. كان يعى هذا جيدا لذلك فلقد كان حريصا فى اختياراته .

كان يمكنه أن يهاجر .. أن يغير لغته .. جنسيته .. دينه .. وحتى ملامحه كما فعل كثيرون ولكنه فضل ان يبقى بجواره .. لقد كان يعشقه ولا يطيق مفارقته .. فجمال عبد الناصر لم يكن قائدا فحسب .. لقد كان أملا عندما أمم قناة السويس كان صديقنا فى السادسة عشرة .. كان قد انهى امتحان الثانوية العامة وتأهل للالتحاق بكلية الهندسة ليحقق حلما عزيزا لوالده .

أما والدته فكانت لها أحلامها الخاصة .. لقد كانت مريضة مثله بأحلام اليقظة أو يكون قد ورث عنها هذه العادة وكان حلمها الأعظم أن تراه ضابطا فى الحرس الملكى .. ثم .. ترى واحدة من اللائى يبدأ اسماؤهن بحرف الفاء — فريال — فوزية — فادية .. واحدة من اميرات مصر .. تحبه .. تتزوجه .. فيصبح ابنها أميرا .

« حلم سندريلا عصرى »

لقد كان والده واقعيا .. أما والدته فكانت رومانسية .. وورث عنهما كلا من الواقعية والرومانسية .. ولكن كيف يجتمع النقيضان .. لقد كانتا فى صراع دائم داخله .. وكانت لكل منهما تأثيراتها وقوتها لدرجة أن كلا منهما استقلت بجزء من شخصيته .. نمت .. تأصلت .. فرضت نفسها بعيدا عن الأخرى .. لقد أصبح شخصين أحدهما ذلك الذى وقع طقوس اول جمعية عمومية .. والآخر هو الذى أنهى عضويته فى هذه الشركة .

كان ذلك سببا فى أن يبدو فى بعض الأحيان شاذا .. ولقد تعود هو على هذا الشذوذ — اذا جاز هذا التعبير — .

ففى طفولته كان يأتى بافعال غريبة على سنه .. لقد طلب من مدرسته الراهبة فى يوم وكان فى الثالثة من عمره ان يذهب الى دورة المياه .. فقهرته رفضت .. فما كان منه الا ان رجع ثلاثة صفوف الى مكان غير مشغول بالطلاب وتبول دون أن تبتل ملابسه ثم عاد الى مكانه

ببراءة .. عندما اكتشفت الراهبة سرسوب الماء وتتبعته وجدته يبدا من مكان خال .. اختبرت ملابس جميع الأطفال بما فى ذلك ملابسه .. فلم تعثر على الجانى .. فى فترة الراحة كان يقص قصته على زميل اكبر منه قليلا دون ان يكتشف الراهبة الواقفة خلفه تستمع الى القصة وتشد اذنيه .. ثم تستدعى والدته لتستسمحها فى نقله الى سنة دراسية أكبر من الحضانة لذكائه .

لقد كان ذلك غريبا .. ولكنه كان رد فعل طبيعى للانضاج المبكر الذى حاوله والده معه .. لقد كان يصطحبه فى رحلاته مع زملائه لدار الآثار لسقارة .. للأهرامات .. وللندوات والمؤتمرات التى كانت تعقدها « مصر الفتاة » تندد بالحكم الملكى وبالاستعمار وبأشياء كثيرة كانت عادة ماتستغلق على فهمه .

وكان لوالده صوت جميل يشيع فى منزلهم المرح والبهجة عندما يكون فى هدنة من شجاره المستمر مع والدته والذى كان موضوعه الدائم مصروف البيت .

فى هذه الأوقات كان يشعر بأن الأرض تميد تحت قدميه .. وكره النقود ولكنه فى نفس الوقت احترمها الى القدر الذى لا يجعله فى حاجة اليها فقط لقد كان يعيش من خلال ميزانية حددها لنفسه مسبقاً وتغنيه عن القروض .

وتولدت لديه قدرة غريبة على الاستغناء فمادام لا يستطيع ان يحصل على شىء فعليه وبشكل دائم وسريع الاستغناء عنه بترفع .

هكذا حدث له عندما كان فى اليمن .. لقد رفض أن ينجرف فى تيار الاستهلاك ويهرب البضائع والدلاورات من والى هناك .

وعندما قاوم قبل ذلك رشوة المقاولين وهو يعمل مهندسا مشرفا عليهم فى سيناء .

ولكنه كان ضعيفا جدا امام عواطف الآخرين .. لقد كانت امه .. وحضن امه واصابعها وهى تتخلل شعره المبتل بعد حمام الجمعة واغانيها الحزينة وهى تحاول ان تجعله يتسالم مبكرا وهو مازال يحن لحمام ضيق ساخن يملأه البخار المتصاعد من صفيحة ممتلئة بماء يغلى فوق موقد جاز .. وصوت الشيخ محمد رفعت وهو يقرأ سورة مريم . امه علمته أن الحب يصنع المعجزات مهما كانت الامكانات قليلة .

ففى شتاء شديد البرودة فيما بعد الحرب العالمية الثانية مباشرة وكانت الأسعار فى ارتفاع جنونى يشبه الارتفاع الذى حدث بعد حرب ٧٣ مباشرة أمسكت امه ببطانية قديمة وفصلتها معطفا لتقيه البرد .. كان

يكره هذا المعطف .. ولكنه بعد ذلك تعلم كيف يستطيع الحب ان يدفىء.. حب الأم لأطفالها مع عجزها المادى وهكذا تستطيع أن تشاهد تأثير هذا المعطف عندما يتصادف ويتواجد فى موقف يتعامل فيــه مع أم غير قادرة فى زمن اسود لاحق من عصر الانفتاح .

لم يكن اختيار الشركة الأمريكية له ليصبح شريكا لها وعضوا لمجلس ادارة شركتها الجديدة فى مصر عفويا .. لقــد كان له مبرراته .. فقــد كان يتقن لغة العصر بعد أن تعلمها خلال عمله فى شركات القطاع العام وخلال عمله كمدير فرع شركة مصرية فى العراق تعمل فى المقاولات لقــد تعلم مفردات الادارة الأمريكية وبرع فيها مبكرا عن عصر الانفتاح بحيث أصبح مؤهلا للتعامل مع الوحوش القادمة من الغرب لاستنزاف آخر قرش ناتج من عرق جبين المصريين .

أما الآخرون فكانت اسلحتهم هى قربهم من السلطة فاصبحت مهمتهم اسهل ولا تحتاج لدراسة او مؤهلات كل ما كان عليهم أن يفعلوه هو أن يلبســوا قناع الكومبرادور .

وما الكومبرادور يا صديقى .. هو رجــل .. أو ســيدة .. يتقن اللغة الانجليزية ويفضل أن تكون باللهجة الأمريكيــة .. ويلبس ملابس مستوردة يفضل أن تكون فرنسية .. ويدخن ســـجائر مستوردة ويفرق جيـــدا بين انواع الخمــور المختلفــة .. ويقــود عــربة فارهــة من أحدث موديل ثم .. ثم ينفذ أوامر اســياده القادمين من الغرب مستعينا بقربه من السلطة او قدرته على رشوة من هو قريب منهــا لتسهيل مهمة استنزاف الثروات .. وهـــو فى سبيل ذلك يحصل على قدر من هــذه الثروات يسمح له بالتعالى على مواطنيه وارتياد أماكن لا يستطيع غـــيره تحمل تكلفتها وافساد الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية فى بلده.. وهو سعيد . لم يكن صديقنا كومبرادورا والا كيف يتسق هذا مع تربيته .

فى يوم من ايام يناير ١٩٥٢ كان عائدا مع والدته من زيارة وكانت القاهـــرة تحترق .. وكانت البضائع ملقـــاة فى الشوارع بالأكوام بمئات الجنيهات التقط من الأشياء الملقاة لعبــة صغيرة عاد بهـــا الى منزله .. كانت أمه تبكى من الخوف وكان والده مهتاجا وهو يقول أن الملك والانجليز حرقا القاهرة .. وزاد اهتياجه عندما شاهد مااغتنمه صغيره من الحريق دمر اللعبة .. وضربه .. وأهانه .

ولم ينس صديقنا أبدا انه لا يحق له ان يغنم شيئا لنفســه من خلال دمار بلده . فهل من الممكن أن يصبح صديقنا كومبرادورا يعيش على اطلال خرائب اقتصاد بلده ؟

كان من الممكن .. فعشرات بل مئات من أبناء جيله سمحوا لأنفسهم بأن يقتطعوا بعض المغانم خـــلال الفوضى .. ولكن مامنعه شىء آخر .

عندما قامت ثورة يوليو ١٩٥٢ كان صديقنا ولدا صغيرا .. لم يع بعد ما معنى الثورة .. ولكنه تحمس لها .. واحبها عندما شاهد فى الجرائد صور صديقين لوالده من بين قادة الثورة .. كان يعرفهما جيدا .. وكانا يداعبانه عندما يزوران والده .. كان احدهما واسمه عبد الحكيم يسأله دائما ما هو الأثقل رطل القطن أم رطل الحديد ؟

ورغم انه اجابه بالاجابة الصحيحة أول مرة الا انه كان دائما ما يسأله نفس السؤال .

اما الآخر وكان عبد الناصر .. فعندما قابله فى مدرسته حيث كان قادة الثورة يقومون بجولاتهم لتعبئة الجماهير بعد ثورتهم مباشرة ميزه من بين زملائه وامسكه من يده وحمله تحياته لوالده .

وبعد ذلك لم يعد يراهما فى منزله .. لقد كان والده عزيز النفس لم يحاول التقرب منهما او استثمار علاقته بهما .

كان يقول لم يعودا ملكا لأحد .. انهما ملك مصر .. حتى رغم ما حدث بعد ذلك .. عندما قسم رجال الثورة المناصب والنفوذ على بعضهم البعض وعلى صغار الضباط ظل والده بعيدا .. لقد شاهد هذا بنفسه .. كان الآخر يقول :

لقد قلت لهم أنا لا ينفعنى رئيس مجلس ادارة شركة .. وكيل وزارة .. او مدير مصلحة كبيرة .. او ابقى فى منزلى .. انا لست اقل عن فلان وفلان وفلان ..

وكان والده يبتسم بسخرية وأدب .. ولكنه انفجر عندما انفرد بالطفل مبررا له انه متصور انها عزبة أبوه ثم مدافعا — لكن عبد الحكيم وجمال غير كده .. عبد الحكيم مؤمن وجمال ذكى ومخلص فعلا اما الآخرون فمصيرهم مذبلة التاريخ .. ولم يكن يريد أن يكون مصيره هذه المذبلة . لذلك سأل مدير الشركة الأمريكية — ولكن لماذا كل هذه الاضافات ؟

ان ربحية مناسبة وادارة علمية تستطيع توفير نسبة عالية من الفاقد تجعل سعرنا مناسبا .

كان الآخر قد انفعل تماما لم يكن متصورا أن هناك مصريا مهما كان حتى ولو كان شريكهم وعضوا بمجلس الادارة يستطيع أن يناقشه بهذه الطريقة رد بجفاء — نحن ادرى بما نفعل .. كل ما هو مطلوب منك أن تجهز قائمة بقيمة وأسعار الخدمات المحلية .

اجاب بصبر — ولكن هل دورى هو تزويدكم بالمعلومات اننى مشارك فى الشركة ومتحمل مسئولية سياستها .

رد الآخر بتعال — مشارك بماذا لقد اقرضناك نصيبك فى راس المال لا تنس هذا — اذا — اذا كنت تريد أن تستمر .

سقط من حالق .. لقد تصور انهم دعوه لمشاركتهم لخبرته فى الادارة ومعرفته بالسوق المحلية لذلك أقرضوه نصيبه من رأس المال ولكنه لم يتصور ان الهدف من مشاركته واقراضه هو اتمام الصنعة القانونية لانشاء شركة استثمار تعافى من الضرائب لمدة خمس سنوات وانه صورة فقط أجبرتهم القوانين المحلية على اتباعها .. وقرر دخول المعركة .

كان الجنود الانجليز يجلسون على حافة الشبابيك نصف عراة حمر الوجوه يقذفون المارة بقشر البرتقال والموز فى ميدان* الاسماعيلية .. وكان والده يكرههم .. كان يقول أنهم مستعمرون وانهم اساس البلاء .

عندما خرجوا من القاهرة كان يبكى من الفرح ويتكلم عن اليوم الذى يخرجون فيه من مصر كلها .. واليوم الذى ستصبح فيه القناة ملكنا .

وخرجوا بعد ذلك من القناة وعادوا ثانيا .. كان قد اصبح شابا طالبا فى اعدادى هندسة .. وأغلقت المدارس والجامعات وهاجمت مدن القناة وسيناء قوات انجليزية وفرنسية واسرائيلية .. وثارت مصر كلها خرجت للشوارع تحمى ثورتها وبطلها والتحق صديقنا بفرق الدفاع المدنى .. اشترى خوذة من وكالة البلح وبقى فى الشوارع يحث المواطنين على اطفاء الأنوار والالتزام بتعليمات الدفاع المدنى ليلا .. وفى الصباح كان يجرى خلف الطائرات المغيرة ويهتف لمصر .. حنحارب .. حنحارب .. كل الناس حتحارب مش خايفين من الجايين بالملايين حنحارب .. حتى النصر .. تحيا مصر .

واندحر العدوان .. ورسب صديقنا لأول مرة .

فى بعض الأحيان يصبح الفشل افضل من النجاح .. اذا اتاح الفرصة للانسان بأن يراجع مواقفه وعلاقاته بالعالم ويدفعه للتغيير .. للأفضل . وهكذا عندما اكتشف صديقنا أن نجاحه فى تأسيس شركة استثمار كان نجاحا وهميا .. وأنه اندفع خلف أحلام سرابية صورت له انه باستطاعته التحالف مع الوحش الامبريالى الأمريكى والاستفادة من خبراته وامكانياته والتعلم منه .. عندما اكتشف أنه مخلب القط الذى سيستخدمه شركاؤه للحصول على الثمار الناضجة داخل اتون الحياة فى بلده الفقير المبتلى .. عاد لمراجعة تصوراته وحياته تماما كما فعل عندما رسب لأول مرة بعد العدوان الثلاثى على مصر .

قلت لكم ان والد صديقنا كان يحاول ان ينضجه مبكرا وهو فى سبيل ذلك كان يحبسه فى حجرته الصغيرة ليستذكر دروسه ساعات طوالا مانعا

---

* التحرير الآن

اباه من اللعب مثل باقى الأطفال .. وكان هو فى مواجهــة ذلك يلجأ الى الخيال واحلام اليقظة يبنى من خلالها قصورا ولكنه كان أيضا يسرق .. يسرق القصص والكتب من مكتبة ابيه يخفيهــا بين طيات كتبه المدرسية ويظل لســاعات يقرأ .. وتعــود على القراءة .. فكان يقضى معظم ساعات أجازته بالمكتبة العــامة المجاورة لمنزلهم فى حجرة الأطفــال يقرأ القصص السحرية ويعيش فى عوالم غريبة من الف ليلة وليلة ومجموعات الكيلانى ومترجمات ادب الأطفال العالمى .. حتى التقطه أمين المكتبة فى يوم ما فوجهه لتوفيق الحكيم ليقرأ يوميات نائب فى الأرياف .. ومنذ ذلك اليوم تعرف صديقنا على باقى نوابغ الأدباء .. وبدا يوفر من مصروفه الصغير ليشترى كتبا .

لقد كانت هذه هى السمة الرئيسية لعديد من ابناء جيل صديقنا فلم يكن التليفزيون والفيديو والكاسيت قد افسدت ذوق الشباب بعد .. وكان الكتاب هو ملجأهم .

وهكذا عندما رسب صديقنا لجـأ الى الكتاب يحــاوره ويستشيره ويرجوه أن يفسر له أسباب نكسته .

بدأ بالبداية الطبيعيــة .. الدين .. القرآن .. ووجد الهــدوء والراحة ولكن كان صــعبا .. وغامضــا .. ان القــرآن المسموع أكثر سهولة .. ولكن المكتوب يحتاج لتفســير وشرح وكانت مكتبة والده التى ورثها عن جــده مكتظة بكتب الشرح والتفسير .. وغاص صــديقنا بين جنبات الأوراق الصفراء للبخارى والطبرى والغزالى وشلتوت .. ولكنها جميعا كانت تتكلم عن أحداث مرت عليها اربعة عشر قرنا .

ومل صديقنا .. ان العالم يتغير حوله بسرعة غريبة .. وهو لازال يبحث عن شروح وتفســيرات .. حتى صادف فى مكتبة والده ايضا .. (هذا .. أو الطوفان) .. كتاب صغير لكاتب شيخ ثائر يسمى خالد محمد خالد .. وشغف به .. انه ضالته .. نظرة عصرية متدينة .. هذا هو ما يريده بالضبط .. وقاده خالد بين كتبسه (لكى لا تحرثوا فى البحر) .. (من هنا نبدأ) .. (الديموقراطية ابدا) .. (معا على الطريق محمد والمسيح) . كان خالد ذا ثقــافة دينية موســوعية .. يتكلم عن المسيحية واليهودية وحتى عن الديانات غير السماوية وبدأ صديقنا يقرأ بشغف التوراة .. الاناجيل .. بوذا .. كونفوشيس .. زرادشت .. اخناتون .. الديانات المصرية القديمة .. الطوطمية .. الهندوكية .

اصيب بخيبة أمل فى بعض الأحيان .. وبسعادة فى احيان أخرى .. ولكنه كان دائما ما يشعر بالحب والاحترام لكتب القدماء .. حتى تعرف

عليه (سلامة موسى) .. وكأن الف شمس قد اضاءت عقله .. لقد كان سلامة موسى بحق استاذ التنوير لجيل صديقنا .. لقد تعلم منه قيمة الاطلال على منجزات العصر الحديث .. نظرية التطور .. علم النفس.. وظيفة الفن والأدب .. اينشتين .. الاشتراكية .. المرأة ليست لعبة الرجل .

وبدا صديقنا طريقا لم ينته بين جنبات الكتب قدم له المعرفة التى منعته بعد ذلك من أن يكون كومبرادورا .

وهكذا راجع صديقنا علاقاته مع الأمريكان .. لقد كان مستشارهم .. تعرف عليهم عن طريق صديق عندما طلبوا منه اعداد دراسة لعطاء كانا سيتقدمان به معا هم وصديقه .. وكان قد تعلم من قبل كيف تدرس العطاءات وبنفس طريقتهم فى الدراسة .. تحليل البنود الى مكوناتها الرئيسية .. مواد وعمالة ومعدات .. حساب كميات المواد المستخدمة ونسب استخدامها وهوالكها .. تحديد اسعار هذه المواد ونقلها وتخزينها .. تحديد العمالة المطلوبة وانتاجيتها واجورها وأعبائها من طعام واسكان وتأمينات اجتماعية وانتقالات ومكافآت .. تحديد المعدات المطلوبة وقيمتها ومقدار قيمة استهلاكها ووقودها وصيانتها وباقى مصاريفها .. والزمن الذى تستخدم خلاله .. ترتيب هذه المعلومات من خلال معادلات مختلفة ثم تحديد التكلفة .. ثم بعد ذلك تحديد المصاريف العمومية .. اجور الجهاز الاشرافى .. الاسكان .. المكاتب الورق .. التليفونات .. اللوكاندات .. السفريات .. قائمة طويلة من الأنشطة .. ثم اضافة نسب التأمينات والمخاطر غير المنظورة ومعناها الرشاوى والاكراميات ثم الأرباح .. تجمع كل هذه التكاليف .. تحدد قيمة العملية ومقدار التمويل المطلوب .. ومنه يتحدد قيمة التسهيلات التى سيقدمها البنك واتعابه فى مقابل ذلك .. والذى يمتلك التمويل والتسهيلات هو الذى يتحكم فى العمل .. لأن البنوك لا تمنح تسهيلاتها الا بضمانات خاصة .. وهو الأمر الذى استغلته الطبقات التى اثرت بسرعة .. عن طريق مجموعة من العلاقات المتشابكة بالبنوك .

كان صديقنا يمتلك العلم الذى بواسطته يستطيع ان يدرس اما الباقون فقد كانوا يمتلكون الصلات التى بواسطتها يستطيعون ان يمولوا.

وقدم صديقنا لهم دراسة اقنعتهم واستطاعوا بواسطتها الحصول على أول عملية لهم فى مصر .. وبالطبع لم يكن يعلم فى ذلك الحين ان دراسته استخدمت كما هى وأن بندين وحيدين تم تغييرهما بالزيادة وهما غير المنظور والأرباح .

وسعدت جميـــع الأطراف .. الأمــريكان .. وشريكهم .. والذين حصلوا على غير المنظور .. وصديقنا .. حتى اختلف الشريكان .

يقول صديق لصديقنـــا أن المشاركة تظل قائمة متى كانت انتهازية الشركاء متساوية ولكن عندما تختل نسب الانتهازية تنفض الشركة .

وهكذا انفضت الشركة عندما اختلفت انتهازية الشركاء .. لقــد حاول الشريك المصرى الحصـــول على هامش أوســـع من شراء المهمات والمعدات وما يلى ذلك من زيادة العمولات التى يحصـــل عليها سرا .. واصر الشركاء الأمريكان على شراء جميـــع المهمات والاحتفاظ بالعمولات لصالحهم .

وانفضت الشركة .. وبدا الشركاء الأمــريكان يبحثون عن بديل مصرى له مواصفات خاصة أهمها ألا يشاركهم فى عمولاتهم ويرضى بقليلة وكان صديقنا ضالتهم .

تصور أنهم اختاروه لاعجابهم بدراسته والحقيقة التى اكتشفها بعد ذلك انهم اختاروه لأن طمـــوحاته اقل وسيرضى بالفتات .. وليحمد الله ان اتيحت له فرصة وظيفة كومبرادور فى شركة امريكية .

الفصل الثانى

وقف قطار العـريش على المحطه .. واحتضنته عشرات الوجوه السمراء فهو الصلة الوحيدة بين بلدهم ومصر .. وهو يحمل الخطابات.. الطعام والمسافرين .. وفى موعد قدومه تعلن حالة الطوارىء فى البلد .

نزل منه شاب عمره اثنـان وعشرون عاما .. حضر من الوادى ليعمل مهندسـا باسـكان ومرافق سيناء بعـد أن قرر خوض المغامرة والمشاركة فى جيش العمل بنقاء ابناء الثورة .

كان يحمل خوفه من خبرته المحدودة .. وخوفه من عدم القدرة على التأقلم .. وخوفه الاعظم من الاعيب المقاولين .

لقد صوروا له — فى محاولتهم لاقناعه بالرضا والاستسلام لوظيفته فى المكتب العربى للتصميمات — مدى اجرام وخطورة المقاولين .. سيسرقون الحـديد سيغشون فى الأسمنت .. سـيخطفونك .. سـيقتلونك .. سيلوثونك .

ولكنه كان يحمل معه حماس شاب خطا وطنه أولى الخطوات نحو الاشـتراكية نحو الرفاهيـة .. تخلص من الاستعمار .. ويقف شامخا مناطحا قوى التخلف والرجعية .

كان يحلم بالحق والخـير والجمال والرفاهية والعـدل وكل ماهو جميل وكان يتصـور انه مسئول مسئولية شخصية عن نجاح الثورة بأن يعمل بأن يقاوم كل القبح والحمق وجيوش الرجعية والاستغلال .

لقد كان الميثاق لم يجف حبر طباعته بعد .. وكانت كلمات العمـل حق .. العمل واجب.. العمل حياة .. هى الضوء المتوهج الذى يدفع فى شرايينه وعشرات المئات من جيله بالأمل والرغبة فى المشاركة .

نزل صديقنا وكانت قد نبتت له شعيرات صغيرة أسفل ذقنه رتبها بنظام وعناية مرتديا بدلة رمادية لها فتحتان خلفيتان كأحدث موضة وبابيون أسود وبيده كتاب ضخم اشتراه من أول مرتب له بعد طول اشتياق لامتلاكه .

خطا خطواته الأولى على محطة العريش منتشيا من الكلمات التى كتبها نهرو لابنته أنديرا غاندى فى لمحات من تاريخ العالم .. سكران من منظر النخيل القائم على شاطىء البحر مستمتعا بخروجه الأول من القاهرة متخوفا من تحمل مسئولية حياته من مأكل ومشرب وسكن وعمل .

سأل أحد الواقفين عن مستقبليه من هندسة الاسكان .. وهنا تنبه للصدمة التى أحدثها عندما التف حوله جمهرة من المستقبلين المنتظرين فى ترقب مشاهدة المهندس الجديد .

نفس الصدمة التى أحدثها عندما رفض تقبيل يد البابا كرلس والشيخ الصاوى شيخ مشايخ الطرق الصوفية عندما قابلهما على التوالى بحثا عن اليقين بعد ما شوشته الفلسفة والعلم .

نفس الصدمة التى أحدثها عندما ثبت أن وجهة نظره كانت الصحيحة وانهم قد خسروا العطاء وفقدوا مائة ألف جنيه لأن الأمريكان لم يستمعوا الى ملاحظاته وتوصياته .

لقد كانت هوايته صدم الآخرين بتصرفاته وأفكاره وعلاقته بالعالم كان مستقبلوه فى انتظار عجوز غير مرضى عنه ومنفى من القاهرة وكانوا قد اتقنوا التعامل مع هذا النوع .. فان بعض الخدمات الصغيرة كفيلة بجعله أداة طيعة بين أيديهم .

ولكن ذلك الشاب المنتفخ كالديك ترى كيف سيتعاملون معه ..

وبنفس الخطأ فى التقدير الذى حسب به ابن العم سام علاقته مع صديقنا تصرف مقاولو العريش وموظفو الاسكان .

طلب منه مديره مصاحبة أحد المقاولين لاستلام مستشفى العريش استلاما نهائيا .. كان أول أيام عمله .. ولم يكن يعرف ماهو الاستلام النهائى وكيف يتم .. ولم يشرح الآخر له .. مضى مع مجموعة من العربان فى سيارتهم لاستلام المستشفى .

فى الطريق قالوا له أنه قد تم استلامها ابتدائيا .. ولكن المحضر فى الاسماعيلية .. وأنهم بانتظاره منذ مدة لاستلامها نهائيا وصرف التأمينات .. وان كل ما عليه أن يوقع بعض المستندات .. ثم اصطحبوه الى كابينة على شاطىء البحر .. والبحر فى العريش تحفة فنية رائعة

رمل ناعم .. مياه هادئة .. نخيل على الشاطىء والماعز ترعى الأعشاب فى هدوء وسلام .. لاضوضاء .. لا ازعاج .. ولا زحمة ولكن داخل الكابينة كان هناك ماجعله يشعر بالرعب .. لقد عرضوا عليه ان يمنحوه اياها بدون ايجار ليسكنها .. وتذكر ذلك المقاول الأسمر السمين الذى قابله فى القاهرة .. كان يعرض عليه أن يعمل معه بمرتب مائة جنيه .. رقم لم يحلم به أبدا .. عندما تردد زاد الآخر العرض لمائة وعشرين .. أربعة أضعاف مرتبه .. جرى من أمامه وظل يجرى حتى اصبح فى الشارع .. لقد شعر بحاسة غير محددة أن هناك شيئا ما خطأ .. والا فما الداعى لعرض هذا المرتب المبالغ فيه .. حفظه نقاؤه .. فجرى .. وفى كابينة العريش أيضا .. جرى حتىوصل الى العربة .. والآخرون يجرون خلفه متعجبين .

انها نفس طريقة لاعب الثلاث ورقات يداعب انتهازيتك فتتصور انك يمكنك ان تكسب مكسبا سهلا .. فتخسر كل ما تملك .. ان اى مكسب سهل لابد وأن يجعل المرء يتساءل ولماذا ؟

انه لا يؤمن بالحظ .. والأمور لديه مسببة .. اذا فقدت سببيتها فقدت منطقها وبالتالى فهى فخ مختفٍ لاصطياد الانتهازيين .

عندما عرض عليه ابناء العم سام مشاركتهم تذكر ذلك ولكنهم ردوا عليه بأنه كفاءة فهم لديهم المال ويحتاجون لخبرته .. وكان هذا أيضا فخا آخر .. لقد اصطادوه من ثقته الزائدة بنفسه .

عندما عاد لمدير المديرية مع العربان قدم تقريره من سطر واحد ..

« نظرا لعدم وجود محضر التسليم الابتدائى فلا يمكن استلام المستشفى نهائيا » .

ضحك الآخر .. ولم يخف تواطؤه معهم .

قائلا — الم اقل لكم انه ليس سهلا .

ولكن لم تسلم الجرة فى كل مرة .. لقد كان عليه أن يتعلم الكثير وليس هناك من يعلمه .. وشعر بالمرارة والاحباط . .ان انصار الثورة لا زالوا ضعافا .. ان قلة خبرتهم ستؤدى الى التهلكة .. ان النظام القديم لازال قويا .. وهاهم يهادنونه .

ولجأ الى اصدقائه التقليديين .. الى الكتاب .. الى المواصفات المطبوعة واصبح بيروقراطيا كريها .. يصر على تنفيذ نصوص كتبت بدون واقعية .. وبغض النظر عن الظروف الفعلية .. واشتكى منه

المقاولون وزملاؤه .. ومرؤسوه وكاد أن يستسلم .. أما للفوضى أو للدوجماتية .. حتى وجده .

كان مهندس المقاولين شابا يكبره بخمس سنوات ولكنها كافية ليصبح أكثر مرونة وفهما .. بدأ يعلمه دون أن يجرح مشاعره .. ودون أن يشعره بجهله .. ودون تعال .. عرف منه ما هى « الشدة » وكيف يستلمها .. وكيف يستلم حديد التسليح والشروط الواجبة لذلك وكيف يخطط موقعا والأهم كيف يعد مستخلصا لصرف دفعات المقاولين .

وهكذا أيضا عندما خرج من القوات المسلحة بعد احالته الى المعاش علمه رئيسه بشركة المقاولات التى عمل بها بعد ذلك كيف يعد دراسة للأسعار وكيف يحلل البنود وكيف يتابع الأعمال والأهم من ذلك كيف يطلع على احدث علوم الادارة فى العالم ويستفيد منها فى تطويرعمله ليمتلك اللغة العصرية التى تجعله قادرا على التعامل مع المغامرين القادمين من الغرب .

وفى العريش استكمل صديقنا اساسيات بنائه الثقافى التى بداها بعد رسوبه الأول فى اعدادى هندسة .. ان الفلسفة الوجودية التى جذبته بشدة وجعلته يحطم اغلاله .. اغلال الخوف ويواجه العالم بروح التحدى والمغامرة .

الفلسفة الوجودية التى تسببت فى اسوأ فترة لعلاقته بوالده عندما حاول الخروج عن دائرة تأثيره وإرادته .. تطورت لديه لتترك الفرصة للماركسية لتعيد بناء مجموعة من القيم والأفكار الخاصة بمادية الكون وحركته وتطوره .

ان علاقات التبعية التى سادت ذلك الزمن بين الرجل والمرأة تحطمت ايضا لتحل محلها مفاهيم جديدة عن حرية المرأة وحقها فى الحياة بنفس القدر والتساوى مع الرجل .

وبدأ صديقنا يطل على عوالم جديدة من الموسيقى والعلم والفن والفلسفة والحب والحياة عوالم ممتلئة بالأضواء والألوان والهواء النقى. وبدأ يدرب نفسه على سماع الموسيقى الكلاسيك واستيعابها وعلى تفهم الفنون الحديثة وتذوقها .

بعد ذلك عندما عاد للقاهرة كان المناخ الثقافى والفنى فى القاهرة مزدهرا الى درجة لم تشهدها من قبل أو بعد .. لقد تكونت عديد من الفرق المسرحية عرضت مسرحيات طليعية وتقدمية كانت المدرسة التى تربى فيها جيل صديقنا .

وصاحب ذلك بدء البث التلفزيونى وتكوين اول فرقة سيمفونية ومعاهد للباليه والموسيقى .

لقد كان صديقنا يتحدث عن هذه الفترة باعزاز شديد خصوصا عندما يناقش شباب الانفتاح والفيديو .

وتطورت قدرات صديقنا الفنية لقد اصبح افضل مهندسى المديرية واحبهم للمقاولين لانه يقوم بواجبه على افضل وجه وباكثر درجات المرونة وفى نفس الوقت الشرف .

وانتطمت دخول اضافية لعدد من معاونيه ورؤسائه فاحالوا حياته الى صراعات دائمة .. ان قوة اغراء بضائع غزة ورفح القريبة .. ونقص المرتبات كانت عوامل ضغط غير متصور تأثيرها على موظفى هندسة اسكان ومرافق سيناء فى ذلك الوقت .. وكان هو العقبة امام مصادر الدخل الاضافى فقرروا ازاحته من طريقهم .

وهكذا دائما ما يصنع الصرع الاستهلاكى .. ان عصر « الانفتاح » العظيم كان المحصلة النهائية لعديد من التجارب الصغيرة التى تمت فى عصر « الانغلاق » المبارك .

التجربة الأولى كانت تتم فى الأجزاء الملاصقة لغزة ورفح أما التجربة الثانية فكانت فى اليمن .. عندما تحول الجيش المصرى الى مجموعة من التجار ومهربى العملة كما سنرى بعد ذلك عندما يسافر صديقنا لليمن . عندما كان يقص على والده ملاحظاته فى سيناء .. كان الآخر يبتسم فى اشفاق ثم يشحنه بمصل مضاد كان يقول له :

انت لازلت فى مستهل حياتك .. والعالم لم يبن فى يوم واحد لماذا تتعجل الحياة الرغدة .. ما تتقاضاه اضعاف مضاعفة لما يحصل عليه الأغلبية العظمى من مواطنى بلدنا .. وأنت افضل حظا انك مهندس وستصبح فى يوم ما فى مركز ممتاز وتحصل على مرتب كاف وتعيش بالشكل الذى تتمناه أما الثراء السريع عن طريق السرقة والرشوة والسمسرة فهو انتحار .. لن تستطيع أن تعيش متوافقا مع نفسك أبدا لو سقطت يوما امامها .. تستطيع أن تضحك على العالم كله عدا شخصا واحدا هو أنت .

وكان والده محقا فى جزء من كلامه .. ولكنه جانبه الصواب فى جزء آخر فكيف كان سيمكنه أن يعرف بعصر الانفتاح وما سيغيره من مقاييس خصوصا فى قيمة المهندس .. وقيمة الشرف .

فى النهاية قرر صديقنا امرا وهو يشاهد التليفزيون الجديد فى عيد الثورة والطوابير العسكرية تستعرض امامه .. لقد قرر الهروب من

مقاومة جيوش الرشــوة والسرقة والسمسرة فى العريش .. والالتحاق بالقوات المسلحة ضابطا مهندسا حيث المنـــاخ أكثر نقاء وأبعد ما يمكن عن السقوط الأخلاقى فهم بعيدون عن اغراءات التلوث المدنيـــة وهم فى نفس الوقت الذين توفر لهم الدولة افضل مستوى معيشى بمرتباتهم الزائدة قليـــلا .

قبل ان يترك صديقنا مكان المعركة قرر ان يدمر الالغام المخبأة فى هندسة اسكان ومرافق سيناء وذلك باللجوء الى السلطة .

فالسلطة فى ذلك الوقت كانت الملاذ للشرفاء .. السلطة .. التى جاءت بهـــا الثورة .. وطردت الانجليز .. قاومت العدوان .. وقضت على الاقطاع .. وهى التى رفعت رأس مصر عاليا فى باندونج وبريونى وكان عبد الناصر ممثلها هو احد ثلاثة عظام اقاموا حركة عدم الانحياز . واجبر دالاس وامريكا على الخضوع لرغباته .

ولم تكن السلطة فى نظره فى ذلك الوقت هى التى اوقفت الحيـــاة السياســـية ودمرت الديموقراطية وبثت الرعب فى قلوب البشر وحطمت مبادئهم الفردية والجماعية وجعلتهم يعيشون داخل بلدهم فى غربة .

فالاعتقالات السياسية للأخوان والشـــيوعيين ومفســـدى الحيـــاة السياسية من رجال الأحزاب القديمة لم تكن فى نظره اغتيالا للديمقراطية والحرية والشرعية والدستور وانما كانت اجراءات ثورية ضد اعداء الثورة. اما ما يتم من تجاوزات فهى تخص صغار البيروقراطيين والمنتفعين ولاتمس طهارة الثورة ورجالها وقائدها .

قلت ولجأ صديقنا الى السلطة الى الوزير بنفسه .. كان استاذه فى الجامعة .. قابله شجعه استمع له .. ثم .. عرض عليه ان يعمل معه فى مكتبه عنـــدما علم برغبته فى الالتحاق بالقوات المسلحة .. ولكن امام اصرار صديقنا تمنى له الحظ السعيد فى خدمة وطنه .

واعاد ترتيب وتجهيز هندسة اسكان ومرافق سيناء مستهديا بتقرير صديقنا الصغير .

ملأته هذه التجربة املا وثقة .. وغرورا .. لقد استجاب استاذه لتقريره وهذا يدعو للعجب فلقد كان من الجيل الذى تمتع بمجانية التعليم وازدحام المدرجات فى الجامعات وفقدان الصلة بين الأستاذ وطلبته . فلم يؤثر فيه استاذ واحد طول فترة دراسته .

وكانت الجامعة بانفصالها عن المجتمع عبارة عن معهد لتفريخ المتعلمين نصف المثقفين رغم أنه لم يكن قد أصابها بعد تدهور عصر الانفتاح والذى حدا بصديقنا بعد ذلك الى اعتبار فترة دراسته فى الجامعة رغم انفصامها العصر الذهبى للتعليم الجامعى .

وكان من الجيل الذى انزاحت من أمامه الحواجز الى القمة فلم يعد هناك ابناء ملوك او امراء او وزراء أو اعيان وانماطريق مفتوح بدون اشارات الا لمجهوده وقدرته واخلاصه وهو الأمر الذى لم يستمر طويلا بظهور امراء وملوك جدد . وهو أيضا من الجيل الذى سمحت له السلطة بالقراءة فى العلن ودون أن تفرض عليه المحظورات .. جميع الكتب فى المكتبات ودع مائة زهرة تتفتح ومائة فكرة تتصارع وهى الأمور التى قضت عليها سياسة الانفتاح الاقتصادى والفكرى والأرهاب العسكرى والبوليسى وموجات اجهزة الأعلام الفائقة القوة والتأثير .

اقول ان صغيرنا وهو منتشى بما حدث فى مكتب استاذه الوزير سار واثق الخطى مقدما نفسه للكلية الحربية ليصبح ضابطا مهندسا .. ولم يشعر بالكارثة المتجه اليها بنفسه الا وهو فى حمام السباحة الخاص بالكلية الحربية ومجموعة من الصف ضباط الطلبة ينبحون حوله صائحين .. يا شخاخ .. يا عيل .. يا مستجد .

الفصل الثالث

كان يتحرك كما لو كان فارسا من فرسان السينما الأمريكية برشاقته وطوله .. وبنطلونه الكحلى ذى الخطوط الرفيعة والجاكيت الموهير الأبيض وربطة العنق الزرقاء الحديثة .

كان قد خرج لتوه من بين يدى حلاقه بعد أن قص شعره على أحدث موديل وصل اليهم من بلاد الفرنجة .

لقد استسلم صديقنا لأجهزة صبغ الانسان العالمية واصبح نموذجا من نماذجها .. وقديما قال هربرت ماركوس ان اجهزة الاعلام والموضة والدولة تصب الأفراد فى نماذج من ابتكارها ليصبحوا نسخا متشابهة وتمسخ كلا منهم ليكون انسانا ذا بعد واحد يلبس ما يريدون ويستهلك ما يدفعونه لاستهلاكه ويفكر ويتكلم ويتصرف بشكل مخطط له مسبقا كما لو كان قد كتب فى اللوح المحفوظ .

قاوم صديقنا طويلا عندما حاولوا صبه فى قالب عسكرى بالكلية الحربية وما بعدها .. ولكنه استسلم عندما قرر أن يكون رجل أعمال انفتاحيا فهو لكى يكون مقبولا من الانفتاحيين فيضمونه لناديهم عليه أن يمثل نموذج رجل الأعمال .. الملابس المستوردة على أحدث طراز .. السجائر الأمريكية .. العربة الفارهة .. وارتياد الأماكن الخاصة ذات التكلفة العالية وعليه أيضا أن يتقن الانجليزية حديثا وكتابة وقراءة .

هكذا قالت له .. وهى تحاول أن تقوده خلال دروب الغابة المتشابكة وهكذا رسمته قبل أن يقابل رئيس مجلس ادارة الشركة الأمريكية .

القت عليه النظرات الأخيرة وتأكدت من أنه لم ينس شيئا .. ثم تقدمته الى حجرة الأمريكى .. الذى وقف مرحبا به بشكل متكلف .

قال — لقد اختلفنا مع شريكنا المصرى .. وهو قد وافق على بيع أسهمه ولكن القانون يحتم ان يشتريها مصرى .. لابد وان يكون للجانب المصرى على الاقل نصف الأسهم .. ولقد بحثنا طويلا .. واستقر الرأى عليك فما رأيك ؟!

رد صديقنا (وهو يبحث عن خطوط انتهازيته التىيجذبه منهاالأمريكى) ولكننى لست مستعدا لاستثمار بهذا القدر .. !!

حسم الأخر الموقف بسرعة وكأنه يملى قرارات غير قابلة للتعديل .. سنمنحك قرضا يسدد على خمس سنوات .. وسيحدد لك مرتبا الف جنيه شهريا وستكون مهمتك الادارة والاشراف على العمالة والانشطة المحلية .. وسنتحمل نحن جميع التكاليف لحين الحصول على اعمال جديدة .. سواء كانت تكاليف دراسات أو سفر او خلافه على أن نحصل على ستين بالمائة من الأرباح .

كان العرض مغريا تماما .. خدر جميع مراكز المقاومة لديه فورا .. وكانت هى تبتسم فى سعادة فهى التى رشحته لهم .. وكانوا قد أعدوا صيغة عقد وقعها الجميع واصبح مساهما فى الشركة المصرية الأمريكية بنسبة خمسين بالمائة .

لقد وضع قدميه على أولى سلالم النجاح والانطلاق بعد رحلة طويلة منذ ان واجهه مدير سلاح المهندسين قائلا :

والأن يمكننا ان نوفر لك مكانا اداريا .. اننى مشفق عليك ماذا ستفعل بعد أن تخرج من القوات المسلحة .. ؟

رد — اننى مهندس .. وسأبدأ من جديد .

لقد جاهد كثيرا لكى يترك القوات المسلحة .. ومنذ أول يوم .. منذ زمن طويل بعد أن اجتاز الكشف الطبى وتقدم للجنة كشف الهيئة .

كانت اللجنة فى الماضى القريب هى البوابة للجنة هكذا تعلم سواء من قصص يوسف السباعى او من الفضائح التى نشرت فى جرائد ما بعد الثورة عن الوضع قبلها .

لقد كانت لجنة كشف الهيئة ذات وظيفة خاصة وهى التأكد من أن ضباط القوات المسلحة من اصول ارستقراطية لضمان ولاء الجيش للنظام.

ترى ماذا ستكون وظيفة لجنة كشف هيئة ما بعد الثورة ، وظل صديقنا يجهز ردودا لأسئلة توقعها من اللجنة الجديدة .

سيسألونه عن سابق خبرته .. وسيفيده طبعا خبرته فى سيناء .

كذلك سيسألونه عن القضايا القومية والوطنية وبالتاكيد سيسألونه لماذا يريد أن يكون ضابطا ؟؟

رتب الاجابات ولكنه توقف أمام السؤال الأخير .. هل سيقول لهم هربا من مستنقع الحياة المدنية .. هل سيقول طلبا للامتيازات التى يتمتع بها الضباط هل سيقول ايمانا بالدفاع عن المكاسب الوطنية والاشتراكية .. !!

هل سيقول انه حلم كل وطنى ان يكون جزءا من جهاز حماية بلده .. !!

وقطع عليه تأملاته من ينادى عليه للمثول أمام اللجنة .

حجرة واسعة جدا يتوسطها منضدة على شكل حدوة حصان .. مجموعة ضخمة من الفرقاء واللواءات بألوان ملابسهم الزاهية المزينة بعلامات حمراء وذهبية .. الاضاءة خافتة قليلا .. أحدهم يجره جرا الى وسط الحدوة أنفاسه تتلاحق .. ضربات قلبه تزداد نبضا .. يسمع سؤالا كأنه قادم من الحياة الأخرى عن أسمه .

ويرتبك أن أسمه مدون لديهم فلماذا ؟؟

سؤال آخر .. هل قريبك فلان .. الفلانى !!

ويرد .. لا تشابه أسماء .

أحدهم يهمس لآخر فيهز رأسه .. ثم يصرفه .. وأصبح طالبا بالكلية الحربية .

لقد قال له انه قريب أحد اللواءات الجالسين حول حدوة الحصان .

وهكذا أيضا فعلوا معه عندما قدم استقالته من القوات المسلحة بعد أن سمحوا لهم بتقديم استقالاتهم .

كان قد أتفق مع مدير سلاحه .. كما تعرفون .. وكان اجراء المقابلة شكليا أيضا لقد همس مدير السلاح للآخر فهز رأسه .. ثم صرفه ..

وأصبح مقيدا متقاعدا .. لقد قال له أنه ضابط مشـــاكس ومشـــاكله كثيرة .

لم تكن مشاكسة صديقنا ظاهرة جديدة عليه بعد حرب ٧٣ بل بدات منذ اليوم الأول لدخوله الكلية الحـربية .. وبعد تخـرجه من الكليـة الحربية .. وقبل ذهابه لليمن .. وبعد عودته من اليمن .. وبعد حرب ٦٧ وقبل حرب ٧٣ كانت تؤرقه فكرة أنه قد أصبح قاتلا محترفا .. بعد تخرجه من الكلية الحربية مباشرة .

رومانسيته ثانيا التى جعلته يبكى وهو يخلع اعواد الشعير فى سيناء ويضع بدلا منها الغاما .. يخلع الحياة .. ويزرع الموت .

قدم نفسه فى صباح يوم خريفى مشمس ومعه المصـــاريف للكليـــة الحربيـــة جلسوا حول حمام السباحة على المدرجات .. استلمهم نقيب يعمل بدون حماس .. استلم منهم المصروفات .. سلمهم للصف ضـــباط الطلبة .

الشمس تنعكس على صفحة مياه حوض السباحة .. ونسمة هواء باردة تخفف حرارة الاشعة المسلطة عليهم .. وطوابير الطلبة القـــدامى تتحرك على نغمات مارشات عسكرية فى نظام .. تحمس مـــع الحركة المنتظمة للأذرع والسيقان .. تخـــدر .. صاح الصف ضباط الطلبـــة مجموعة اولاد تتراوح اعمارهم بين الثمـــانية عشر والعشرين .. يربون شوارب كثيفة كى تظهرهم اكبر سنا ويضخمون أصواتهم .. ابتسم .. لقد كانوا يمثلون بدون اتقان شخصية رجل متزمت .. فلقى جزاءه فورا .. حكم عليه أحدهم بأداء التمرين رقم ٩ .. مثلـــه له احـــدهم انه تمـــرين القرفصاء .. تضع كفيك فوق رأسك وتقفز لأعلى مبدلا ساقيك .. وانقطعت انفاسه مع مزاولة التمرين ثم اختفت الابتسامة .. وتبدد الحماس .. ليواجه أصعب يوم فى حياته .. لقد كانوا يحاولون أن يصبوه فى قالب عسكرى .. وبأسرع وقت .. ان يخلصوه من الأخلاق المدنية المرذولة .. ان يصنعوا منه رجلا .. هكذا برروا له تصرفاتهم عندما واجههم يسخفها بعد ذلك .

ولكنهم فى سبيل هدف اسمى يرتكبون جرائم لا حصر لها .. فهو عليه أن يتعود على اطاعة الأوامر بدون تفكير .. فيفقد القدرة على المبادرة أو التصرف منتظرا التعليمات وهو فى عقله الباطن قد ترسب احســاس بعـــدم القدرة على اتخاذ القرار .. وأيضا الاستقبال العقلى لأشياء غير منطقية كأن يقيس العنبر مثلا بإبرة خياطة .. او يضغط على الحائط ليزيحه من

مكانه .. او .. او .. وهو يتعود ايضا على تحمل الاهانة .. كان ينادى عليه بلقب شخاخ .. وعيل .. ولقد لاحظ صديقنا تأثير هـذه التربية فى زملائه الضباط بعد ذلك .. وخصوصا عندما يتعاملون مع التكتيك وسوف ترى ذلك بوضوح عندما اقص عليكم ماذا حدث فى اليمن وسيناء بعد ذلك.
استلم صديقنا مهماته .. كيسا من الجلد .. ملأه بأحذية وشرابات وفانلة ضرب نار (بلوفر كاكى) .. وافرولات غير مناسبة لجسمه .. وقايش وجتر وزمزمية وخوذة واشياء كثيرة .. كان عليه ترتيبها فى دولابه بالعنبر

وهناك ظل يبحث لساعات عن الجندارى والجندارى كما عرف بعد ذلك هو العلم الذى يتوسط الكلية الحربية ويلتفون حوله كل صباح يستمعون الى سخافات المساعد الطالب .. ولكنهم يسألون عنه الطلبة المستجدين دائما محيرين اياهم ومستخدمين حيرتهم كوسيلة للسخرية منهم .

زعق لطلبة .. وامتدت عشرات الأيدى تدفعه ليقف .. لقد دخل باشاويش السرية .. او الرقيب اول .. ولد فى التاسعة عشر يطلق شاربا كثيفا ويضخم صوته بحجم الشرائط الأربعة التى يعلقها على ذراعه .

سأله عن عمله..

ـ فأجابه : بانه مهندس .

وهنا اهتاج الآخر بشدة قائلا : مهندس دى فى البيت يا عيل ياشخاخ هنا طالب جامعى مستجد تحت الأختبار فاهم .

رد الآخر : ايوه .

فاهتاج ثانيا : هنا مفيش ايوه .. هنا ايوة يافندم .

ابتسم صديقنا بغيظ .. انهم يصبغونهم .. ولكن هل هـذه هى الطريقة المناسبة .

لقد قال ماركس .. ان التشوه يصيب الظالم والمظلوم .. القاهر والمقهور .. المعتدى والمعتدى عليه بنفس القدر .. ولكن بصور مختلفة .

وهكذا .. فان بعض الطلبة الذين كانت لهم سلطات لا نهـائية فى الكلية الحربية مثل المساعد او الرقباء الأول .. اصابهم تشوه الظالم بنفس قدر تشوه الآخرين فهو بعد تخرجه يصبح ملازما فى كتيبة هو اصغر من فيها وتسحب منه السلطات التى مارسها لسنين فى الكلية الحربية فيصاب برد فعل مضاد .

وهكذا صادف صديقنا عديدا من مشوهى الكلية الحربية .. سواء كانوا قادتها أو عبيدها .. كانوا يقولون لهم .. لا تتكلم نيابة عن زملائك قل أنا فقط .. اسمع الأمر حتى ولو كان مستحيلا .. الأقدمية مقدسة والاقدم برقم يعلم بالتأكيد اكثر منك .. اهم ما فى الحياة النظام .

وتسقط كل هذه الدعاوى من أول يوم .. فالأولاد فى نهائى لا ينفذون هذه التعليمات ابدا .. وثار صديقنا تمرد .. وكان جزاؤه حمل المرتبة فوق راسه والدوران بها يتابعه عريف ذو صوت مزعج .. قذف المرتبة فوقه ليقع على الأرض ويتبعه مكيلا له اللكمات والركلات .

ولم يفق الا على صوت مجموعة من الصف ضباط ملتفة حوله تنبح فى صوت واحد وايدى كثيرة تمتد لتجذبه فى اتجاهات مختلفة .. ولم ينقذه منهم الا ابن لجار لهم جذبه الى حجرته وافهمه طقوس التعامل .

اذا اخذت الأمور بجدية فلن تستطيع أن تكمل .. انظر للتصرفات على اساس أنها مسرحية .. وامش بجوار الحائط .. نفذ التعليمات .. وسترتاح بعد ذلك .

وبدأ التدريب .. كان عليه أن يتعلم السير .. واحد .. اثنين .. واحد اثنين .. هوب .. هوب .. تبديل الخطوة .. خطوة تبديل .. النداء على الرجل الشمال .

كانت تضنيه فكرة انه ترك وظيفته .. وهيلماته فى سيناء ليتعلم السير فى الكلية الحربية .. ولكنه عرف بعد ذلك العلاقة بين الاستماع الى النداء والتصرف على اساسه وما يصحبه من غرز عادة اطاعة الأوامر عندما ناقشه أحدهم فى فكرة الارتباط الشرطى بين الصوت والتصرف وان هذه احدى نظريات علم النفس السلوكى وخصوصا تجارب بافلوف .. ضحك كثيرا كان يقول انها نظريات الجيوش القديمة .. عندما كان على القائد ان يقود رجاله مئات الكيلو مترات سيرا على الأقدام ثم يدفعهم لمعركة مواجهة بالسلاح الأبيض ولكن فى اطار الحروب الالكترونية والقنابل التليفزيونية والصواريخ الموجهة تصبح هذه النظريات عذابا لا طائل من خلفه .

وانه لابد من اعادة النظر فى طريقة تربية الشباب بالكليات العسكرية لتتوافق مع العالم الجديد .. وللأسف ان ما يتعلمه هؤلاء الشباب يطبقونه على جنودهم فى وحداتهم وبشكل تعسفى .. بل .. وهو العجيب انهم يطبقونه فى منازلهم وتتحول زوجاتهم وابناؤهم الى جنود .. عليهم أن

يطيعوا الأوامر بدون مناقشة .. انه كل حصيلتهم الثقافية والسلوكية ويتحول المجتمع الى الديكتاتورية ويخضع البشر وتحدث نكسة ٦٧ .. وهزيمة للشعب والديمقراطية والحرية .. وتأمرنا القيادة بأن نصبح اشتراكيين فنصبح اشتراكيين ثم تأمرنا بأن نكون انفتاحيين .. فنصبح انفتاحيين . وتختنق المبادرة والحماس .. وقوة الخلق .. ثم نضع أيدينا تحت ذقوننا ونتعجب ما الذى حدث للمصريين ؟؟

فى نهاية الخمسة واربعين يوما المقررة لتحويل صديقنا من مدنى الى عسكرى كان قد تعلم كيف يتحرك .. وكيف يجرى .. وكيف يؤدى التحية العسكرية .. وكيف يفك ويركب البندقية الآلية .. وكيف يطلق النار من هذه البندقية .

احضروا لهم مجموعة من الترزية .. جهزوا لهم ملابسهم العسكرية ثم مروا فى طابور استعراض امام اللواء قائد الكلية وادوا له التحية العسكرية وخرجوا فى اول اجازة بعد دخولهم الكلية الحربية منذ خمسة واربعين يوما . كان يجلس على الكرسى المجاور لشباك المترو .. الهواء البارد يصطدم بوجهه الحليق .. بجواره طالب مستجد من طلبة الكلية الحربية خرج ليقضى أول اجازة له مثله .. وامامه فتاة صغيرة تداعب الشاب بابتسامة بريئة وهو ينظر فى الفضاء نظرة تملؤها الأسى .. حزن عميق وانكسار لا يتناسب مع البدلة الكاكى بدلة السلطة .. وشعر انه ينظر فى مرآة انه يشعر بانكسار فى نظراته .. وتملكته رغبة عارمة فى الهروب وعدم العودة .. كانوا يحاصرونه من داخله .. فاصواتهم تدوى فى راسه لا تخلع الكاب فى الاتوبيس .. لا تأخذ أمك بالحضن فلقد أصبحت رجلا لا .. لا .. الف لا .. وكانوا هم أول من يخالفونها .. لقد تغير صديقنا فتحوله من مهندس لاسكان ومرافق سيناء .. ذلك الشخص الأكثر من هام فى بلد يعيش معظم اهلها على المتاولات . .خاصة فى عصر المد العمرانى الذى صاحب بدايات الثورة وبناء مئات المدارس والوحدات الاجتماعية.اقول فتحوله من هذا الوضع المتميز الذى كان يتيح لهالتحكم فى أرزاق مئات البشر الذين يتمنون رضاه .. الى الطالب الجامعى المستجد وما يلحق باسمه من شخاخ وعيل وخلافه من شتائم عسكرية كان لها تاثير مضاد .. فلقد شعر لأول مرة بالقهر .. ومدى ضراوة السلطة خاصة لو كانت فى أيدى غير مقدرة لأهميتها .. وهو الأمر الذى اثر على معظم سلوكياته بعد ذلك .. لقد أصبح متمردا او فلنقل انتصر الجانب الرومانسى على الجانب العملى فى شخصيته فاصبح ثائرا متمردا . يهتاج لمجرد احساسه بأى تصرف يحتوى على ظلم .. سواء كان موجها له او للآخرين او حتى لحيوان .

وغرق صديقنا فى فلسفة تدعم احاسيسه .. فهو دائما ما يفلسف .. وهو بدون الفلسفة لا يستطيع ان يتحرك لخطوات .

وفلسفة تمرد صديقنا وجدت صداها فى كتابات كولن ولسن « اللا منتمى » حتى انه وخلال عودته هرب كتابه هذا الى داخل الكلية الحربية .. وكان يقراه باستعذاب خلال الساعات المقررة للاستذكار .

وكره فكرة الحرب .. والمجتمع .. واى ارتباط .. حتى أبسطها كالارتباط الأسرى .. كان يجلس فى حلقات الدراسة بجسده فقط اما عقله فلقد كان يستخدم حيل والدته فى الهروب بأحلام اليقظة .. وهكذا هو دائما منذ أن حاول والده انضاجه مبكرا بحبسه فى غرفته للاستذكار .

ثم تحول تمرده بعد قليل الى ظواهر .. فهو الذى لم يدخن ابدا حتى دخوله الكلية الحربية اصبح مدخنا شرها .. لأنهم منعوه من التدخين وكان يتحايل بشتى الطرق على تهريب سجائره لداخل الأسوار .

وبدأ يدعو لتمرده .. كان يناقش كثيرا حتى داخل الأسوار .. عندما طلبوا منه تجهيز مجلة الحائط .. صدرها بمقال تجمع حوله اعداد غفيرة من الطلبة عن « السيرياليزم واللامعقول واللا منتمى » .

ورغم هذا فان واقعية والده اجبرته على الاستمرار .. كان يتعامل مع الموقف كما لو كان تراجيديا من أعمال هوميروس عن صراع الانسان مع القدر والقوى الخفية الأكثر تسلطا وتجبرا .

لكن وحتى فى أصعب الظروف وفى احلك الأوقات يستطيع الأنسان ان يجد ما يمتعه وكانت الخمس دقائق الراحة التى يمنحونه اياها بين كل طابورين مصدر سعادة دافقة له .. لقد كان يجرى ويرتمى فى ظل شجرة بجوار قناية صغيرة جدا للمياه الراوية لاشجار الحديقة .. وينام .. ينام بعمق لمدة خمس دقائق .. يبتسم .. لو عرفوا كم يستمتع بدقائقه الخمس فى ظل شجرته لقطعوا جميع الأشجار .

كانت ليلة راس السنة .. وكان شركاؤه اولاد العم سام قد قرروا أن يحتفلوا بها ودعوه لمشاركتهم .. وكان قد انضم لنادى الانفتاحيين رسميا بعد أن أصبح عضوا فى غرفة التجارة الأمريكية بالقاهرة وهى المكان الذى يتجمع فيه مندوبو الشركات الأمريكية العاملة فى مصر .. و .. و ..

مجموعة من المغامرين المصريين المتأمركين . كانوا يجتمعون مرة كل شهر حول متحدث رسمى ذى سلطة يستمعون اليه وهم يتناولون الغذاء ثم يحاصرونه بأسئلتهم وفى بعض الأحيان تعقد صفقات .

وهكذا تصنع السياسة والاقتصاد فى بلاد الانفتاح .

فى تلك الليلة كان هنـاك عديد من الأمريكيين رجالا ونساء .. وعديد من المصريين رجالا ونسـاء .. وهو بينهم يرتدى بدلة كحلة أنيقة اشتراها من نيويورك التى استوردتها من كريستيان ديور .. وتميصـا ابيض خفيفا من قطن سويسرى وصنع جيفنشى وبابيون نبيـذى محـلى بالالماظ الصناعى اشتراه من روما وحذاء أسود لامعا بالطبع انجليزيا .. وشرابا بلون البابيون ومطبوعا عليه علامة بيير كردان .

وكانت ترتدى فستانا حريريا ملتصقا بجسدها أسود طويلا عارى الظهر حتى منتصف جسدها الأسمر الفارع .. ذا فتحتـين على جانبيه برزان ساقيها وحتى منتصف فخذيهـا وكانت تغطى كتفيها بفـراء ابيض يتوسطه بروش الماظ أصلى يضوى باشعاعات حمراء وزرقاء وبنفسجية وحذاء اسود قطيفة قادم لتوه من أمريكا .

كانت تضحك بسعادة .. وتنظر له محاولة اقتياده فى دروب العادات الأمريكية همست ــ لكى تستطيع التعامل معهم يجب أن تعرف كل شيء عنهم .. أحـاديثهم المفضـلة .. عاداتهم فى الاكل .. كيـف يشربون وما انواع الخمور التى يتناولونها .. أنس كل ما تعلمته من قبل .. يجب أن تقرأ رواياتهم خاصة تلك التى يطلقون عليها الاكثر مبيعا .. وتعـرف فكاهاتهم .. هناك أشياء يضحكون عليها ونحن لا نفهمها .. فهم يقولون مثلا على الأمريكى الذى يرتدى ملابس رعاة بقر مبالغ فيها (ذو الرقبـة الحمراء) ويضحكون بالنسبة لنا لا تعنى شيئا .. أما هم فيشيـرون الى هؤلاء الذين نزحوا من المكسيك سرا عن طريق السباحة أسفل الماء بحيث لم يكن معرضا من جسدهم للشمس الا قفاهم الذى أحمرته الشمس فسمى بالرقبة الحمراء مثلما كان يقول الليبيون على المتسربين سرا من الأسلاك التى بين حدودهم ومصر السلكاويون .

كانت توليه أهتماما خاصا ولا تترك منـاسبة الا وتنتهزها فرصـة لتقريبه من أولاد العم سام .. وكان يتعامل معها بحذر فقد عودته الأيام الأخيرة انه لا يوجد تعاطف بدون ثمن .

ترى ما العائد الذى تتوقعه . .ظل يفتش داخل أنتهازيته .. ترى

أين نقطة الضعف التي تجذبه منها والى أى مصير تقوده .. ووجد الرد على سؤاله عندما ازالت الخمور الحذر بعد ذلك فى لقاء خاص بينهما قصت فيه تاريخ حياتها وهى تبكى ألما او ندما .. أو فى محاولة للتعامل مع جانب الرومانسية الذى عرفته فيه .

ولكن لماذا اتكلم عن ليلة رأس السنة هذه لقد وددت ان أكلمك عن ليلة رأس سنة اخرى .. تلك التى تضاها فى الكلية الحربية قبل صباح تخرجهم كانت العنابر كلها مستيقظة رغم سماعهم لنوبة نوم منذ مدة طويلة .. وكان ابن جارهم قد استضافه فى حجرته حيث كانا يستمعان الى موسيقى نابعة من راديو ممنوع دخوله الحربية ويدخنان سجائر ممنوعة ايضا .. كان الآخر يعتذر له عن سوء المعاملة التى لاقاها أما صديقنا فلم يكن مصدقا أن الكابوس قد قارب على الانتهاء كان يشعر انه شاهد فقط عرضا مجسدا من عروض بازولينى أو فللينى .. عندما عادوا من اجازتهم الأولى وقف المساعد فى طابور المساء متخفيا بالظلمة يؤنبهم .. كان يقول أن طلبة نهائى ارتكبوا مخالفات لاحصر لها وان طلبة متوسط انحلوا تماما . لذلك يصير معاقبة طلبة اعدادى والمستجدين بطوابير تكدير حتى نوبة نوم . كان الآخر يضحك ويحاول فلسفة ذلك بانهم بعد عودتهم من الأجازة كان لابد من تذكيرهم بأنهم لازالوا عسكريين .

تذكر صديقنا هذا الحوار عندما سمع عن دفعة الضباط حديثة التخرج التى ارسلوها الى ميدان المعركة مباشرة ايام يونيو ٦٧ وكيف تصرف معظمهم بطفولة خلال المعارك فهم لم يتعلموا الا قيما جوفاء فى كليتهم الحربية .

وهو ايضا لم يتعلم شيئا خلال مدة اقامته هناك .. عناوين الموضوعات فقط تكتيك .. اشارة .. هندسة ميدان طبوغرافيا .. وكلها درسها بطريقة ساذجة اعدوها لطلبة فى السادسة عشر من العمر .. ولا تليق بمهندس تجاوز هذا السن بخمس سنوات درس خلالها بالجامعة ولكن كل هذا يمكن أن يوضع بكفة وما تعلمه من مدير الكلية الحربية خلال مقابلتين بكفة اخرى لقد قال لهم — انهم بانضمامهم لمصنع الرجال (تعبير غريب فالبشر لا يعاملون كالمنتج .. ان البشر علاقات وافكار ومزاج واختلاف ومبادرة وحيوية .. واخيرا عقل وارادة) .. ستتاح لهم فرصة الانضمام لباقى الرجال الذين سيحمون مصر .

وان كانت الفرصة قصيرة للتأثير فيهم وتحويلهم الى رجال (وبالتالى كان لابد من تعديل وسائل واشكال تدريبهم) ثم تأسف بأن رغم هذه العيوب الواضحة الا انهم سيكونون ضباطا وسيحسبون على الضباط ..وهو

لذلك وأمره لله يرجوهم أن يحافظوا على سمعة الضباط بأن يؤدى كل منهم التحية العسكرية للضابط الأعلى .. والا يتزوجوا بغايا الكباريهات .

يزاولون معهم الجنس فقط ولكن الزواج شيىء آخر .. ولا يتزوجون ايضا امرأة تلبس الملاءة اللف والا فكيف سيدخلون معها الى نادى الضباط لقد منعوا ضباط الشرف من دخول الأندية لذلك السبب « ضباط الشرف هم الصف ضباط الذين رقوا حتى رتبة ضابط بحد أقصى رائد » .

وأن عليهم ايضا الا يشتروا الفجل والكرات والبطيخ ويحملوها وهم يرتدون بدلة الجيش .. ثم كرر رجاءه .. بأنهم محسوبون ظلما على رجال القوات المسلحة وعليهم الا يسببوا فضائح لهم .

كان الفتى يضحك وصديقنا يعلق على كلمات مدير الكلية .. وكان رغم سنه يعجب كيف يجرؤ انسان ما على مواجهة مهندسين بهذا المنطق.. لقد كان المهندس فى ذلك الزمن املا .. كان يمثل نجاح خطط التنمية والأمل فى مستقبل يواكب الزمن والتقدم التكنولوجى .. لقد كان البطل فى السد العالى .. ومصانع الطيران .. والمصانع الحربية .. وقناة السويس .. واستصلاح الأراضى .. فى الحديد والصلب .. ومصانع الأسمنت ومصانع الكيماويات .. وألف مصنع آخر .. وكانوا يغنون له.. ويرفعون من شأنه لذلك اندهش الفتى .

بالطبع كان من الممكن أن يكون حديث مدير الكلية الحربية صحيحا فى عصر الانفتاح بعد تنازل القيادة عن حلم خلق قاعدة صناعية فى مصر تخدم افريقيا والعرب والأمم الأسلامية وتعتبر نموذجا لصمود دول العالم الثالث وتحديها لدول الصناعة فلقد انزوى المهندس فى عصر الانفتاح وحل محله الكومبرادور .. السمسار .. الوسيط .. الممتلك لأكبر رصيد من المال المقتطع من قوت ومعاناة الشعب.. ففى عصر الانفتاح اصبحت هناك بطالة بين المهندسين .. خاصة المهندسات اللائى لا يستطعن السفر للخارج للعمل فى دول البترول .. ولكن فى ذلك العصر الذى كان أمل كل شاب أن يصبح مهندسا وأمل كل أب أو أم أن يريا ابنهما مهندسا كان غريبا .. أن يخاف مدير الكلية من زواج الضباط المهندسين من بغايا الكباريهات الا اذا كان متأثرا بقصص يوسف السباعى .

كان الفتى يضحك بصوت عال غير عابىء بأنهما يتكلمان بعد سماعهما لنوبة نوم وصديقنا يحدثه عن مشاعره وهو يؤدى اختبار الثقة بعد عودتهم من المناورة .

واختبار الثقة ان كنت لا تعلم هو ان يصعد الطالب الى أعلى برج منط حمام السباحة بالكلية الحربية .. بملابسه كاملة ثم يقفز الى الماء عموديا عند سماعه لأمر القفز .

كان صديقنا قد عاد من المناورة بعد قطع رحلة سير على الأقدام مقدارها عشرون كيلومترا ذهابا واخرى ايابا وبعد ان قضى ليلته فى حفرة صغيرة أعدها بنفسه فى الجبل خلال برد ديسمبر اللعين للتدريب على تكتيك الفصيلة المشاة فى الدفاع وكان مرافقوهم من الضباط يتبعونهم راكبين ميكروباس ثم قضوا ليلتهم فى عربتهم بينما تركوهم ينامون فى العراء .

كان يقول هل يضربون لنا المثل فى كيف يكون الفارق بين الضابط والجندى لتصبح هذه الليلة ذريعة لنا حتى نترك جنودنا فى العراء ونبحث نحن عن أسهل وسيلة للراحة .

عندما صعد الى برج منط حمام السباحة .. ونظر من اعلى اصابه الرعب مبانى الكلية تبدو من أعلى صغيرة .. وهو لم ينجح حتى تلك اللحظة فى تعلم السباحة .. لقد خافت عليه أمه من الغرق فلم تمنحه نصف جنيه اشتراك فى الحمام خلال الأجازة الصيفية وبالتالى لم يتعلم السباحة مثل باقى زملائه — هكذا كانت تدعى — واستمع وهو شبه منوم للأمر .. اقفز .. لم يدر ماذا يفعل ؟؟

حاول العودة .. ولكنه ارتبك فتقدم مخطئا الى الهواء ليسقط من من اعلى فى منتصف المسافة بين البرج والماء تذكر انه لا يعرف السباحة .. رفع ذراعيه لأعلى للامساك بقاعدة البرج .. ولكن هيهات استقبلته المياه بكرباج ففطس الى أسفل الحمام وارتفع مرتين وبصعوبة استطاع أن يمسك بالحبل الذى قذفوه له لانقاذه .

فى بداية العام الجديد .. كان يقف وزملاؤه فى صف طويل أمام مدير الكلية الحربية وباقى ضباط التدريس ليؤدى اليمين العسكرى — اقسم بالله العظيم .. بالمحافظة على السلاح .. والأرض والجود بالنفس .. واطاعة القادة .

ولم يوفوا بهذا القسم بعد ذلك بخمس سنوات مع أحداث حرب ٦٧ للأسف .

وخرج صديقنا فى ذلك اليوم من الكلية الحربية لآخر مرة مرتديا ملابسه العسكرية وعلى كتفيه فى كل ناحية نجمتان صغيرتان تنبئان بأنه قد أصبح ملازما أول فى القوات المسلحة .

الفصـــل الـــرابع

شاهد دموعها بصعوبة وهى تنحدر على خديها .. فالضوء الأحمر الخافت جعل الموجودات حولهما تبدو كالأشباح .

كانت موسيقى الوسترن بدقات رعاة البقر الرتيبة والصوت المبحوح للمغنى الأمريكى وكاسا المنهاتن اللذان سبقا زجاجة النبيـــذ التى قاربت على الأنتهاء .. قد اثاروا اشجانها .

كانت تتكلم عن وحدتها التى تضنيها رغم كل مظاهر الترف والرضا التى تحيطها العربة المرسيدس التى اشترتها لها الشركة على احدث طراز والشقة الفاخرة التى أجرتها لها الشركة تحت اسم شقة الضـــيافة .. والفيديو كاسيت واحدث الأفلام الأمريكية التى تمتلىء بها مكتبة الشقة .. وعشرات المتقربين لها فى محاولة لعقد صفقة ما .. والألف وخمسمائة جنيه التى تحصل عليها أول كل شهر .

كانت تتكلم بالانجليزية اللغة التى تتقن التعبير بها عن نفسها وتقول انها فقدت القدرة على التواؤم .. فهى مصرية بالمولد . ولكنها أمريكية بالتربية رغم عدم زيارتها لأمريكا .. وانها فقدت كل هوامش الاتصـــال بالآخرين . الأجانب يتعاملون معها على أنها جزء من مغامرة ساحرة للشرق وأبناء وطنها على أساس أنها أكثر تأمركا من الأمريكيين .

أدهشته دموعها كان يتصور انها راضية عن حياتها .. وأن الجـــانب الأكبر من أمريكيتها قد كونته بارادتها .

وكانت هى ايضا تبدى دهشتها .. لقد حصلت على ما خططته لنفسها تماما لقد وثقوا بها لدرجة انها الوحيدة بين جميع العاملين التى حملـــت كارت « أمريكان أكسبريس » .. وهى بواسطته تســـتطيع ان تصـــبح

مليونيرة .. ولكنها لن تخذلهم لقد بنت ثقتهم بها بعد عناء .. أن ملاحظاتها وتقاريرها مقدسة لديهم وهى بذلك تستطيع أن تطيح بمن تريد وتقرب من تريد أيضا كانت تبكى وتقص عليه قصتها لعله يستطيع تفسير أسباب عدم رضائها انها أبنة مهندس .. عاصر الوقت الذى كان للمهندس فيه قيمة عالية ومستوى معيشة متميز .. أصرت امها على أن تتعلم فى المدارس الأجنبية هى وأختها .. حيث اتقنت الانجليزية .. والعادات الخاصة بطبقة كانت تتميز وتتشكل فى تلك المرحلة .. تلك الطبقة التى ورثت الارستقراطية الاقطاعية بعد قيام الثورة .

ان المتامل فى تلك المرحلة من تاريخنا فى حاجة الى ان يمتلك خيالا علميا وقدرة على ربط الظواهر المختلفة .. التى ارتبط بعضها ببعض بشكل جدلى بحيث لا يمكن تفريغ ظاهرة منفردة ومناقشتها الا فى اطار الظواهر الأخرى . لقد حدث أنقلاب فى تاريخ البشرية سواء العلمى أو السياسى او السلوكى أو الاجتماعى .. عصف بكل الموازين والقيم المتوارثة فتخبط الكثيرون وخاض كل منهم تجربته متصورا انه امتلك القدرة على ايجاد التوازن الصحيح . فعندما كان الكون تقتسم السيطرة على ارضه انجلترا وفرنسا .. كانت الحياة مستقرة .. مستعمر وآخر يعانى من الاستعمار .. مستغل وآخر يعانى الاستغلال .. منتج للمواد الخام وآخر مصنع لها .. وكان العالم يعيش ثقافة وحضارة الاقوى .. وكان فى بلدنا ارستقراطية اقطاعية امتلكت ثروتها ونفوذها بعد الاحتلال الانجليزى لبلدنا وتوزيعه الأرض على الخونة الذين قدموا له عرابى وبلدهم على مائدة اطماعهم .. وكانت الاستقراطية تتمثل باولياء نعمتها .. تكلم لغتهم .. وتلبس ملابسهم .. وتتبنى تقاليدهم . كانت الأرستقراطية تعيش فى أوروبا فترات اكثر من التى تقضيها فى بلدها وفى فترة ما .. حاولت دول أخرى مشاركة المستعمرين الاساسيين للأرض .. وقامت حرب طاحنة اعقبتها حرب اخرى ضارية هى الحرب العالمية الثانية فى هذا الوقت جاء صديقنا الى الحياة .. وفى وقت لاحق قريب جاءت صديقته الباكية .

خلال الحرب العالمية الثانية ظهرت الدبابة .. والطائرة والصاروخ والقنبلة الذرية تلك التى دمرت بها امريكا هيروشيما ونجازاكى .. وبدأ السباق بعد ان تغيرت خريطة العالم .. وتميز الى اقسام ثلاثة .. امريكا وحلفائها والاتحاد السوفيتى وحلفائه ..ودول العالم الثالث التى كانت مشغولة فى مشاكلها الأساسية وهى مقاومة الاستعمار القديم .

عندما التحق صديقنا بكلية الهندسة .. دارت معركة بورسعيد انتهى فى اثرها الاستعمار القديم وبذلك دقت بلده أول مسمار فى نعش هذا الاستعمار وحذا حذوها الكثيرون .. ولجأ اليها الكثيرون .

وتوالت الانتصارات .. الجزائر .. دول أفريقيا .. دول أمريكا اللاتينية .. دول أسيا والصين .

وتنافس العملاقان الجديدان على اقتسام الأرض كل منهما يحمل تراثه الفكرى فى مقاومة الاستعمار القديم .. الاتحاد السوفيتى وتعليمات لينين وماركس وانجلز .

وامريكا مع وثيقة حقوق الانسان .. وليس غريبا أن يتعاون العملاقان فى أيقاف العدوان الثلاثى على بورسعيد .. وانهاء عصر الامبراطوريات التى لا يغيب عنها الشمس .

كان عبد الناصر هو فارس هذه المرحلة .. وأملها .. قاد القوات المسلحة للقضاء على الاستعمار القديم والأرستقراطية الطفيلية وتوقف ليسأل نفسه وبعد !! قادته الأحداث المتغيرة والمتطورة بسرعة اكبر من تصوره وتمزق فى الصراع بين العملاقين .. فى البدء عندما لجأ لحاملى حقوق الانسان .. قالوا قف لقد أنتهى دورك .. بانتهاء مقاومة الاستعمار القديم .

عندما لجأ لحاملى تعليمات لينين قالوا .. نعطيك السلاح والغذاء والتكنولوجياو تعليمات الرفيق .

عندما لجأ الى اتحاد المظلومين — وكادوا أن يكونوا قوة يحسب حسابها سحقه العملاقان .. أحدهما حامل وثيقة حقوق الانسان .. دمر قواته المسلحة فى اليمن .. ثم انهى عليها فى سيناء .. ثم أغرقه فى بحر الاستهلاك والحاجة .. والآخر سانده الى القدر الذى لا يمتلك فيه قدرته على أخذ القرار الذاتى .

وهكذا تغيرت المفاهيم والأفكار والسياسات ثلاث مرات وبشكل جذرى خلال فترة قصيرة هى عمر صديقنا .

مقاومة الاستعمار واذنابه (هذا هو التعبير السائد فى تلك الأيام) الاشتراكية العربية .. ثم الانفتاح الاقتصادى .. ولكن وفى كل مرحلة كانت هناك طبقة ما قادرة على ان تحافظ على مكاسبها وارستقراطيتها

ورغد حياتها وباكيتنا كانت من اسرة امسكت بكل الطرق والأساليب التى مكنتها من ذلك قالت ان امهـا اصرت على تعليمها واخوتها فى المـدارس الأجنبية جنبا الى جنب مع ابناء الأرستقراطية المدحورة . وأن امها ايضا اصرت على أن تكون الأسرة عضوا بنادى الجزيرة .. جنبا الى جنب من ابناء الأرستقراطية المنهارة .. وابناء الطبقة الجـديدة البازغة والمتكونة من اعضـاء مجالس الادارات ومديرى المصالح وضـباط القوات المسلحة السابقين واللاحقين .

ان اصرار والدتها هـذا كان مكلفا للأسرة .. بل فوق طاقتهـا الاقتصادية . اذا علمنا أن المشـير عامر قائد الجيش فى ذلك الوقت منح الضباط عضوية جماعية مجانيـة لجميع اندية مصر الأرستقراطية وغـير الارستقراطية .

وفى المدرسـة والنـادى اعانت باكيتنا من فوارق لا يشعر بهـا الا الأطفال فوالدها المهندس يستطيع أن يقدم لها المدرسـة الجيدة والملبس المناسب والطعـام الصحى والمصروف المتوسط اما ابنـاء الارستقراطية القديمة والجديدة فكان يمكنهم أن يتمتعوا بما هو أكثر من ذلك .. الملابس المستوردة والطعام النادر مثل الشيكولاته السويسرى والتفاح الأمريكانى والفستق اللبنـانى .. وأيضـا باستطاعتهم ان يمتلك كل منهم عـربة خاصة .. وكان لا بد لها من أن تصارع وتمثلت الفرصـة فى ذلك الشاب القادم للزواج منهـا .. كان متناسبا جـدا مع طموحها .. فهو من أسرة متوسطة لن يباهيها بأصـله وفى نفس الوقت من ذلك الجيل الذى اصبح الطريق امامه مفتوحا للقمة .

لقـد ازيح من امامه ابناء الطبقة الارستقراطيـة الوارثة للمناصب الاسـاسـية فى الدولة .. وهو قد عاد لتوه من الولايات المتحدة الأمريكية حاملا الدكتوراه .. وينتظر الأرض المفروشـة بالزهور ليصل الى قمـة الهـرم .

لقد كان مناسبا لها خاصة انه وبعد الفترة التى قضاها فى الولايات المتحدة اصبح متمدينا فى نظرها ولن يعاملها بنفس الطريقة المتوحشة التى يتعامل بها الرجل المصرى مع زوجته .

وبعد فرح صغير تزوجت باكيتنا وتركت دراستها بالجامعة الأمريكية أو قل أجلتهـا .. واصطدم الدكتور العـائد من بلاد حقوق الانسان .. بأبناء الطبقة الجديدة .. كانت هناك مؤامرة غير مخططة .. لكسر اعتزازه

بنفســـه .. واعادته الى الحظـــيرة وتوالت النكسات .. آخرها هزيمة ٦٧ .. وهرب الدكتور ومعه باكيتنا الى بلد عربى ليكونا نفسيهما ويعودا .

فى تلك الأيام كان صديقنا قد أنهى دراسته فى مدرســـة المهندسين العسكريين حيث تعلم عناوين مواضيع أخرى اضافها لسابقتها عن الألغام والمفرقعات وتسوية الطرق والتكتيك الخاص بسلاحه .

كان عليه أن ينسى كل ما تعلمه بكلية الهندســـة ويعد نفسه ليصبح مهندســـا عسكريا يرص حقول الألغـــام وينسف المنشئات ويجهز الطرق والكبارى المؤقتة وبعدما اجتمع بهم مدير الســـلاح للترحيب .. ندم على ذلك اليوم الذى هرب فيـــه من مستنقع الحياة المدنيـــة الى أتون الحياة العسكرية .. فلقـــد كان من الواضح أن ذلك الضخم السمين ذا الكرش المنتفخ لا يعى ما يقوله .. قال ان عليهم نسيان عائلاتهم واسرهم فالسلاح هو عائلاتهم الأســـاسية وانه قد اختـــارهم بحيث يملأ كل منهم فراغا محددا .. فمهندس الفلزات اختاره خصيصا للورش .. والمعمارى الوحيد اختـــاره لمكتب تصميمات اسسه حديثا وكان صـــديقنا هو ذلك المعمارى الوحيد الذين اختاروه لسلاح المهندسين بدلا من الأشغال .

ولكن وقبل أن تنتهى الجلسة اكتشف كذب المدير .. لقد كان واحدا من ثلاثة ضباط تم توزيعهم على كتيبـــة مهندسى الفرقة الثالثة بسيناء . عندما أسر بذلك لزميل اقدم منه قليلا تصادف وجوده بجواره أثناء تناولهم طعامهم فى الوليمة التى جهزها لهم المدير بعد المقابلة .

ضحك الآخر بصوت عال لفت الأنظار له .

ثم قال — عيب جيلكم انه نقى جدا ويصدق كل ما يقال .. ان هذه طريقة سيادة اللواء دائما .. فهو لا يصـــدق الا فيما يخص الولائم فقط هل صدقت ما قاله عن ان الهندســـة لا وجود لها فى مصر الا فى ســـلاح المهندسين وانه لايجد منيشغل البعثات المخصصة للسلاح سواء الخارجية او الداخلية وأن هناك مكتبات متنقلة على عجل توصل الكتاب حتى الخندق يا ابنى لو كان لديك واسطة « كوسة » .. لما ذهبت الى سيناء ... ومع ذلك فلقد كان صديقنا سعيدا بعودته لسيناء عسكريا بعد أن خذلها مدنيا رغم صدمته الأولى فى قيادته .

بعـــد ذلك اكتشف صديقنا ان أسلوب ســـيادة اللواء مدير السلاح كان الأسلوب السائد ليس فقط فى جميـــع أجهزة الدولة ولكن الأخطر فى الجيش عندما قصوا عليه كيفأن المشير عامر غداة حرب الأيام الست قال

لمجموعة من الضباط اجتمع بهم فى سيناء .. انه لديه اقوى سلاح طيران فى الشرق الأوسط .. وانه قادر على حماية مصر والانتصار فى سيناء واليمن .

وكيف انه قال لعبد الناصر عندما ناقشه فى امكانية تحقيق نصر فى سيناء — رقبتى يا ريس .

كانت هذه الأفكار تصدمه بعنف وهو يستمع اليها من خلال دموعها المنهمرة .. ان هروب الدكتور من مصر وهى معه .. كان أحد الانعكاسات التي نمت فى مواجهة التسيب والكذب وعدم الجدية التى لازمت تلك الفترة .

ولكن كيف وصلت الأمور الى هذه الدرجة.. خاصة بعد أن انتصرت الثورة واصبحت مثلا يحتذى به فى مقاومة الاستعمار القديم .. وبعد ان تخلصت من الاقطاع وفساد الحكم .. وبعد ان راس جمهوريتها اول مصرى بعد آلاف السنين من حكم الدخلاء .

يقول صديقنا انه حكم الفرد .. رجل واحد وحزب واحد .. وصوت واحد يسيطر على أجهزة الأعلام واجهزة السيطرة .. انه الخطأ الأول والأخير لحبيبه وقائده عبد الناصر .

لقد اصبح النفوذ والمال والحياة الرغدة كلها مرتبطة بالاقتراب من راس السلطة وكانت فرصة الاقتراب تزداد كلما كان الانسان قادرا على خداعها لقد أخطأ عبد الناصر بعدم استثماره لثقة الجماهير بثورته واعتماده على أهل الثقة من المخربين .. أخطأ فى اهدار الديموقراطية واحلال الديكتاتورية الرشيدة محلها .

لم تكن هذه وجهة نظره فى تلك الأيام الأولى لعمله بسيناء فقد تصادف بعد عودته من أجازة ميدانية أن التقى بمقدم اسمر جمع حوله ثلاثة ضباط صغار السن يحدثهم من حكمة الحياة ويوجزها فى ان الحياة طموح . ومجد وثروة .. وأن الانسان تتحدد قيمته من خلال ثروته وقدرته على الكسب وطال الطريق . فبدأ يشرح فلسفته فى التعامل مع الجنس الآخر وانه جنس لا يستقيم الا بالضرب .. ثم ينتقل الى مقال لمحمد حسنين هيكل فى الأهرام وكان يمثل صوت السلطة فى ذلك الوقت .

كان صديقنا يقرأ مجلة الطليعة فى تلك اللحظات وبالذات مقال لطفى الخولى عن اعادة انتخاب عبـد الناصر .. فتدخل فى الحديث مستعيرا جزءا من وجهة نظر الطليعة .

غضب الآخر .. ثم تمـادى فاختطف الطليعة من بين يديه وقلب صفحاتها وهو يزوم .. الم نقـل لا داعى للقراءة لهؤلاء .. ثانيا .. العـالم .. والخفيف .. وابو سيف يوسف .. ثم واجهه بسؤال .. لمـاذا تقرأ لهؤلاء ؟ هل انت شـيوعى .. ؟ ثم أدانه مباشرة .. انت شيوعى .. واضـح من لهجتك.. نظر له المستمعون برعب ثم ابتعدوا عنه كما لو كان اجرب ولم ينقذه الا رائد ابعده عنهم لينصحه .

ـ ما الذى دعاك لمناقشته سياسيا .. هل انت شيوعى فعلا .

ـ رد الآخر بصدق ـ لا .

ـ بتشترى الطليعة ليه .. !!

ـ احنـا فى بلد اشتراكى .. ولا بد أن يثقف كل منا نفسه حتى يصبح خلية ثورية تشع فيما حولها .

التقط المتدم الأسمر الكلمات ثم صاح مقاطعا ـ

حضرته عايز يعمل خلية .. والخلية دى داخل الاتحاد الاشتراكى أم خارجه .

وتعقدت الأمـور .. فانسحب صديقنا مؤثرا عـدم اضافة كلمات جديدةتجعل هذا المهووس يجمع حوله شباكه .. مفكرا لماذا ارتعب ذلك المقدم من الطليعة ومن كتاب علميين مثل الخولى ـ والعالم ـ والخفيف وهل هؤلاء فعلا شيوعيون .. اذا كانوا شيوعيين فالشيوعية مبدأ جيد بحيث يقتنع بهـا مثلهم واذا كان هنـاك خطر منهم أو من مجلتهم فلماذا يصرح لها .. وتطبع وتتداول .

كان لهذا الحدث أثر حاد فى مستقبل صديقنا .. فعندما وصلوا الى العريش وجد فى استقباله رئيس العمليات الذى سأله المقدم الأسمر .

ـ هل هذا الضابط من كتيبتك .

رد الآخر

ـ أيوه يا فندم .

ـ ده ضابط شيوعى .

رد الآخر غير مصدق

— مش معقول يافندم .

رد الآخر بثقة غريبة

— شوف بيقول ايه .. بيقول عايزين نعمل خلايا ثورية خارج الاتحاد الاشتراكى .. ثم أردف .. هل تتصور أنه يقرأ للطفى الخولى والعالم والأشكال دى .

ومنذ ذلك اليوم اصبح صديقنا معروفا فى سلاحه بانه ضابط شيوعى مشاكس .

كانت لاتزال تبكى وهى تقص كيف أن زوجها تغيرت معاملته لها بعد ان أصابه الاحباط فى مصر .. وكان لابد لها من أن تسافر معه الى دولة عربية حيث يمكنهم تقديره علميا وماديا .. ولكن

ورغم تضحياتها بدراستها ورغم انها وفرت له كل الوسائل للراحة والنجاح فى الغربة .. فانه قابل ذلك بالقسوة عليها التى وصلت الى درجة ضربها .

واندهش صديقنا هل يمكن ان يحدث هذا فعلا ... ؟

دكتور .. حامل دكتوراه من أمريكا يضرب زوجته .. خاصة اذا كانت تلك الجالسة أمامه .. تبكى فى وداعة .. وانفصلا .. ثم سكتت . لقد كان لانفصالهما قصة غريبة لم يكن يتصور أن تحدث ابدا .. فى هذا الوسط .. عرفها بعد ذلك .. تدخلت فيها النيابة والبوليس والمحاكم .. وتبادلا الاتهامات واستولى كل منهما فيها على ما وصل يديه ووجدت نفسها تبدأ من جديد ومعها طفلة صغيرة عليها الاهتمام بها دون مساعدة والدها .

الفصل الخامس

معسكر الكتيبة عبارة عن مبنى من دور واحد من الهاردبورد والطوب يستخدم لمبيت الضباط .. ملحق به مطبخ وصالة معيشة .. وعلى بعد مائة متر توجد مكاتب الضباط والمخازن وفى نهاية المعسكر مطبخ الجنود وخيام أعدت لمبيتهم وميز من الخشب والهاردبورد للجنود ملحق به كانتين وفى النهاية المقابلة توجد (الحملة) جراج العربات والمعدات .

كل هذه المبانى متناثرة وسط صحراء لا حدود لها .. والمعسكر محاط بسور من السلك الشائك له بوابة يحرسها جنديان .

وصلوا المعسكر قبل غروب الشمس بقليل عبر طريق غير ممهد كثير الحفر والمطبات كان السبب فى تغطيتهم بطبقة رقيقة من التراب .

استقبلهم الضباط القدامى فى صالة المعيشة بترحاب يشوبه الملل والرثاء . ثم أمروا الجنود بتقديم الطعام لهم وهذه عادة الضباط فى الصحراء اكرام الضيف وتقديم الطعام له حتى او لم يطلب .

كانوا يحاولون ابتلاع الكشرى بدون امراره على اسنانهم لامتلائه بالرمل ويلهبون شهيتهم بالطرشى الحار .. ويحاربون ضد الذباب كى لا يشاركهم وجبتهم .. ويتاملون المكان الذى سيصبح مقرهم لعدد من السنين يعلم الله مداها .

عندما توقفت سيارة جيب امام الميز .. تبعها توتر خفيف بين الضباط القدامى .. ثم دخول شاب اسمر ممتلىء يتناثر الشيب فى شعره الاسود الخفيف .. عالى الصوت بقهقه وهو يداعب الجنود بمرح بواسطة عصا صغيرة فى يده .. لقد كان قائد الكتيبة .. رحب بهم بسخرية .. فقد طال انتظاره لهم لسد العجز فى ضباط الكتيبة ..

سالهم عن تخصصاتهم .. قال صديقنا أنه معمارى .. علق القائد .. يعنى فنان يادى المصيبة كفاية علينا فنان واحد ثم نظر تجاه نقيب ابيض يبتسم بتكلف .

قال الآخر انه بترول والثالث انه كيمياء .

علق القائد بخفة دم قائلا —

عندما كنت فى سنكم وذهبنا لمقابلة قائد الكتيبة سألنى عن تخصصى عندما قلت له ميكانيكا .. قال تمسك الحملة .. وعندما رد زميلى بانه بترول قال بجدية تمسك البنزينة .. ثم ضحك وسأل الشاب الصغير هل نمسكك البنزينة .

كان صديقنا يتأمل القائد الضاحك ويعجب .. لقد علموه فى الكلية الحربية وفى مدرسة المهندسين بأن الضحك جريمة .. الأدهى من ذلك أن الضباط الأقل رتبة يضحكون ايضا معه ويتبادلون النكات .

سألهم .. ماذا تريدون أن تعملوا ... ؟

رد صديقنا

— بل ماذا تريدوننا أن نعمل .. ؟

ثم أردف .. نحن نريد أن نكون مهندسين .

رد القائد بصراحة غريبة

— هندسة .. لا .. مش فى هذا الدكان .. متلقيش يابنى .. لكن اذا كانت لديكم القدرة على بذل الجهد .. واذا كان لديك الشرف لتراعى ضميرك وتتدرب وتدرب جنودك .. فلن تندم على دخولك الجيش .

كان واضحا منذ اللحظة الأولى انه شخص مختلف عن الآخرين وهذا ما ظهر بعد ذلك بوضوح فى مواقف كثيرة كان أهمها عندما صدرت الأوامر لكتيبتهم بالسفر لليمن .. اذ اجتمع بجميع الضباط وبدأ حديثه بانه لن يسمح باراقة نقطة دم واحدة لأحد من الجنود نتيجة لاهمال ضابط وانه سيتعامل بعنف مع الاستهتار بأرواح الجنود السائد هناك .. ثم صرح بأن من يرد السفر فبهذه الشروط .. ومن يرفضها فليعلن عن رغبته فى عدم السفر .. وسيحل محله آخر يقدر المسئولية .

فى ذلك اليوم دار بينه وبين صديقنا حوار غريب بعد ان اعلن عدم رغبته فى السفر .. من أن حرب اليمن حرب قومية .. وانها دفاع عن

حرية الانسان وأن هناك العديد من الضباط والجنود الذين يحاربون المعركة من وجهة نظر سياسية شريفة .. وأن الذين يذهبون الى هناك لرغبة فى ثراء أو تحسين أحوالهم المعيشية قلة مبالغ فيهـا .. ورفض التصديق على عدم سفر صديقنا .

استدعاه رئيس عمليات الكتيبة ليلقنه مهام منصبه بعد أن تم ترحيل زميليه الى المواقع الأمامية للمشاركة فى التجهيز الهندسى لمقر الفرقة فى المعركة .

قال — انتم دم جديد على الكتيبة وعادة مع قدوم دم جديد ننتهزها فرصة لزيادة الضبط والربط وللاندفاع بالكتيبة الى افضـل صورها .. لا تستمع الى شكاوى ويأس الآخرين.. أنت شاب وعليك اثبات مقدرتك ولن يحدث هذا الا بالعمل الشاق لقـد اخترناك لتصبح قائد فصـيلة الاستطلاع وضابط الأمن بالكتيبة .

ثم سـلمه بعض الأوراق لدراستها وفهم مهام فصـيلة الاستطلاع وضابط الأمن .

سـأل احد الضباط القدامى عن مهام ضابط الاستطلاع .

فقال — ولا حاجـة .. هبكة .. ضابط الاستطلاع هو جـوكر الكتيبة ولا مهام له الاعلى الورق .

سأل آخر .. فرد عليه بخبث .. بأن القائد يريده بجواره لأنه علم بقرابته لأحد اللواءات الهامين فى السلاح .

سأل رئيس العمليات ..

فقال ان القائد مهتم جداً بهذه الفصيلة التى لا وجود لها الآن .. ولكنك ستشكلها من الجنود المستجدين لتقوم بدورها الحيوى فى المستقبل وانه اختارك لأنه توسم فيك الجدية .

كان عليـه انتظار قدوم الجنود الجدد .. وحـتى يتم ذلك كلفه رئيس العمليات باعداد الفصول التدريبية وتجهيز مساعدات التدريب .

وعكف صديقنا على دراسة مهام كتيبة المهندسين .. ليستطيع تجهيز مساعدات التـدريب المطلوبة منه بدءاً من العدم .. وفى مدة قليلة كان قد ألم بما لم يتعلمه أبداً فى مدرسة المهندسين العسكريين .

وبدأ يملأ حجرات التدريب بلوحات عن الألغـام وطرق استخدامها ورصها والفارق بين الألغام المضادة للدبابات والأخرى المضادة للأفراد..

ولوحات عن التحصينات والمرتفعات .. وطرق الاخفاء والتمويه .. وغرق فى بحر من الالوان واللوحات والأطر .. حتى اتم فصول التدريب واستدعى القائد ورئيس العمليات لافتتاحها .

كانت بداية مناسبة له . .لقد عوض عجزه بالدراسة المكثفة .. ثم انه بدا حياته العملية بأعمال محببة له الرسم والكتابة وتجهيز ما يشبه المعرض لقد كانت هذه بدايته دائما فى كل عمل جديد .. الدراسة النظرية اولا ثم التطبيق .. وهذا ما حدث له عندما عمل فى شركة مقاولات بعد احالته للمعاش من القوات المسلحة .. لقد قرا كل ما وقع تحت يديه من كتب .. ثم وضعها بعد ذلك فى التطبيق بحيث تجاوز الفارق بينه وبين باقى زملائه العاملين فى هذا اجال من بدء تخرجهم فى مدة وجيزة وكان النجاح الذى حققه صديقنا فى اعداد مساعدات التدريب حافزا لقائده ان يوكل اليه مهمة تدريب الجنود الجدد .

اجتمع معه رئيس العمليات وبعض قادة السرايا .. جهزوا برامج تدريب مكثفة اعاروه ثلاثة صف ضباط قدامى .. وسلموه خمسين جنديا جديدا .. بحيث يعدهم للتوزيع على السرايا خلال ثلاثين يوما .. وعلى ان يختار من بينهم فصيلته .. وبدأ برنامج التدريب .

لاحظ ان الجنود لا يستوعبون الكلمات التى يشرح بواسطتها الصف ضباط المعلومات .. ثم انهم ينهكون سريعا .

وبعد يومين .. استطاع ان يحدد الأسباب بالصدفة .. ان اكثر من ثمانين بالمائة منهم يجهل القراءة والكتابة وبالتالى لا يعرف الا الفاظ لهجته المحلية .. واكثر من ستين بالمائة مرضى بالبلهارسيا .

عندما واجه رئيس العمليات بذلك .. واقترح ان يبداوا بتعليمهم القراءة والكتابة وعلاجهم ثم تدريبهم ضحك الآخر بسخرية .. ثم شرح له اسباب رفضه..ان تعليم القراءة والكتابة ليست مهمة القوات المسلحة..اما علاج البلهارسيا فأمامه عقبتان الأولى ..ان العلاج محدود..والأخرى ان على المريض ان يستريح فى اليوم التالى للعلاج اى انهم سيخسرون نصف مدة عمله فى العلاج وفقد صديقنا حماسه .. وهكذا هو دائما يريد ان يعمل فى ظروف مثالية وهى عادة سببت له كثيرا من المشاكل بعد ذلك خاصة فى تعامله مع شركائه الأمريكان .

ولكنه عندما اختار جنوده المستجدين حاول قدر جهــده ان يكونوا من المتعلمين والأصحاء .

كان صـــديقنا قد أصيب بخيبة أمل لالتحاقه بالقوات المسلحة بعد تجربته فى الكلية الحربية وحديثه مع مدير السلاح وكانت نظرات الحزن والاحباط التى يلاحظهـــا فى عيون الضــــباط الأقدم الأثر فى خفض روحه المعنوية لقـــد أصبح يشـــعر بأنه تم تضليله .. ان الحيـــاة العسكرية لا تناسبه .. وردود فعل رؤسائه على حماسه كانت تضنيه .. لم يكن هذا شعوره منفردا وانما زميلاه أيضا .. عند عودتهما من مأمورياتهمـــا بالجبل كانا ينقـــلان له عدم رضـــائهما وندمهما على الالتحاق بالقوات المسلحة .. وبدأت نظرة الحزن تزحف الى عينيه .. واصبح صامتا .. هادئا .. انطوائيا .

حتى استدعاه قائد كتيبته فى ليلة ربيعية من ليـــالى الصحراء .. كان جالسا منفردا على كرسى « فوتى » بجواره منضـــدة صغيرة عليها زجاجة ويسكى اشتراها له احد الضباط من غـــزة .. وقطع من الثلج فى ترموس وبعض السلطات .

دعاه لمشاركته فى كأس.. ولم يكن صديقنا قد تناول أى مشروبات كحولية من قبل .

عندما اعتذر بعدم تعوده على شرب الكحوليات — ابتسم الآخر .

كان القمر بدرا ونسمة هواء جافة تحاول عبثا الاطاحة بالموجودات الغريبة التى ظهرت فجاة فى الصحراء ولكن لضعفها لم تؤثر الا فى بعث النشوة فى الجسدين المتواجهين .

قال القائد .. ولماذا لا تجرب .. يجب ان يكون لديك المرونة على ان تجرب أشياء لم تتعودها .

انا لا اتكلم عن الويسكى .. انما اعنى كل ما يحيطك .. هل تتخيل ان كل البشر يأكلون الملوخية بالأرانب .

ابتسم صديقنا .. أكمل الآخر .. انهم يقتلون الأرانب فى استراليا بواسطة الألغام ليمنعوا عدوانها على المزروعات وفى نفس الوقت لأنهم

لا يأكلونهـــا وفى اليمن يسمون الملوخيـــة حق الحمير .. وفى العــراق يسمونها مالة البهائم .. فى أوروبا .. لاياكلون الحمام ويتركونه طليقا.. اليست هذه الذ الاكلات لدينا .. فى فرنسا يستمتعون بأكل الضفادع .. ورجال الصاعقة يلتذون بأكل الثعابين .

ان بالعالم آلاف الجنسيات .. وكل جنسية لها عاداتها وتقاليدها وافكارها هـــل كل العادات والافكار والتقاليـــد التى تخالف ما تعودت عليه باطلة .

كانت كئوس الويسكى التى تناولها القائد قد رققت مشاعره واطلقت لســانه وجعلته قريبا من قلب صـــديقنا .. ولمعت نجمه فى السماء .. صمت كلاهما كان للصمت فىالصحراء صوت غريب .. صوت الخواء.. وصفرت نسمة هواء فى مكان ما .

اكمل القائد .. هل سافرت الى الخارج من قبل .. ؟

اجاب صديقنا انه كان مهندسا لاسكان ومرافق سيناء .. وانه زار رفح والشيخ زويد والعريش وبئر العبد والطور .. فقد كان يشرف على مبانى تنشأ هناك .

سأل القائد ــ لا .. اقصد هل سافرت خارج مصر .. ؟

اجاب صديقنا ــ بأن اول مرة يغادر القاهرة كان سفره لسيناءمرتين الأولى كمهندس والثانية كضابط .

ضحك القائد بصوت عال .. ثم اكمل ــ

ان الاوربيين يدفعــون آلاف الجنيهات كى يعيشـــون اياما مثل التى نعيشها لماذا لا نستمتع بالتجربة ؟

كان القمر قد سقط الى طرف الســـماء .. فأضاء وجه القائد بهالة من نور .

اكمل ــ انت شاب ذكى .. لا تتصور أننى اخترتك هنا لأنك قريب سيادة اللواء لقد اخترتك لأنك الشخص المناسب لأن تصبح أركان حرب عمليات الكتيبة .

.........كان هذا اللقب جديدا عليه ....

اكمل القائد .. أركان حرب العمليات هـو دينامو الكتيبة .. هو ضابط الأمن والتوجيه المعنوى والخدمة الاجتماعيـة وهو مساعد رئيس العمليات فى تجهيز خطط التدريب والقتال ويجب ان يكون مثقفا انسانا. ذكيا .. وهو ما أتصوره فيك أن لم اخطىء .

صمت قليلا ثم اكمل وقد ملأ للاخر كاسا ووضع فيه بعض قطـع الثلج وقدمه له .

اخذ صديقنا رشفة ثم امتعض .

ضحك الآخر مشجعا له .

اخذ صديقنا رشفة اخرى .. واخرى .

ضحك الآخر قائلا .. على مهلك .. لتستمتع اكثر .

كان تأثير الليل .. والسكون .. والفجر .. والهواء الجاف البارد والكحول الذى بدأ السريان فى دم صديقنا .. أن استيقظت رومانسيته وواقعيته كلاهما فى نفس الوقت .

كان يرى أن الأمر يستحق التجربة .

قال — وماذا تريد منى .. ؟

رد الآخر .. ان تبتسم .. وتعمل بجدية .. وتقيم الموقف. بعدذلك ستصبح ضابطا ممتازا .

استلم رجاله .. خمسة عشر رجلا .. كان عليه ان يحولهم الى جنود استطلاع حقيقيين .. وعندما بدأ الشرح لهم فوجىء بأنهم نائمون .. لا يستوعبون ما يقول لقد كانوا يرفضون مثله فكـرة الجندية . كـانوا يتصرفون كما لو كان عليهم أن يضيعوا عددا من السنين من عمرهم حتى يستطيعوا الحصول على شهادة اداء الخدمة العسكرية .

ولم يجد وسـيلة للاقتراب منهم الا طريقـة قائده .. نحى خطة التدريب جانبا وقضى وقته فى الحديث معهم.. كانت المناقشات عن قراهم واسرهم ومهنهم واحـلامهم وظـروفهم الشخصية اكثر امتـاعا لهم .. واستيقظ النائمون واستوعب الرافضون .. واقتربوا جميعا بعضهم من بعض .. كان صديقنا من خلال المناقشات يصحح لهم بعض الجـوانب من وجهة نظرهم .. كان يساعدهم على حل مشاكلهم .. بواسطة تحليل الموضوع لأجزائه الأوليـة ثم اعادة تركيبه بأكثر من طريقـة .. واصبح هناك حوار انسانى وفكر مشترك فى اكثر من موضوع .

انتقل بعد ذلك للمرحلة التالية.. وهى تعويدهم على تحمل المسئولية والعمل كفريق .. لم يكن هناك افضل من الرياضة .

كون صديقنا من رجاله فريقين للعب الكرة الطائرة .. ومن خلال المباريات كان يلاحظهم ويصنفهم .. فمنهم من كان يستطيع تحمل المسئولية وآخر سلبى والثالث انتحارى .. والرابع شديد الاعتزاز بنفسه .. وهكذا . خلال اسبوعين .. أصبح الرجال يكونون فريقا متجانسا يعرف امكانيات كل منهم بدقة .

استخدم صديقنا طريقة اخرى لفتح حوارات مشتركة .. وهى دعوتهم لمشاهدة أفلام سينمائية .. وادهشته طريقة تلقيهم لموضوع الفيلم بعضهم كان لا يستطيع استيعاب أى معنى .. والبعض كان يستوعب جزءا ما وآخرون كانوا يسقطون ما يحدث على الشاشة على حياتهم الخاصة .

وكان هو يحلل لهم الفيلم ويلفت نظرهم الى بعض النقاط التى غفلوا عنها وفى بعض الأحيان يناقشهم فى امكانية تغيير القصة .

وانتشرت اخبار صديقنا فى الكتيبة .. بعضهم كان يقول انه يضيع وقته وآخرون كانوا ينتقدون تغافله عن برامج التدريب .. اما الجنود والصف ضباط فلقد شعروا بتعاطف معه .. حاول كثيرون الأقتراب منه .

اما قائد الكتيبة ورغم شكوى باقى الضباط المستمرة انتقادا لسلوك صديقنا فقد تركه ليكمل خطته .. كل ما علق به ان ذكره بأن موعد تفتيش هيئة التدريب سيحل بعد شهر .. وان عليه أن يكون مستعدا لاستقبالها.

وبدأ صديقنا بعد أن تكونت بينه وبين جنوده علاقة ودودة أن ينتقل لمرحلة تالية وهى التدريب العملى واختار ضرب النار .

فى ميدان ضرب النار خلف الكتيبة وبكميات الطلقات الزائدة التى لم تستخدم فى التدريب وتم استهلاكها على الورق فقط .

كان هناك ستة عشر رجلا يتدربون .. بداوا بالطرق التقليدية .. ولكن كانت النتيجة مخيبة للآمال .

وظل صديقنا يراقب أسباب الفشل .. فوجد ان بعضهم يخاف البندقية والبعض الآخر يتوقى الهزة المرتدة من البندقية بعد اطلاقها .. وآخرون يغمضون أعينهم .. ولم يكن هناك وسيلة لعلاج ذلك الا ان يتعودوا جميعا على السلاح .. وبداوا يطلقون الرصاص فى الهواء ..

وعلى اهداف غير عسكرية كعلبة صفيح او زجاجة او قطعة من الخشب..
بدأ باهداف كبيرة ثم أصـــغر .. وقام بينهم تنافس حتى تعـــودوا على
السلاح .. خلال ذلك كان يرشـــدهم اضغط على البندقية فى كتفك ..
اكتم نفسك أثناء الضرب افتح عينيك .. فليكن الهدف وسن نمل الدبانة
والمشقبية على صف واحد وهكذا خلال اسبوع كانوا يستطيعون اجتياز
اختبار ضرب النار بامتياز . الخطوة التـــالية لذلك التدريب على اللياقة
البدنيـــة .. طوابير الجرى .. واختراق الضـــاحية .. والتدريبـــات
الســـويدى .

كان صديقنا يهتم بغذاء جنوده .. كان يستلمه بنفسه من المطبخ ويتأكد من أن كميته كافيـــة ونظيفة .. ويهتم بمكان اقامتهم ويتأكد من أنه مريح ومرتب ونظيف ومعتنى به .. ولكن مـــع ذلك فان ثلاثة من جنوده رغم أن مظهرهم الخارجى يوحى بالكتمـــال لياقتهم الا انهم كانوا سريعى التعب .

ذهب معهم الى العيادة الميدانية وهناك اكتشف أن أحدهم مريض بالاسكارس والآخرين بالبلهارسيا .. وكان لابد من علاجهم .

كان احدهم يهرب من العلاج .. خوفا من حقن الطرطريك .. كان يقول أن ساعده يصيبه الورم فى مكان الحقنة .

سأل صديقنا .. فعلم ان بعض النقط من المادة المختون بها أن لم تحقن فى مكانها تتسبب فى الورم .. وأن اهمال المرض هو السبب .

صادق المرض .. أوصاه على جنوده .. ومع ذلك فالجندى يتعلل بحجج واهية .. وكان لابد من الحزم .. تجاهله .. حرمه من مباريات الكرة الطائرة ومن مشـــاهدة الأفلام .. وعاقبه .. اثمرت هـــذه الطريقة وفضل الجندى عذاب الحقن عن تجاهل قائده .

وهكذا أصبحت فصيلة صديقنا جاهزة لتلقى التدريب .

فى معسكر خارج الكتيبة .. كون نقط استطلاع .. حفرها جنوده بانفسهم ثم قسمهم لقسمين قسم للهجوم وآخر للدفاع .. ومن خـــلال التدريب العملى كان من السهل فهم جميع التعبيرات النظرية .

ولم يعد صـــديقنا من الجبل الا وهو متأكد أن جنوده قد استوعبوا تماما المهام التكتيكية لفصيلة الاستطلاع الهندسية فى الهجوم والدفاع .

عندما عادت فصيلة صـــديقنا من الجبل .. كانوا قد أصبحوا رجالا آخرين غير هؤلاء الذين حضروا للكتيبة منذ شهرين .

كانوا يتحركون بثقة فى صفوف منظمة بخطوة سريعـــة مثل خطوة الصاعقة ويصيحون صيحات متوافقة فيملأون الفراغ الذى يحيط بكتيبتهم باصــوات رجال اصبحوا لائقين لأن يكونوا جنود فصـــيلة الاســـتطلاع الجديدة كما حلم بها قائد الكتيبة .

اصطفوا امام مكتب القائد مشدودى الأجســاد . .مرفوعى الراس ممتلئين ثقـــة كان منظرهم يبعث الى البهجـــة والحماس لدرجة ان اكثر من ضابط طفرت عينـــاه بالدموع وهو يشاهد صديقنا يجـــرى بخطوات متحمسة ثم يقف أمام القائد مشدودا يؤدى التحية العسكرية .

كانت المهام التالية أكثر سهولة . . تدريب الفصيلة على رص ورفع الألغام التعرف على المفرقعات . . مبادىء الاخفاء والتمويه .

لقد اصبحت العقول قادرة على تقبل المعـــلومات بسهولة ادهشت لجنة هيئة التدريب لدرجة أن فصيلة صديقنا من المستجدين كانت الفصيلة الأولى من بين فصائل كتائب مهندسى المنطقة الشرقيـــة . .وكان صديقنا أفضل قائد فصيلة .

كانت هـــذه التجربة المبكرة فى التعامل مـــع البشر هى التى شكلت اسلوب صديقنا فى الادارة طبقها فى بناء سد حرض باليمن وفى سد نقص العمالة المدربة بشركة المقاولات التى عمل بها بعد ذلك .

وكان دائمـــا ما ينصح مرءوسيه بان يعدوا الرجال لتنفيذ مهامهم ثم يوكلوها لهم وهم متأكدون أنهم سيؤدونها بأفضل الطرق .

عندما قص عليها تجربته مع جنود أول فصيلة يقودها ابتسمت فلقد كان ذلك هو ما فعلته بعد انفصالها عن زوجها . . كانت قد تحطمت . .

فقدت الثقة فى نفسها وفى البشر . . لقـــد اختارت أفضل اختيار لشريك حياتهـــا حامل دكتوراه من أمـــريكا . . وقدمت له كل ما تستطيع زوجة أن تقدمه لرجل بعد أن حصرت دورها فى الحياة بأن تكون المـــرأة التى خلف العظيم .

وكان جزاءها أن تكون ثروة . . ام تشاركه فى نتائجها . . وضربها فى النهاية واصما اياها بأقذع الأوصاف . . لقد كان جزاءها ان تقـــف أمام المحاكم تحاول اثبات اعتـــدائه عليها . . وتنقص ادق تفاصـــيل حياتهما

كان من الممكن ان تتقوقع على نفســـها فى منزل والدها منتظرة رجلا آخر يتحكم فيها . . ولكنهم نصحوها بأن تعمل لتنسى .

فى تلك الأيام كانت الشركات الأجنبية قد بدأت تفــد الى مصر .. وكان هناك طلب متزايد على سكرتيرات يتقن الانجليزية .. توسط لها قريب لتعمل فى شركة امريكية .. بدأت السلم من اوله .. تعلمت الكتابة على الآلة الكاتبة ثم التلكس .. ثم اكملت دراستها بالجامعة الأمريكية وبهرتها الحياة مع الأجانب .. الانطلاق .. السهرات .. الســفر للخارج .. المرتب المرتفــع .. الهــدايا المستوردة .. ثم الحرية .. والعــلاقات المتعددة .

من خلال معاناة شديدة وانتقال من شركة لأخرى استطاعت فى النهاية أن تصبح مديرة مكتب شركتهما .

كان الليل قد انتصف .. والدموع قد جفت .. قبلته من خدية مكافأة له على استماعه لها .. وغادرته .

اصبح جنود فصيلة الاستطلاع التى يقودها صديقنا مميزين بين جنود الكتيبة تعرفهم من مظهرهم ونظافة ملابسهم ومن اعتزازهم وثقتهم بأنفسهم ومن حركتهم السريعة ونشاطهم ومن ضبطهم وربطهم العالى .. كانوا قد احبوا قائدهم ووثقوا به .. وكان يبادلهم الحب والثقة .. فأصبحت علاقتهم مثلا يحتذى به يثير غيرة الضباط ويجمع الصف ضباط والجنود حول صديقنا .

وكان النجاح يزيده حماسا . وحب الجنود يزيده رغبة فى خدمتهم وتحسين احوالهم .. كون منهم فريقا للتمثيل وآخر للغناء والفكاهة وفى بعض الأحيان للرقص .. وقامت هذه الفرق باعداد مسرح واحياء حفلة انتهاء مدة تجنيد دفعة من الجنود نالت اعجاب ضباط الكتيبة وآخرين دعاهم القائد من قيادة الفرقة .. ثم كون فريقا لاصدار مجلة شهرية كانت تطبع على الرنيو .. ضم اليه عديدا من الشعراء والقصاصين ورسامى الكاريكاتير .. وتفجرت مواهب لم يكن يتصور ان يجدها فى القوات المسلحة .

وانعكس هذا على علاقة قائد الكتيبة بصديقنا .. لقد ازدادت الثقة بينهما فاوكل اليه الاشراف على التوجيه المعنوى والخدمات الاجتماعية بجوار اعماله الأخرى .

كان صديقنا فى تقدم مستمر .. ان التفاف الصف ضباط والجنود حوله واحترام قيادته له .. ساعداه على ان يتعلم .. كان يسأل كثيرا ويقرأ كثيرا ويتعلم فى كل يوم جديدا سواء كان فى مهنته كضابط مهندس.. أو فى اسلوب التعامل البشرى .

حتى ذلك اليوم الذى عاد فيه مع رئيس العمليات من العريش بعد ان قضى اجازته الميدانية بالقاهرة .. كان الآخر يعامله كما لو كان طفلا

صغيرا قد أخطأ وعليه مواجهة والده .. وكان صديقنا يتعامل مع الموقف بمنطق الذى لم يخطىء .

فحتى هـذه اللحظات لم يكن يدرى ما يدور فى بلده .. لقـد كان يتصـور أن الثورة لازالت قائمـة تدفع به وبكل شريف الى العمل لتحقيق أحلام الرفاهية والعدل .. كان قد صدق ما يدرسه عن قناعة لجنوده فى طوابير التوجيه المعنوى عن الحرية .. والديموقراطية .. والاشتراكية.. والعدل .. لم يكن يتصور أن بلده تحكم حكما عسكريا بوليسيا وان على البشر ان يخافوا من المعتقلات والسجون والمباحث والتعذيب .. ومن أين له أن يعلم ؟

ان أجهزة الاعلام لا تتحـدث الا عن الانتصارات وفى الشارع كانت كل الأفكار مطروحة فى كتب متباينة المنهج والاتجاه .. أما هو فدوره جندى من جنود الثورة الذين يعملون فى أمان تحت مظلة قيـادة وطنية مخلصة غيـورة على مصلحة وطنـه مثقلة بأعباء الصراع ضـد قوى الرجعية والاستعمار .

كان قد حاول طـول الطريق أن يشرح موقفه لرئيس العمليات ولكن الآخر زجره بعنف متساءلا — هل كان من الواجب أن « ينجس » من لسانه أمام هذا الرجل الذى تم ترقيته استثنائيا مرتين فى اليمن لوشياته بزملائه الذين كانوا يثرثرون ثرثرة عادية عن عدم جـدوى ذهاب جيشـنا لليمن وضياع الأرواح والعتاد والمصاريف .

لم تمض ساعات على وصولهما الكتيبة حتى استدعاه قائدها .

قال له — يا ابنى أنا اليوم رائد .. وفى النشرة القـادمة سـأكون مقدما مرتبى سبعون جنيها فى مصر وأعيش فى شقة مؤسسة جيدا وسعيد فى حياتى وأنا غير مستعد لأن أنصل واتشحطط فى الشوارع علشان حتة ملازم زيك مش عارف يمسك لسانه .. وعليه .. تترك عملك كضابط أمن وتوجيه معنوى وتسافر فورا الى القسيمة لتعمل فى التجهيزات الميدانية لموقع العمليات وهذا اجراء مبدئى حتى أتأكد اذا كان قد أبلغ المخابرات أم لا .

ثم أردف وبالمناسبة البقية فى حياتك قريبك اللواء توفى أمس .

كانت شمس أبريل الدافئة تنبىء عن انتهاء الشتاء وبداية فصـل الربيع . وكان قد أحضر كرسيا وضـعه فى صندوق العربة الزيل بجوار سريره ومرتبته وصندوقه الحديدى الذى يحتوى على مهمـاته .. كان جالسا فوق الكرسى يستمع الى موسـيقى هادئة منبعثة من الراديو تبثها الاذاعة الاسرائيلية .

تضايق من اهتزازات الكرسى ففرد المرتبة على ارضية صندوق العربة وتمدد مستمتعا بالشمس والهواء والموسيقى .

كانت العـربة متجهة الى القسيمة حيث نفاه قائد الكتيبة خوفا منه على مستقبله وكان يشعر بلذة تطهره من كل مشاكله واحـزانه المتراكمة منذ الأمس يحاول أن يفلسف ما يدور حوله .

كانت النسـاء العربيات يرعين الغنم بهدوء .. وكن عند ملاحظتهن للعـربة الحربية يدرن ظهـورهن للطريق كى لا يشاهدهن الجنود رغم ملابسهن الثقيلة وحجبهن التى يضعنها على وجوههن .

لقد كان مظهرهن غريبـا على قاهرى عاش فى النصف الثانى من القـرن العشرين حيث تخلصت النساء فى بلده من حجبهن منـذ مـدة طويلة .. وحيث أصبح ارتداؤه رمزا للتخلف .. حتى فى الاحياء الشعبية حيث كانت سائدة عادة ارتداء الملاءة اللف والبرقع .

وشعر بالاشفاق عليهن .. فرغم حياتهن الشـاقة ورغم سعيهن المستمر فى الأرض بحثـا عن الرزق ومتطلبات الحيـاة البسيطة الا انهن يكبلن انفسـهن بملابس ثقيلة بالتأكيد تزيد عذابهن عذابا سـواء من حرارة الجو او صعوبة الحركة تذكر هذا المظهر بعد ذلك عنـدما كان فى طريقه من الحديدة الى حرض لبنـاء السـد هناك .. لقد كانت النسوة اليمنيات يواجهن الجنود ونصفهن الأعلى عارى تماما من اى ملابس او اغطية بما فى ذلك الثديين وحتى اسفل البطن .

لقد كان يتصور أن الحجاب والملابس الثقيـلة التى ترتديها نساء العرب فى سيناء سببها التخلف الحضارى .. ولكن هاهو تخلف حضارى آخر ترك اجساد النساء عاريات حتى الجذع .. وبالتـالى فالأمر يتصل بتقاليد خاصة بكل منطقة تنبع من تاريخها .

فالحجاب فى مصر انتشر بقـوة بعـد الاحتـلال العثمانى .. حيث اصدر سليم الأول فرمانين احدهما يحرم على النساء الخروج الى الشارع كاشفات وجوههن وفى حالة خروج احـداهن .. تركب حمارا بالعكس وتزف فضيحتها فى حوارى القاهرة واما الفرمان الثانى فهو مصادرة جميع أراضى مصر لصالح السلطان . وللأسف خرجت المظاهرات فى الشـوارع تدعو للسلطان المؤمن حامى حمى الدين .

منـذ ذلك العصر انتشر الحجاب فى مصر بقوة القـانون وحبست النساء فى بيوتهن بعد ان كن يمثلن قوة عمل هامة فى الانتاج القومى خاصة فى الريف .

وبمرور الزمن وبعد أن تغيرت القيم الاجتماعية والجمالية والانسانية نتيجة الاحتلال تركى طويل .. تميزت الطبقات بحيث اصبحت الارستقراطية والطبقات المتوسطة تتمسك بالحجاب .. والفلاحات خلعنه ليتمكن من العمل فى الحقول وأصبح الحجاب رمزا ليسر الحال والانتماء للارستقراطية تتمسك به النساء قبل الرجال .

حتى سافر ارستقراطيو مصر الى اوروبا بعد الحرب العالمية الأولى والثانية واختلاطهم بالأوروبيات فى ذلك الوقت ونتيجة لنقص الرجال فى اوروبا اثناء وبعد الحربين لانضمامهم الى الجيوش المحاربة .. حلت النساء مكانهم فى العمل خالعات الحجاب والملابس الثقيلة .. وتطورت شخصياتهن باستقلالهن الاقتصادى وبهرت نساء أوروبا رجال الشرق.. وتزايدت زيجات المصريين بالأوروبيات .

وتنبهت المراة المصرية للخطر الذى حاق بها .. فخلعن الحجاب فى اوروبا ثم حرقته فى ميناء الاسكندرية ثم لم يرتدنه لمدة طويلة .. وامتدت الدعوة لخلع الحجاب كالنار فى الهشيم .. وكافحت المصرية .. تعلمت .. تطورت عملت .. ارتدت ملابسها حسب تطور الملابس فى العالم المتحضر .

واصبح الحجاب رمزا للتخلف حتى أن صديقنا وخلال رحلة عمره وحتى تلك اللحظات لم يشهد اكثر من ثلاث او اربع محجبات من الجدات .

وها هى الثورة تكمل المسيرة لتصبح السيدة وزيرة وعضوا بمجلس الشعب ... ومهندسة وقاضية والاهم أن لها صوتا فى الانتخاب .

ان الفارق الحضارى الواسع بين وادى النيل وسيناء هو الفارق بين سيدات مصر العاملات المثقفات ونساء سيناء اللائى يدرن ظهورهن لعربات الجنود . عندما ناقش احد الصف ضباط الراكبين معه على ظهر العربة فى ذلك .. ابتسم قائلا — لا تظلمهن لقد اعتدى عليهن اكثر من مرة مجموعة من الجنود ولذلك فهن يخفن منهم .. ولا يطمئنن الا اذا شاهدن ضابطا فى العربة . ثم اضاف — انه الحرمان يا فندم فالجندى ياخذ اجازته كل ستين يوما حضرات الضباط كل ثلاثة وعشرين .. وفى بعض الأحيان تتسبب الجزاءات فى حرمان الجنود من اجازتهم ليستمر حرمانهم لثلاثة او اربعة شهور تدخل أحد الجنود فى الحديث بخيال اثاره الحرمان والكبت ..

— سمعت يا فندم أن فى عدن يصرفون امراة كاوتش لكل ضابط ونصف امراة لكل جندى وكانوا يملأونها بالمياه الدافئة ويناموا معها .

رد آخر — وليه كاوتش م جنبنا نسوان زى الرز فى اسرائيل بس احنا نتجدعن ونروح ناخدهم .

العربة تتجه الى القسيمة .. عبر منطقة تسمى الحسنة حيث توجد نقطة مياه وطريق ضيق بين مرتفعين يرتفع باستمرار لأعلى .. فيتسبب فى ارتفاع صوت موتور العربة .. الطريق بعد ذلك ممتد على جانبيه سهول فسيحة من الرمال لا حياة فيها الا فى فترات متباعدة حيث يتم مشاهدة جمل ومعه أعرابى أو مجموعة من البدويات يرعين الغنم .

بالقرب من القسيمة تظهر الجبال ثانيا شامخة بألوان يعجز اى فنان عن توظيفها فى لوحته تعكس ظلالا مختلفة لنتوءات رائعة كما لو كان شكلها مثال متخصص .

سحره المكان .. لماذا لم يعمر أهل الوادى هذه المنطقة ان المياه متوفرة والطبيعة معطاءة .. ولا ينقصها الا السواعد .. لو كانت هذه العربة تحمل عمالا ومعدات للتعمير الم يكن افضل للأنسانية .

ان المياه تتفجر تلقائيا من عين الجديرات مياه عذبة كمياه النيل ..

فماذا لو تدخل العلم الحديث فى البحث والتنقيب وحفر الآبار وروى هذه المساحات الشاسعة .. ولكننا نضيع عمرنا واموالنا فى صراعات لا طائل خلفها ونترك الأرض تصرخ طلبا للحياة .

شفت روحه تماما .. الشمس تميل للغروب تاركة الوانا رائعة على جبال شامخة وسهول مهجورة .. والهواء يزداد برودة فيضم ملابسه على جسده ليتوقى لسعة البرد .. وافكاره تعذبه برده الى رومانسيته التى كاد أن يتخلص منها خلال شهوره التى قضاها فى تدريب رجاله واعداد الكتيبة للتفتيش .

صدمه رد فعل قائد الكتيبة ورئيس العمليات لحديثه مع المقدم الأسمر تجعله يراجع قيمه وأفكاره عن نقاء الثورة ونقاء القوات المسلحة .. أنه لازال يعيش فى نفس المستنقع الذى هرب منه فى الحياة المدنية .. ولكنه الوجه الاخر الأكثر عذابا .. الخوف .. الرعب .. من أشباح غير معروفة .. كرعب العربيات من جنود لا يعلمن اذا كان يصحبهم ضابط ام لا . وقطع عليه تسلسل افكاره انحراف العربة من الطريق الأسفلتى ثم دخولها فى مدق ترابى جعل الرمل الخفيف يتصاعد خلفها محدثا غمامة من مواد دقيقة التصقت بكل جزء عارى من جسده ثم اخترقت ملابسه الثقيلة لتكون غلالة من الاتربة تلتصق بجسده المندى بالعرق .

لقد وصلوا الى نهاية الرحلة .. مقر المامورية التى عليها تجهيز ثلاثة مواقع دفاعية لرئاسة الفرقة تستخدمها فى حالة الدفاع عن سيناء .

استقبله نقيب ابيض صامت تدل ملامحه على انتمائه الى جنود الغزاة الاتراك وضابط أسمر رفيع قادم من وسط الصعيد حاملا ملامح جدوده قدماء المصريين استقبله بالأحضان فلقد كان احد زملائه الذين وزعتهم ادارة السلاح على الكتيبة معه .. أمر الجنود بتجهيز سرير صديقنا ليشاركه خيمته كان الليل قد غطى الصحراء بملاءة سوداء واصبح من الصعب فى غياب القمر ومنجزات المدنية التعرف على المكان.

وكان زميله سعيدا بحضوره فسيجد من يشاركه وحدته وان لم يمنعه هذا من مداعبته .

استدعى الجندى المراسلة وأمره يحفر حفرة بعيدا عن خيام الضباط ودفن قشر الفاكهة خوفا من الثعابين التى يجذبها رائحته .. ثم تنظيف الأسرة جيدا والتأكد من خلوها من العقارب التى لدغت احد الجنود فى اليوم السابق وانقذوه بصعوبة بعد نقله الى المستشفى .

كاد ان تزعجه مداعبات زميله لولا أن قابلها بعقله فسأله .. وكيف يعيش كل هؤلاء بين الثعابين والعقارب .. رد عليه ضاحكا .. ايه أنت م خفتش ؟

جلس كل منهما فى سريره متقابلين .. قص صديقنا على زميله اسباب نقله الى القسيمة .. واهتم الآخر بالجانب الخفى من القصة .. لماذا خاف القائد ورئيس العمليات من مجلة الطليعة .. وما السر الذى اهاج المقدم الأسمر عندما رأى اسماء الذين يحررون المجلة .

كانا كمراهقين يتآمران لسرقة بعض الكتب الخارجة التى يخفيها والدهما عن أعينهما .. كانا يودان أن يفهما .. ثم يقررا .. وكان هذا هو موقف عديد من شباب جيلهما لقد استكملوا وعيهم فى ظل ثورة طردت الانجليز والرجعية والخوف ولم يكونوا قد استوعبوا الخوف الجديد بعد الذى كتمه عنهم الاكبر سنا .. لذلك فلقد كانوا مخاطرين مجازفين يرتادون اصعب البحور واخطر الطرق بقوة نابعة من غفلة عما يحيطهم من شراك قاتلة وهو الأمر الذى جعل هزيمة ٦٧ تصيبهم بهزة عنيفة اثرت فى اتزانهم العقلى والعاطفى بعد ذلك .. وجعلت من السهل الانتقال من اقصى اليسار الى أقصى اليمين فى عصر الانفتاح وما صاحبه من مظاهر فجائية غريبة على التطور الاجتماعى كعودة عديد من الآنسات والسيدات الى الحجاب طوعا وتمزق أخريات فى حفلات المجون التى اقامها رجال الانفتاح المتلاحمون من الغرب وأمريكا .

لم يتصور هذا .. ان السيدة الجادة المحترمة التى عرفها فى العمل يمكنها ان تجلس على ساقى ذلك الأمريكى تقبله امام الجميع .. وكانها

تعلن على الملأ بفخر علاقتها بصاحب الشركة الأمريكي .. حقا كانت قد ابتلعت زجاجتي ويسكي على الأقل .. ولكن السكر ليس مبررا لما فعلت .

لم يكن صاحب الشركة هو اول صديق لها .. لقد مرت على عديد منهم خلال تنقلاتها من شركة لأخرى بعد انفصالها عن زوجها المتآمرك .. وكانت كلما بددت سام أكبر عدد من المغتربين تقدمت الى أعلى في السلم الوظيفي لشركات الانفتاح حتى أصبحت مديرة مكتب شركتهم وحتى أصبحت لها سلطات لا نهائية على العاملين من المصريين وبعض الأمريكيين .

وحتى أصبح لديها عربة مرسيدس وشقة فاخرة .. وهدايا لا حصر لها ومرتب ابتدائي مرتفع يتضاعف بالمكافآت والحوافز ليرفع أرصدتها في بنوك الانفتاح بشكل متصاعد لم يحلم ببلوغه هو نفسه عندما قرر أن يؤسس شركته الجديدة .

لم تكن فتاة كباريه من اللائي اضطرتهن حياتهن الى احتراف البغاء خلال فترة الاحتلال الانجليزي لمصر .. ان الأخريات اضطرتهن ظروف الحياة الصعبة التي نتجت عن الحرب العالمية الثانية لاكتساب قوتهن عن طريق تقديم انفسهن لجنود الاحتلال .

اما هي فقد كانت تستطيع ان تعمل في شركة امريكية انفتاحية دون تبذل ولكن الانفتاح لم يكن انفتاحا اقتصاديا فقط .. لقد كان سلوكا .. وعلاقات وتقاليد غزت بلدنا مع كل دولار .. لقد انتشرت افلام البورنو في كل قرية ومعها قيم المباراة الأمريكية التي فرضت نفسها على السلوك والذي امتصته سيدتنا من خلال محاولاتها المستمرة لفهم الانسان الأمريكي لتتعامل معه .

عندما رأت نظرات الدهشة في عيني صديقنا صرخت بالعربية في وجهه ماذا تريدون مني ؟ اتركوني اعيش حياتي .. هل ستتصرف مثل البيه اللي كان مستعبدني .. ؟ انا حرة .. أنا حرة .. انا حرة ..

الفصل السابع

ظهرت الشمس وتسللت اشعتها الحمراء من فتحات الخيمة التى يسكنها الشابان ومع الفجر تنفست الصحراء بنسمات نقيات فانتعش صديقنا .. قفز من سريره وغادر الخيمة يتعبد فى جمال الطبيعة .. الجبال البنفسجية تلمع مع الأشعة المنعكسة على الصخور الملساء والوادى يمتد مسطحا تتخلله تباب صغيرة يداعبها الهواء فتطرد قليلا من رمالها على هيئة سحابات خفيفة والحركة بدات تدب فى المعسكر الراقد فى حضن السحر .

حياه جندى شاب يلف فوطة صفراء حول راسه وأذنيه بابتسامة ودودة .. ثم اقترب منه عارضا خدماته بحب .

كان كل ما يحيطه يبعث على البهجة .. وشعر بالطمئنان غريب وهدوء .. قدم جندى آخر يهرول .. فلقد كان المكلف برعايتهما حاملا معه جركن ممتلئا بالمياه ليساعده فى تنظيف نفسه .

كان يدلك اسنانه بواسطة الفرشاة والمعجون ويتامل المكان (الذى نفى اليه) فى ضوء الشمس .

حلق شعر ذقنه .. غسل وجهه .. ارتدى ملابس نظيفة .. واستعد لاستقبال يومه .

استدعى قائد المأمورية زميله .. طلب منه ان يصاحب الكومبرسور لاصلاحه بالورشة ثم اختفى (*)

جال صديقنا فى المعسكر بدون هدف .. التقى برقيب أسمر حزين يطلق لحيته كان يعرفه اثناء تواجده بالكتيبة .. فهو شاعر .. ينظم قصائده بالعربية الفصحى وعلى المنهج القديم ثم يحرقها — رغم انها جيدة المستوى — بعد تلاوتها مباشرة .. فقد كان يمتاز بعزة نفس تمنعه من أن يقدم نفسه لمن لا يقدره .

رحب به .. سارا سويا .. كان الرقيب قد تبرع بتفسير ما يحدث حولهما عندما لاحظ جهل الضابط بالموقف وتفرع الحديث بينهمـا فجلسا فوق ربوة تطل على المعسكر ليتلو الرقيب فى لغة عربية سليمة وصوت قوى قصيدة من قصائده عن تجربته فى حرب اليمن يطل منها التشاؤم عندما عاتبه على المراره التى بقصيدته .

انفجر الآخر منفثا عما يطويه داخله قائلا —

أنتم بتصورون أن حربنا فى اليمن عبـارة عن نزهة عسـكرية .. وانها فى سبيل القيم العليـا .. والأخوة المشتركة .. ولكن المهازل التى قام بها الضباط والجنود المصريون لا يمكن أن تقترب من المثل العليا ابدا .. احراق القرى والقتل الجماعى والتعـذيب للأسرى .. لا يمكن أن يكون اخوة مشتركة .. ان التدمير لم يلحق بالشعب اليمنى فقط ولكن أيضا بالجيش المصرى .. لقد تفتت الجيش بشكل لا يمكن تصوره وتضاربت الأوامر لدرجة اننا نحن صغار الصف ضباط كنا نعجب من الفوضى غـير المحكومة .

ثم اكمل مدللا — هل تتصور سيادتك أن فصيلة مهندسـين مثـل فصيلتنا هذه تصدر لها الأوامر بالهجوم على نقطة فى الجبل كما لو كنـا مشاة .. لقد مات نصف جنـود الفصيلة لأنهم لم يدربوا على واجبـات المشـاة .. هل تتصـور اننى كونت عصابة من جنـود السرية لسرقة التعيين .. لقد أوكلوا الينا مهمة انشاء طريق جديد وتركونا مع معداتنا بدون أى طعام لمدة طويلة كان الضباط يأكلون فى ميزات ضباط الوحدات المختلفة القريبة من الطريق على امتداد تقدمه .. ونحن لم يفكر أى منهم فى اننا نحتاج لوقود لنعمل اضطررت لسرقة الدقيق والطعام وحفرت حفرة ضخمة تحت الخيمة دفنت فيهـا المسروق وأسستا مطبخا خاصا لنا .. لاطعام الجنود .. ولم يسألنا أبدا الضباط من أين نأتى بطعامنا .

حضر أحد الصف ضباط يستأذن فى ايقاف العمل لكى يتناول الجنود افطارهم الذى وصل لتوه من كتيبة الصاعقة الملحقين عليها فاذن لهم .

أكمل الرقيب لصديقنا .. لقد كان اهتمام الضباط .. ثم تردد قليلا واضاف والصف ضباط والجنود هو أسعار البضائع فى سـوق الملح .. واسعار استبدال الدولارات بالريال اليمنى .. كان الجندى يأكل ويدخن ويعيش على حساب الجيش وكل « بكشة » (مليم يمنى) يحصـل عليها يحولها الى معدات كهربائية أو ملابس أو اى بضائع يستطيع بيعهـا فى مصر بأضعاف ثمنها .

سرح ببصره قليلا ثم أضاف لقد كانت مهـزلة .. ثم أصفر وجهه ووقف مرتبكا ناظرا تجـاه قول من السـيارات الجيب المخصصة للقيادة وهمس بصوت متحشرج قائد الفرقة .

هبط صـديقنا من فوق التبة واتجـه الى المكان الذى توقفت فيـه العربات ليجد عميـدا ومعه مجموعة من الضـباط .. كان سائق احـد البلدوزرات قد ترك افطاره وقفز الى معدته يديرها .. وحدث هرج بين الجنود الذين يتناولون طعامهم .

وصاح العميد فى صديقنا ــ لماذا لا تعملون ــ ؟ يبدأ العمل عندما نحضر .

أجاب صديقنا ببرود .

ــ اننا نعمل من السادسة صباحا.. الآن فترة راحة لتناول الافطار الذى وصل لتوه ..

ثم أضاف بصوت منخفض ــ لقد أعطيتهم الأوامر بالتوقف .
علق أحد الضباط المتحلقين حول العميد ــ

ــ اذا كان الامر هكذا .. فلماذا أمرتهم بالعودة للعمل عندما رأيتنا

رد صديقنا باستفزاز ــ أنا لم أصدر الأوامر ببدء العمل .. انما هو رعب سائق البلدوزر من العربات الجيب .

اقتنع العميد بتسرعه فى اللوم واتجه الى الحفر التى أعدتها السرية لتركيب الملاجىء .. ووقف أمام احداها وسأل ــ هل هذا ملجأ .. ؟

رد صديقنا ــ أنا حضرت أمس فقط وقائد المأمورية يمر على الأعمال الأخـرى .

تجاهله العميد وسأل سؤالا آخرــ هل المدخل من هنا ؟

صـمت .

ــ هل هو ملجأ خفيف أم ثقيل .. ؟
وعندما وجد أن الآخر لا يرد عاد الى هياجه .

ــ أنت شغلتك أيه .

ــ مهندس .. يا فندم ..

رد بضراوة ــ انت ولا حصلت حتى عسكرى .. اذهب لاحضـار قائد المأمورية ..

تركه منـدهشـا .. فالمفروض أن يفهـم ما معنى حضـوره أمس فقط .. وكانت تتبعه تعليقات باقى الضباط عن انحلاله فهو لم يؤد التحية العسكرية ولا يحترم الرتب الأكبر .. وعن جهله أيضا فهو لا يعرف ما فى الموقع .

أنقذه حضور قائد الكتيبة .. الذى قابله العميد شاكيا له من ضابطه الصغير المنحل .

سأله قائد الكتيبة عن قائد المامورية ..

فرد أنه لا يعرف أين ذهب ؟؟

تعجب القائد ــ فالآخر يعلم بقدومهم ومع ذلك لم ينتظرهم ولم يلقن الصـــــغير ..

جلس بعيـــدا عنهـــم منزعجا .. يفكر فى الأسباب التى جعلت قائد المامورية يتصرف على هذا النحو .

اقترب منه الرقيب الشاعر وكان يرقب الأحداث من بعد .

قال مسريا عنه ــ هكذا هم دائما .. يتصورون القيادة صراخا .

ابتسم صديقنا .

رد الآخر بهجوم لا يتناسب مع الموقف ــ وستتعلم أيضا أنت هذا .. لقد كانوا جميعا مثلك عندما حضروا لأول مرة .

وتعلم صديقنا الصراخ بأسرع مما يتوقع شاعرنا .

كان يقف وزميله فوق ربوة يراقبان الشمس فى غروبها وكان كل منهما يقص على الآخر أحداث يومه .. وكان صديقنا ينتقد قائد المامورية الذى هرب من مواجهة ضباط القيادة لتأخره فى تنفيذ البرنامج فترك ضابطا صغيرا لمواجهتهم بجهله. عندما حضر جندى معه ورقة صغيرة .. عندما قرأها صديقنا ثار غضبا وطواها ثم دسها فى جيبه وأمر الجندى بالأنصراف .

كانت الورقة تحتوى على أمر من قائد المامورية للصغيرين بحفـــر ثلاثة ملاجىء بالأبعاد المطلوبة تخريبا وتكسيرا وحفرا .. وكان يقف بعيدا عنهما بمائة متر فقط .. أى يمكنه أن يحدثهما فيما يريد .. وبدون أوراق وامضاء بالمعلومية وخلافه .

عندما وصل الجندى حتى القائد .. سمع صديقنا صياحه وتوعده للجندى بالضرب فى حالة عدم العودة بالورقة موقعا عليها من الضابطين .

وهنا حقق صديقنا نبوءة الرقيب الشاعر .. لقد صاح فى الجندى العائد بصوت أعلى من قائد المأمورية بل شرع فى ضربه تنفيثا عن ضيقه .

فى الصباح لم يستيقظ صديقنا فى السادسة مثل زميله .. وتركه قائد المأمورية فقد كان يعلم أن القائد سيحضر ثانيا فى ذلك اليوم .

وحضر القائد .. واستمع الى شكوى قائد المأمورية من صديقنا .

زاره فى خيمته .

ـ سأله عن سبب تأخره فى النوم ..

رد الآخر ـ مريض .

سأله القائد عن مرضه ..

رد الآخر بخبث ـ مرض سياسى .

ضحك القائد فلقد كان هذا التعبير شائعا فى تلك الأيام وبصوت يتخلله احساس أبوى دافىء خاطب صديقنا .

ـ يا بنى يجب أن تكون مرنا مثل الشجرة .. تنحنى مع العاصفة لتقف ثانيا ثابتة لا تكن جامدا فتكسر ولا لينا فتعصر .. كل ما أطلبه منك المرونة .

ان قائد المأمورية رغم ما يبدو عليه من عنف الا أنه طيب .. وماحدث امس لم يكن ضدك .. لقد كان ضدى انا .. ولكنه ليست لديه الشجاعة لمواجهتى .. عموما لو لم تعمل معى فى الكتيبة ولو لم أعرف قدراتك لكان لى حساب آخر معك .

يا بنى لا تتصور أن هذا العالم أبيض أو أسود .. هناك رماديات بدرجات مختلفة وهى الصفة الغالبة علينا جميعا .. ان ما ورطتنا فيه خلال مناقشات قطار العريش .. وردود أفعالك مع سيادة العميد ومع قائد المأمورية لا تتناسب أبدا مع ذكائك الأجتماعى فى التعامل مع الجنود والصف ضباط . يكفيك ضربة واحدة بما فعلناه معك عقب وشاية المقدم الأسمر .. وسنعطيك فرصة أخرى .. ستعمل منفصلا فى تجهيز الموقع الخلفى وستكون مسئولا أمامى عن تطور العمل .. على أن ينتهى خلال شهر واحد .. هل سمعت .. !

كان عليه ان يجهز خلال ساعتين فقط مطالبه وينهى مهمته .. ويرحل الى الموقع الجديد مستقلا عن قائد المأمورية .. قبل أن يرحل قائدالكتيبة

سارع فى نشاط تجاه الرقيب الشاعر .. يستشيره .. الذى جهز له كل الطلبات والكشوف .

صدق القائد على الكشوف والطلبات ثم أصطحبه الى الموقع الجديد حدد له المهام المطلوبة منه بدقة واستمع الى اسئلته .. ثم غادره متمنيا له التوفيق وهكذا فعل تماما قائد الكتيبة عندما اوكل اليه انشاء سد حرض فى اليمن فقد ذهب معه الى الموقع .. بقى فى خيمته عاريا الا من ملابسه الداخلية لمدة اسبوع يتابع تطور العمل ويناقشه وزميله فى المشاكل التى تعترضهما .. ويقترح الحلول .. حتى تأكد من أن العمل يسير فى تطوره الطبيعى .. فعاد الى الحديدة ولم يشاهداه بعد ذلك الا أثناء الأحتفال بتحويل المياه .

لقد تولدت بينهما صداقة غريبة من نوع العلاقة التى قامت بين صديقنا ووالده فى بداية حياته .. الحب والصراع او كما يقول الماركسيون الوحدة والصراع .. كان والد صديقنا يقول لقد تعلمت من ابنى ما لم اتعلمه من الآخرين .. عندما افتقدت روح العلاقة بيننا وحل محلها صراع دائم .. تسللت الى حجرته واستعرت بعضا من كتبه .. ومنها اكتشفت عوالم جديدة .. لم اكن اتصور أنها قائمة فى واقعنا .. قبل قراءتى فى كتبه كنت لا اتخيل ان هناك من هو افضل من طه السباعى ولطفى المنفلوطى وأحمد شوقى .

ولكننى اكتشفت سلامة موسى ومحمد عبد الحليم عبد الله وعلى احمد باكثير ويوسف ادريس ونجيب محفوظ وايليا أبو ماضى وصلاح عبد الصبور من خلال كتب ابنى .. وبعدها اصبحت لنا لغة مشتركة .

وهكذا قال له قائد كتيبته بعد ذلك —

كنت أعرف أن خبرتك محدودة أن لم تكن لا شىء ولكن كان هناك ما يميزك هو علاقتك الطيبة بالصف ضباط والجنود .. وكنت أعرف انهم يمكنهم تدريبك وانك لن تتعالى على التعلم منهم .. عندما قرأت كشف الصف ضباط والجنود الذين اخترتهم تأكدت انك سوف تنجح فى أداء العمل . فلقد كانوا فى حاجة الى وجوه جديدة ودم جديد يدفع الحماس بينهم فى مقابل العنف والبيروقراطية التى كان يدير بهما قائد المأمورية العمل .. وكنت متأكدا أيضا أن المنافسة التى ستقوم بينك وبينه ستجعله يغير من طرقه فى الأدارة ويتنازل عن جزء من صلفه حتى لا يفشل فى تحقيق معدلاتك .. لقد استفدت منك كثيرا .

صعد صديقنا الى ربوة عالية فى الموقع الجديد ليخطط العمل كان معه رقيبان احدهما تعرفونه انه الشاعر الناقد لحرب اليمن .. أما الآخر فقد كان المسئول عن تشغيل المعدات .. شاب من بورسعيد ذو شخصية مرحة وحازمة بحيث كانت له سطوة غريبة على الصف ضباط من سائقى المعدات .

كانوا يحترمونه ويقدرونه ويخافون منه .. وكان دائما يدافع عنهم وعن حقوقهم أمام الغير حتى ولو كان هذا الغير قائد سرية المعدات .. وويلهم منه اذا أخطأ أحدهم .. كان يديرهم بطريقة رئب الصناعة القديم .. وكان كل ما يرجوه أحتراما متبادلا بينه وبين الضباط الذين يقودونه كى يسوس جنوده ويستخرج أقصى طاقة لهم فى العمل .. وكان قد سمع عن صديقنا وأحبه بدون أن يتعامل معه .. وهو الذى أوحى للشاعر بأن يضيف اسمه الى المأمورية حتى يتخلص من ضغط رئيسه .. ويحرجه بمعدل الأنتاج العالى الذى قرر ان ينجزه فى الموقع المنفصل .

وهكذا كان لدى ثلاثتهم الحماس والرغبة فى تنفيذ عمل من نوع جديد .

أختار صديقنا مكانا ينصبون فيه خيام الجنود .. ولكن المخضرمين اعترضا قالا ان هذا المكان سيردم بناتج الحفر .. فاتجاه الريح يجعلها تحمل ناتج النسف والحفر الى الخيام .. واقترحا مكانا عكس اتجاه الريح والحفر فوافق صديقنا .

وحول الخيام قرروا خندق لتنصب عليه ادبخانة ميدانية ومكانا لنوم الضباط وخيمة تستخدم كمكتب للأدارة ومخازن للمفرقعات ومكانا لتجريح المعدات وصيانتها واصلاحها .

كانت الأماكن التى أختارها الضابط متباعدة وهنا اعترض الرقيب الشاعر قائلا :

أن معنى ذلك اننا سنضطر لتنظيم خدمتى حراسة مما سيرهق الجنود ويخفض انتاجهم فى اليوم التالى .

وبذلك قاربوا بين عناصر المعسكر بحيث تستطيع خدمة حراسة واحدة حراستهم ليلا .

واستغرقوا جميعا فى تنظيم المعسكر والأستحمام وغسيل الملابس حتى نهاية اليوم .

اجتمع بهما فى المساء .

قالا له — نرجوك الا تزعج نفسك بالعمل .. نحن سنقوم به بالكامل ولا حاجة لك للخروج من الخيمة .. « أصل الكلمة الحلوة بتأسر » .

رد عليهم بتواضع حقيقى — ولكننى أريد أن أتعلم فلا تحرمونى من هذه الفرصة .

قال الرقيب الشاعر بخبث — العفو يا فندم بس حضرتك ضابط .

اجاب الآخر متجاهلا خبثه – ضابط حقيقى ولكننى فى حاجة للتعلم.. وساتعلم منكم جميعا حتى أصغر جندى .

ليلا تجمعوا فى خيمة الصف ضباط بعد يوم مرهق .. وتطرق الحديث الى المواهب التى اكتشفها صديقنا فى الكتيبة .

وتبرع اكثر من فرد بتعريفه باشخاص لهم مواهب اخرى .. أحدهم يغنى وآخر يتلو التواشيح وثالث يرقص ..

وبذا يستعرض المواهب .. يشجعهم بابتسامة خفيفة وتصفيق .. وتجلت المواهب .. حتى العاشرة .

كانوا جميعا سعداء .. ولم يغضبوا حين نبههم أن ساعة النوم قد حانت فسيستيقظون مبكرا لبدء العمل .

فى طريقه الى خيمته كان احدهم يقارن بينه وبين قائد المامورية الذى كان يتسلل الى خيامهم ومعه الكشاف لابسا حذاء كاوتش ليتأكد من استتباب الأمن وعدم التهريج فى المامورية .

استيقظ فى السادسة صباحا ليجد جنديا واقفا أمام خيمته .. فتحها لف المدخل وربطه لتمتلىء بضوء الشمس والهواء النقى .. احضر من داخلها فوطة وصابونة وجركن مياه .. بدأ يصب الماء على رأسه ليغسل وجهه ويديه واثناء تجفيفهما .. احضر من الداخل الافرول وشرابا نظيفا والحذاء لمعه بقطعة من القماش وانتظره حتى حلق ذقنه ثم ساعده فى ارتداء ملابسه .

أخذ ملابس النوم رتبها ثم علقها .

سأله .. من الذى كلفك بهذا العمل .. ؟

رد .. بأن الرقيب المسئول عن المعدات ارسله لمساعدته .

وجد الرقيب الشاعر قد جمع الجنود وسلمهم معدات التخريم والتفجير وان الرقيب الميكانيكى قد جهز الكومبرسور واستعد للعمل وان البلدوزر قد بدأ يطقطق ايذانا بتشغيله ..

كان الشاعر حليق الذقن يبتسم على غير عادته .

قال لصديقنا بحب – صباح الخير يا فندم لعلك استرحت فى النوم .

اجاب الآخر بود – شكرا – ماذا سنفعل الآن ؟ .

كان يمكن سماع دقات قلبه من اخر مكان بالمعسكر .. لقد كانت تجربته الأولى .. ان يكون على قمة هرم المسئولية .. ولم يكن يعرف من

اين يبدا كان التحدى يدفعه .. ولكن عدم الخبرة تعرقله .. لقد فكر كثيرا خلال ليلة امس ..ترى ماذا يستطيع ان يفعل .. وتصور بشكل منطقى خطوات العمل تخريم الأرض .. حشوها بالمفرقعات .. تفجير العبوات .. ازالتها بالبلدوزر كان يحاول ان يجهد ذهنه ليتذكر الأبعاد المناسبة بين خرم وآخر واطوالها لتعطى العمق المطلوب من التفجير .. كانت هناك معادلات معقدة تختلف من نوع أرض لأخرى ومن نوع مفرقعات لاخرى ومن طريقة نسف لأخرى .. وتاه .. وتمنى لو أن مهندس المقاولين الذى علمه فى العريش كان معه .

رد الآخر ـ قلت لسيادتك استرح ونحن سنقوم بكل العمل .. حدد لنا سيادتك مكان الملاجىء والباقى علينا .

وقرر ان يبدأ من حيث انتهوا .. فليتركهم ينفذون العمل بنفس الطرق التى تعودوا عليها .. وخلال العمل قد يستطيع تطويره .

واصبحت هذه وسيلته للتعرف على الأعمال كلما بدأ من جديد .. الانتظار والمراقبة .. ثم النقد والتطوير .. وهو الأمر الذى لم يفطن اليه رغم بساطته كثيرون .

فقد لاحظ بعد ذلك ان اى مسئول او قائد يتولى قيادة جديدة .. يبدأ بهدم كل ما تم قبله .. ثم يفرض وجهة نظره التى لا تكتمل أبدا اذ يهدمها منيأتى بعده .. قد يكون ذلك بسبب الثقة الزائدة فى النفس والتى افتقدها صديقنا فى بداية عمله بالقوات المسلحة .. وقد يكون لأختلاف وجهات النظر السياسية بين قائد وآخر .. وقد يكون احساس المسئول بان فرصته فى البقاء فى منصبه محدودة وعليه أن يترك بصماته .. ولكن صديقنا تعلم من مأمورية انشاء الملاجىء بالقسيمة أن يكمل البناء ويطوره بدلا من أن يبدأ التجارب من جديد .

بدأ الأفراد يعملون بحماس خلية النحل .. كما لو كانت خيوط غير مرئية تحركهم .. كل منهم يعرف مهمته جيدا .

الملجأ يخطط مكانه بواسطة الشرائط والجير .. الاخرام يحدد مكانها بحيث تفجر دائرة قطرها متر .. الخراطيم تركب فى الكومبرسور .. الشواكيش تركب فى الطرف الآخر .. جنديان يتبادلان استخدام الشاكوش الواحد فى التخريم .. البنط يتم استبدالها حسب الاعماق المطلوب تخريمها .

تبادل صديقنا الحديث مع الجنود .. كان يسأل كلا منهم عن طبيعة عمله فيجيب بفهم وكان رقيبهم ينظر اليهم بفخر .

كان الرقيب الميكانيكى منهمكا فى اعطاء التعليمات لسائق البلدوزر .. الذى يرتشف الشاى ويدخن سيجارة ويستمع الى رئيسه باهتمام .

عندما لمح صديقنا رمى سيجارته على الأرض وحياه بود ،

سأله .. هل أرسلت جنديا لخيمتى ؟ .

رد الآخر ــ نعم يا فندم .

ــ لمـــاذا ؟

ليساعد سيادتك .

ــ الم يكن له عمل سيتعطل .

ــ وهل ستبقى سيادتك من غير مراسلة .

ــ ولما لا .. ؟؟

ــ مش ممكن طبعا .. لقد عملت بالقوات المسلحة منذ خمسة عشر عاما ولم أر أو اسمع أن ضابطا يمكنه أن يعيش بدون مراسلة .. من الذى سيغسل ملابسك ويحافظ عليها ويرتب سريرك ويصب عليك الماء .

قال الآخر بتردد ــ لقد تعلمت كل هذا فى الكلية الحربية .

ــ ميخلصناش يافندم .. سيادتك واضح انك ابن ناس .. وكلنا نخدمك بعنينا .

كان ضميره يؤنبه لا يمكن ان يعطل قوة عمل ويحجزها بجواره لكى يصب عليه الماء صباحا .. وفى نفس الوقت لم يجرؤ على تغيير نمط حياتهم بشكل مفاجىء .

وجاء الحل من الجندى نفسه .. فقد تطوع ان يساعده صباحا .. ثم يقوم بدوره مثل باقى الجنود خلال اليوم .

كان يتكلم معهم ويلاحظ الشواكيش والبنـــط وهى تشـــق الأرض لتحفر اسطوانة رفيعة فى الصخر .

اكتشف أن سرعة اختراقها للأرض عالية فى البداية .. ثم تواجهها مقاومة بعد ذلك فتنخفض السرعة .. وبالتالى فالطبقات الأولى من الأرض لا تحتاج لتفجير .

وكان يلاحظ البلدوزر وهو يعد أماكن حفر الخيام لقد كانت سرعته عالية وتصل الى اعماق كبيرة .

عندما نقل ملاحظاته لمساعديه واقتراحه بأن يبدأوا الحفر بواســـطة البلدوزر حتى الطبقات الصلبة التى يفجرونها بالمفرقعـــات .. لم تلـــق قبولهما .. ولكنهما وافقا على اجراء التجربة ارضاء له .

كان التخريم يستغرق ثلاث ساعات واعداد الحفرة للنسف تستغرق نصف ساعة وكان النسف والتطهير يستغرق ساعة اخرى .

وكانت الحفرة الواحدة للملجأ تحتاج للنسف على مرتين اى ثمانية ساعات بدأ يجرب طريقته .. استطاع البلدوزر أن يصل الى الأرض الصلبة بعد نصف ساعة .. واستغرق تخريم ونسف وتطهير الجزء المتبقى ثلاث ساعات ونصف .. وبالتالى وصلوا الى نفس النتيجة السابقة فى أربع ساعات .. أى كان بامكانهم مضاعفة الأنتاجية .

كانت للتجربة الجديدة فعل السحر فى نفوس جميع الأفراد .. لقد كان واضحا الفرق بين الطريقتين :.

كان صديقنا سعيدا أن اصبح له دور فى تقدم العمل .. وكان الرقيبان أكثر سعادة .. لقد وجدا قيادة تستطيع تطوير العمل .. اما الجنود فلقد اكتشفوا من الوهلة الأولى أن صديقنا ليس بالضابط المؤدب الذى يعاملهم معاملة انسانية فحسب بل ايضا قيادة تستطيع دفع عجلة الأنتاج .

واحتفلوا جميعا فى المساء بانتصارهم لقد انجزوا حفر ثلاثة ملاجىء بدلا من ملجأ واحد ونصف .. وهم نصف قوة المامورية فقط .. انهم لم ينجزوا ابدا بكامل قوتهم أكثر من ملجأين يوميا .

تجمعوا فى خيمة الصف ضباط وبداوا يضحكون من المواقف التى حدثت خلال اليوم .. كانوا جميعا يتكلمون ببساطة وحب .. حتى فاجأه رقيب السرية بأطباق الطعام التى وصلتهم .. لقد كان فولا بكمية قليلة وعسلا اسود تستطيع تمييز رائحة الحموضة فيه من على بعد .

ساله ــ هل من الممكن ان يتناول انسان مثل هذا الطعام ؟

ولم يجد صديقنا المبرر الأن يدافع عن القوات المسلحة .

رد ــ لا .

ــ هذا هو ما أحضروه لنا كى نأكله .

غلى الدم فى عروق صديقنا .. لقد كانت تجربة جديدة عليه .. كيف يتصرف ؟

لاذ بالصمت .. وعاد الى خيمته ليجد طعامه .. أرزا ولحما وخضارا وفاكهة .

سال الجندى المتطوع بخدمته من الذى احضر الطعام ..

رد الآخر — من كتيبة الصاعقة المجاورة فنحن ملحقون عليها .
فى الصباح وبعد أن اطمأن على سير العمل .. وبعد أن اكتشف أن افطار الجنود هو نفس عشاءهم .. تسلل من المكان وذهب الى كتيبة الصاعقة وقابل قائدها .

وبعد أن شرح له مدى الجهد الذى يبذله جنوده .. ثم قلة الطعام ورداءته استدعى القائد جندى المراسلة وسأله عن عشائه وافطاره .. فاكتشف أن جنوده قد تناولوا أصنافا أخرى من الطعام .

استدعى رقيب المطبخ .. واجهه بالفارق بين طعام الملحقات (أى جنود المهندسين) وبين طعام جنوده فتلعثم .. ثم قال انها أوامر رئيس الشئون الأدارية .. وظهر السبب .

لقد كان هناك عجز فى عهدة رئيس الشئون الادارية .. وكان لديه بعض الأصناف التالفة .. فوجدها فرصة لتسوية العجز والتخلص من التالف بارساله الى جنود الملحقات غير واضع فى الأعتبار أن بينهم رقيبا سرق التعيين فى اليمن لأطعام جنوده .. وقائدا رومانسيا يقتله ظلم الأنسان لأخيه الأنسان كان صراخ قائد الصاعقة يكاد يصل الى القاهرة .. لقد ضبط متلبسا .

وتم عزل رقيب المطبخ وتاخير أجازة رئيس الشئون الأدارية .. ودعوة صديقنا للغداء فى ميز الضباط .. وتحسن طعام الغذاء لجنود المأمورية ..

على مائدة الغذاء بدأ أحدهم بالحديث عن الذبابة التى وقعت فى الشوربه فأخرجها وامتص ما علق بها ثم رماها وتبعه آخر بالحديث عن الخنفساء عندما تدخل النار وتطرقع مستفيضا فى وصف العروق والحنايا القذرة .

وكاد هو أن يفرغ ما فى معدته .. ولكنه لاحظ نظراتهم له وترقبهم لردود افعاله وتفكر أن رجال الصاعقة لا هم لهم الا المباهاه بقدرة احتمالهم واكلهم للثعابين والسحالى .. وقرر أن يفسد خطتهم ..

فتدخل فى الحديث ليقص قصة مختلقة عن أحدهم الذى كان عليه تنظيف مجرور واستفاض فى وصف شكل الفضلات ورائحتها .. ثم قال أن الرجل فى هذه الأثناء عطش فشرب من المجرور .

وتعالت الضحكات .. ثم علق صاحب الذبابة .

— الله يقرفك يا أخى .. ده كلا متقوله على الأكل ..

أعتذر قائد الكتيبة بأن عادتهم مع الضيوف على الأكل أن يكتفوا بقصة الذبابة ولكن عدم مبالاته وأستمراره فى الأكل جعلهم يتمادون .

فى المساء كانوا قد اتموا حفر ثلاثة ملاجىء اخرى واعدوا ملجاين للنسف المبكر صباحا .

كان صوت اسرائيل يذيع اغنية كلماتها يا حبيبى واحشنى وروحى فيك وبقالى زمان .. وتنهد الجالسون حول المذياع وبدأ كل منهم يقص أشجانه ثم غنى العريف سائق البلدوزر بعض التواشيح .. لقد كان مداحا محترفا قبل تجنيده كان له صوت قوى وحساسية فنية ورثها من اجداده قدماء المصريين مباشرة لم يستطع الزمن أن يغيرها هى او الألحان التى يشدو بها .

فى ماريوت عمر الخيام .. كانت نغمات بحيرة البجع تنساب بهدوء اللحن الذى يصاحب ظهور البجعة .. وكاد أن يرى البجعة البيضاء ترفرف عبر النوافذ العالية خوفا على أميرها ومنقذها من أن يستسلم للبجعه السوداء ابنة الساحر .. فتفقد حبيبها وتفقد املها فى الحرية وكانت تجلس امامه مباشرة على يمينها ويسارها أمريكيان حضرا لاستكمال دراسة العطاء الجديد الذى سيتقدمون به .

كان احدهما يتصرف كالطاووس لقد كان مندوب الشركة الأنجليزية التى اشترت الشركة الأمريكية .. ومفوضا منها بالادارة .. وكانت هى تحاول الاقتراب منه فلقد أصبح مركز السلطة الجديدة .. أما صديقنا فقد كان مستفزا منه لقد دار بينهما حوار منذ دقائق عن الرمل المغسول أستفز كليهما .

سأله الانجليزى الأمريكى عن سعر الرمل المغسول فى مصر ليضمنه دراسته ورد صديقنا .. بأنهم لا يستخدمون فى مصر هذا الرمل المغسول .. بل يستخدمون الرمل الصحراوى .

قال الآخر — ولكن المواصفات تتطلب رملا مغسولا .

رد صديقنا — المواصفات خطأ .

ثار الآخر — حتى لو كانت خطأ اريد أن اعرف سعر الرمل المغسول.

رد الآخر بهدوء — هذه المواصفات جهزت للولايات المتحدة الأمريكية حيث يؤخذ الرمل من مصبات الأنهار او شواطىء البحر وبالتالى يستلزم غسيله لتنقيته من الشوائب والمواصفات الأمريكية تصر على غسيلة ليلائم الخرسانة اما فى مصر فنحن نستخدم رملا صحراويا خاليا من الشوائب وجميع الأساتذة والمعامل توصى بعدم غسيله .

اجاب الانجليزى فارغ الصبر ـ ومع ذلك المطلوب منك السعر دون فلسفة .

رد الآخر بيأس ـ اضف للسعر جنيها قيمة الغسيل .. ولكن احذرك ستستخدم نصف مليون متر مكعب رمل أى ان سعرك سيزيد عن المنافسين بنصف مليون جنيه .

استفزت المناقشة كليهما .. اصبحا كديكين فى حلبة صراع الديوك .. كل منهما تفض ريشه وأستعد للهجوم .

وكانت هى ترقبهما بدهشة .. لم تكن تتصور ان هناك مصريا يجرؤ على مصارعتهم .

حاولت ان تحرز مكسبا من الصراع لصالحها .. أقتربت من الانجليزى عسى ان يشفع لها أقترابها منه لدى المالك الجديد .. هاجمت صديقنا ووصفته بضيق الأفق رغم انه فى الجانب الصحيح .. طلبت منه ان يتعلم كيف يتعامل معهم .

همست ـ انظر لى اننى أكاد ان أعمل كخادمة لهم ولكن ذلك لمدة محدودة هى فترة تواجدهم .. اما بعد رحيلهم فأنا ملكة متوجة لى جميع السلطات . علينا ان نصبر قليلا ولا داعى للعنجهية الفارغة التى لن تكسب من ورائها شيئا .

الفصل الثامن

ان لانعكسات اشعة الشمس فى مصر سحرا خاصا .. فى مراحلها المختلفة من الشروق حتى الغروب .

ولقد تنبه قدماء المصريين لهذا فكانت تصاحب حركة الشمس لديهم طقوس خاصة كانوا يعتقدون أن الشمس تولد فتية ثم تكبر وتقوى حتى منتصف النهار لتبدأ فى الضعف حتى تموت فى المغرب .. لتسقط فى المياه المقدسة وترتد لها الحياة فى اليوم التالى مع الشروق .

وكانوا يتصورون أن فى كل مرحلة من مراحل حياتها القصيرة تتعرض لالهة الشر تحاول أن تخنقها .. وليقوا الشمس من عدوها كانوا يقومون بحرق البخور وتلاوة الأدعية والسحر خمس مرات فى اليوم .

فى الفجر والظهر وما بين الظهر والمغرب وفى المغرب وما بعد المغرب حتى يكتمل سقوطها فى المياه المقدسة وكان يقوم بهذه الطقوس كهنة متخصصون يرصد بعضهم حركة الالاهان حورس وآمون. وينادى على زملائه عندما يصل الى المكان المحدد للقيام بالطقوس .. وترسب ذلك الأحترام والحب فى نفوس احفادهم ومنهم صديقنا فقد كان يزاول طقوسا خاصة به لرؤية الشمس والأستمتاع باشعاعاتها وتأثيرها على الموجودات حوله .. خاصة فى فترة الغروب .

فى ذلك اليوم كان رئيس العمليات قد مر عليهم واندهش من السرعة التى أنجزوا بها العمل .. وأمر بتزويدهم بالملاجىء لكى يركبوها فى الحفر المعدة لذلك .

عندما شكر صديقنا .. استدعى الصف ضباط والجنود وارجع لهم الفضل فى تنفيذ المهمة على اكمل وجه .

لم يتعود رئيس العمليات على هذا السلوك فأختلى به فى خيمتـــه ينصـــحه .

قال ــ أرجو الا يكون العناد مع قائد المأمورية أو حتى الرغبـــة فى النجاح مبررا لتفعل هذا .. !!

أندهش صديقنا لقد كان أخر ما يتوقع سماعه .

اكمل الآخر ــ ان جلوسك يوميا بين الجند وتبسطك معهم والتهريج يقلل من مكانتك كضـابط .. اليوم يجلسـون معك .. باكر ينادونك باسمك بعد ذلك لا ينفذون أوامرك وتصل فى النهاية لضربك .

لا تضحك فهذه تجارب حدثت فعلا فى الجيش .. أمس مثلا كانت هناك محاكمة لضابط ورقيب تضاربا .

طظ فى الشغل اذا كان على حساب مكانتك كضابط ارجو أن تتعلم من قائد المأمورية .

كان كونشرتو الأبوا والأوركسترا لهايدن ينبعث من المذياع .. كانت تذيعه اذاعة لندن .. وكان قد استرخى تماما مع النغمات المتتالية المترابطة للأبوا ردا على اللحن الاســاسى الذى عزفته الأوركسترا .. وكان يتـأمل الشمس فى غروبها وتطن فى رأسه كلمات رئيس العمليات .. عندما فوجىء بزميله يهزه .. لقد عاد من أجازته وانتهز فرصة أنتهاء العمل فاســتأذن لزيارته فى موقعه .. كان يحمل له مفاجأة .. كتابا عن الماركسية اســـمه « أصول الفلسفة الماركسية » لقد بحث عنه حتى وجده فى مكتبة بوســـط المدينة تسمى « مكتبة الشرق » متخصصة فى بيع الكتب الشيوعية .

قال له أنه قد التهم الفصل الأول عن المادية الجدلية وانه كلام علمى يعجب لماذا يخافون منه أو يهاجمونه .

كانت الأبوا لازالت تصارع الأوركسترا وكان واضحا انها قد انتصرت لقد رقت الى أقصى درجة .. ورقت معها مشاعره حتى انه لم يســـتطع التحكم فى دموعه .. كان قلبه ينخلع خلعا .. يقفز الى اعلى كما لو كان يرغب فى التوحدمعاللحن أو ان يستبقيه الى اقصى درجة يملأ أذنيه .

وكان يضغط على عينيه يحاول استيعاب كل لحظة من لحظات العزف عندما بدأ زميله يلخص له ما قرأ .

قال بشكل مفاجيء — كل شيء مرتبط ببعضه تمام الارتباط بمعنى ان كل ما فى الكون من جزئيات مادية أو معنوية مرتبط كل منهما بالآخر يؤثر فيه ويتأثر به .. وهو فى حالة حركة مستمرة هذه الحركة سببها تراكمات كمية بطيئة يعقبها تغير نوعى سريع .. وان هذه التراكمات تحدث من خلال صراع الأضداد .. كل شيء يحمل نقيضه يصارعه .. وعن طريق التراكمات الكمية البطيئة لكلا النقيضين يحدث تغير نوعى لتثبيت بداخله التناقضات ثانيا لتتصارع .

بمعنى أن الحياة فى حالة وحدة وصراع .

كانت نقلة سريعة لم يستعد لها صديقنا .. حاول ان يلفت انتباهه الى السحر الذى حولهما .. الشمس .. الصحراء .. الابوا .. والأوركسترا .

ولكن الاخر كان قد شغله اكتشافه عن اى شيء .

كان يتكلم بسرعة — انظر انه قانون الحياة الحقيقى .. وهو صحيح على المواد الجامدة كما انه صحيح على مستوى الحياة والفكر .

الحركة يا صديقى من خلال الوحدة والصراع .. التراكم الكمى ثم التغير النوعى .. هل تعرف ما معنى هذا خذ مثلا قدرا من الماء فوق النار هناك صراع بين البرودة والحرارة يحدث تراكم حرارى يعقبه تغير نوعى الماء يتحول الى بخار .. يحدث تراكم برودة .. يعقبه تغير نوعى .. الماء يتحول الى ثلج .. وهكذا حياتنا داخل جسم الانسان هناك صراع بين الموت والحياة .. يحدث تراكم كمى للضعف يعقبه الموت .. يحدث تراكم كمى للقوى يعقبه نمو وانتقال الطفل الى شاب فرجل .. نكهل .. الا ترى كان رد فعل صديقنا فاترا مما خفض حماس زميله ولكنه ترك الكتاب جواره ورحل سريعا .

جاءت الملاجيء وتم تركيبها وتغطيتها بالخيش والردم عليها وتركيب الهوايات والأبواب واخفاؤها .. فى وقت قياسى .. ولم يغير صديقنا علاقته بجنوده ولم يضر به أحدهم .

وكان لابد من الاعتراف بأنه قد نجح ومجموعة العمل التى يقودها .

كان القائد قد تأكد بأن المقدم الاسمر لم يوش بصغيره بعد .. نناقش معه بطريقته لقد داعب انتهازيته فأفهمه أن الصغير قريب لعدد من اللواءات المهمين بالقوات المسلحة .. او بمعنى آخر ليس كل الطير من يؤكل لحمه .. وبأنه قد عاقبه بارساله الى القسيمة .. واقنعه بأن يترك الأمر له ليعيد تربيته .. وكان القائد لا يخفى اعجابه بصغيرنا .. بل يفتقده لذلك فلقد أعاده الى مقر الكتيبة توطئة لأن يقوم بأجازته الميدانية .

قطار الحرب يقوم من محطة الأبطال فى السادسة صباحا وكان عليهم ان يسافروا من مقر الكتيبة فى الثانية صباحا حتى يستطيعوا اللحاق به . كان الضباط والجنود يحملون لفافات كثيرة اشتروها من غزة ورفح .. اطقم صينى خلاطات .. ملابس مختلفة .. علب كمبوت أناناس .. شباشب زنوبة اشياء غريبة يهتم بها كل منهم حسب امكانياته المادية ولم يكن مع صاحبنا الا حقيبة بها ملابس متسخة سيبلى بها والدته .

كان بجواره ضابط مهندس تصادف انه كان قائد الرقيب الشاعر فى اليمن حاولا قضاء الوقت بالمناقشة .. بدأت بمأمورية القسيمة ثم ثم انتقلت للرقيب الشاعر . قال الضابط — ان الرقيب الشاعر ممتاز ونشط .. ولكن عيبه لسانه انه يتكلم كثيرا .. ويحرض الجنود على السرقة .. لقد سرقوا فى اليمن معزة .. وصفيحة سمن وشوال رز وشوال دقيق .. وجعل موقفهم سيئا للغاية .. وكاد أن يحاكمه قائد اللواء .. وبدلا من أن يعتذر تبجح قائلا :

« العساكر جعانه نعمل ايه غير اننا نسرق . »

كاد صديقنا ينجر من لسانه .. لكنه تذكر درس الاجازة السابقة. ولكنه لم يمنع نفسه من التفكير .. ماذا كان يفعل وهو يرى جنوده جوعى ؟ لقد قال عمر بن الخطاب .. لا حد على سارق فى مجاعة .. !! انه لم يسرق الا ا خل هو وجنوده .. لم تعجبه سجادة مثلا فى مدخل ميز الضباط فى ص ..اء فلفها ووضعها فى عربته وركب بها الطائرة ليسافر الى مصر لولا انه لحقوا به فى اخر لحظة كما فعل زميل لهما مشهورة قصته ومحروم من الذهاب لليمن كجزاء .

كان الآخر قد استرخى فى الكرسى المريح واستسلم لتكييف الهواء فنام . وكان هنا ضابط يقرأ مجلة جنسية تنشر الصور العارية وتتحدث عن فضائح ممثلات السينما .. ظل يتأمل صورة الغلاف لممثلة عارية ... ويفكر ترى كم من الجنيهات تتكسبها هذه العاريات لقاء حياة لغريزة دافئة . . وكم من الملاليم يكسبها رقيب أو جندى فى الجيش لقاء حياة مهلكة وأكل

عفن . ووجد نفسه ينقاد فى استنتاجاته .. له حق الرتيب يسرق الخبز والضابط يسرق السجادة ومدير الاسكان يأخذ الرشوة . .هناك قانون عجيب يحكم هذه الحياة .

كان هناك شجار بين مفتش الجمارك وأحد الضباط الذى احضر معه خمسين شرابا (كروان دوبل استيك) المفتش يريد جمركتها والضابط يصر على انها للأستعمال الشخصى .

استيقظ زميله على الشجار . .وتعجب عندما عرف القصة .. لماذا لم يفرقها على الجنود ثم يلمها منهم بعد مضى المفتش .

وأرتبك الضباط كل منهم يحاول أن يخفى ممتلكاته وعاد النقاش بين مفتش الجمرك وضابط آخر يدعى انه يحمل نصف طقم أطباق صينى والمفتش يصر على انه طقم كامل .

عندما فتح حقيبة ملابس صديقنا .. ولم يجد فيها الا ملابس مستخدمة اندهش .. نظر اليه بشك .. لقد كان شاذا بينهم وانقلبت المقاييس كما لو كان الطبيعى ان يحمل كل منهم بضائع يحاول تهريبها والشذوذ هو أن يحمل ملابسه فقط وهكذا الحال دائما مع صديقنا فهو الشاذ رغم أن سلوكه فى الغالب المفترض أن يكون طبيعيا .

فى القنطرة تغير المنظر قليلا .. أولاد وبنات فى السادسة عشر تقريبا يجرون فى القطار وكل منهم يحمل شوالا ممتلئا باللب .. يهربونه من القنطرة شرق الى القنطرة غرب .. كان الكمسارى ينظر لهم بخوف .. لقد ماتت عروس فى عمر الورد امس وهى تقفز من القطار .. غلابة .

بعد الاسماعيلية كانت المفاجاة .. معلمة ضخمة ترتدى كمية هائلة من الذهب حول ساعديها وعنقها .. تمر فى القطار وخلفها رجلان معهما كيسان كبيران وهى تنادى .. اشترى زنابيب .. اشترى شرابات .. سجاير بلاطى غزة يا جدعان من جنيه لمية .. مين عايز فلوس .. فلوس .. فلوس .. فلوس يارجالة .. فلوس .

هل استمعت الى السيمفونية ٤٠ لموتسارت .. ان صديقنا يعشقها بنفس القدر الذى احبها به الاخوان رحبانى فاستعاروا لحنها الرئيسى لأغنية من اغانى فيروز .. ولكنه كلما استمع لها لم يستطع ان يمنع نفسه من امرين . .أولهما ان يردد كلمات اغنية فيروز مع اللحن .. والثانى ان يذكر ان بمصر مائتين وخمسين الفا من المليونيرات .. منهم خمسون يمتلكون أكثر من الف مليون جنيه .

كانت اصوات السيمفونية تأتى من بعد رقيقة تهدهده وكان يستعد لأن يردد كلمات الأغنية معها فى داخله — فهو لا يستطيع أن يغنى وضيف ندوة الغرفة التجارية الامريكية يتكلم — عندما أوقفت الأرقام المفزعة

استعادة الكلمات كان الآخر يقول ان حجم الدين الرسمى على مصر قد قفز فى سنوات معدودة من عشرة مليارات جنيه الى عشرين مليارا ..وان السبب فى ذلك (الدعم) ذلك الميراث المرعب الذى تركه لنا الحكم المطلق ..

كان يقول انه لابد من ايقاف النزيف .. واعادة الأمور الى نصابها — لقد كان المتكلم مصريا مسئولا — لابد من الانتهاء من ما يسمى بمكاسب العمال ..

فليتركونا نتعامل مع عمالنا حسب قانون العرض والطلب .. وبالتأكيد سيكون هذا افضل لهم .. ان مليونين من المصريين يعملون فى السعودية والكويت وباقى الدول العربية ولا تظلهم قوانين المكاسب العمالية وهم سعداء . لابد من التخلص من اعباء الدعم .. ومجانية التعليم التى أوصلتنا الى هذا الحد المرعب من تخريج انصاف المتعلمين .

لابد من التخلص من القطاع العام فلقد ثبت عجزه عن خوض معركة الانتاج وأغرقنا ببضائع غالية الثمن منخفضة المستوى .

ان اول خطوات التقدم الإعتراف باخطاء الماضى وفشل سياسة الشمولية . بعد ان اصبحت الأحزاب حقيقة.ما الداعى لنسب العمال والفلاحين فى المجالس النيابية .. نحن فى حاجة الى افضل العناصر المثقفة لتقود سياستنا الخارجية والداخلية . كان يتكلم بلغة انجليزية واضحة وكان المستمعون حوله فى قاعة عايدة يهزون رؤوسهم اعجابا .. وكان صديقنا قد اصابته القشعريرة .. كيف يحدث هذا ؟؟ ان اخواننا العمال والفلاحين سيتفهمون هذا جيدا .. ان مصلحتهم مرتبطة بتقدم بلدنا .. ولن يحدث التقدم الا اذا وثق الغرب فى اقتصادنا

علينا ان نعوم الجنيه المصرى لتصبح قيمته فى السوق هى القيمة الحقيقية ولا داعى لدفن الرؤوس فى التراب .

كان هناك اكثر من مسئول يستمعون اليه .. وكانت السيمفونية ٤٠ فى نهايتها تكرر لحن اغنية فيروز الشهير .

وكانت تجلس الى جوار صديقنا تدمعه فى ساقه ليستوعب ما يقوله كاهنها كانت سعيدة .. انه ينادى بمبادئها .. ما الذى يفهمه هؤلاء العمال والفلاحون لكى يصبحوا اعضاء لمجلس الشعب .

وكان هناك امريكى يناقشه .. ولكن هل تعتقد ان العمال والفلاحين سيتنازلون عن حقوقهم بسهولة ام انك تدعو لوسيلة اخرى للتفكير ؟؟

وفهم المتحدث قصده — قال نحن مجتمع يؤمن بالتغيير السلمى .. وفى يوم ما تغيرت سياستنا سلميا الى الاشتراكية او ما يسمونه اشتراكية وفشلوا والآن علينا أن نغير سياستنا سلميا الى الراسمالية الرشيدة لنصبح اكثر تمدنا واكثر قدرة على مواكبة العصر .

قال له سائق البلدوزر الذى كان يدربه على قيادته اثناء مأمورية القسيمة :

— لا تضغط مشغل الوقود حتى لا تحرق التيل .

سأله متعجبا وكيف أحرق التيل ؟!

— بالتحميل الأكثر من اللازم .. ثم أردف لامؤخذه نحن نحرق التيل لقائد المأمورية مرة كل اسبوع .. بيشغلنا كالبهائم .. ونحن بشر .. نريد أن نرتاح .. نحمل البابور على الاخر .. تتحرق التيل نأخذ أجازة يومين ثلاثة حتى يحضروا مجموعة أخرى .

الفصـــل التـــاسع

عندما عاد صديقنا من اجازته .. كان قد قرأ الكتاب الذى أعطاه له زميله وهما يستمعان الى كونشرتو الأبوا والاوركسترا لهايدن .

وكان قد فتن به .. وخاصة بالمادية التاريخية وهى محاولة ماركس لتطبيق نظريته على التاريخ .

وكان قد بدأ مزاولة هواية غريبة .. وهى تحليل كل الظــواهر المحيطة به سواء العقلية او الاقتصادية أو الفنية او المادية من خـــلال اكتشافه الغريب — المادية الجدلية والمادية التاريخية — وكان متشوقا لرؤية زميله ليودعه سره بنفس الشوق الذى كان عليه الاخر يوم فاجأه على الربوه يتطلع للشمس فى غروبها . كان قائد الكتيبة قد كلف ضباطا آخرين بتولى مهام التوجيه المعنوى والأمن والشئون الاجتماعية .

ولم يبق له الا وظيفة قائد الاستطلاع .. وكان صديقنا ســـعيدا بعودته لرجاله .. كانت تجربة الشهر السابق قد أثرت فيه .. وكانوا لازالوا يتحدثون عن الانجاز الذى قام به مجردين باقى افراد المجمـــوعة من حقهم فى التكريم . استدعاه رئيس العمليـــات واوكل اليـــه مهمـــة الاشراف على كانتين الوحدة .. ظهر الامتعاض على وجهه .. بعد كل دراساته هذه سيتحول الى بقال .. شعر الرجل بمـــا يدور فى ذهنـــه فطمأنه .

هذه خدمة عامة يتولاها جميع الضباط بالدور والكانتين شىء حيوى فى الوحدة لخدمة الجنود وتلبية احتياجاتهم مع مكسب قليل يستخدم فى شراء الترفيه او مواد لتحسين الطعام .. وأغراض أخرى كثيرة ستعرفها عندما تزاول المهمة .

سال احد الصف ضباط الذين يثق فيهم عن طريقة ادرة الانتين .
فأجاب ــ استبدل الجندى الذى يعمل به حاليا وسيتحسن الموقف . ولم يعلق اكثر من ذلك تركه ليكتشف بنفسه .

استلم العمل من الضابط المكلف به فى الشهر السابق بعض اصناف لم تبع من الشهور السابقة .. ونقود .. واذن بشراء بضائع بمائتى جنيه بالأجل من المؤسسة الاقتصادية بالعريش .

صحب الجندى الذى يعمل بالكانتين الى العريش لشراء البضائع..
أوصاه الجندى بشراء كميات كبيرة من السكر والشاى والسجائر لأنها تدر أرباحا عاليه .. ثم الجبنة البيضاء وعدم شراء الحلاوة الحمصية والسمسمية فلقد كان لديهما مخزون منها .. ثم المعلبات وبعض البرتقال والطماطم والبصل الأخضر الطازج .

فى الطريق اشترى صديقنا من العريش صاج كنافة وآخر بقلاوة من محل يديره أحد معارفه بسعر مخفض .

وسهر صديقنا فى ميز الجنود طول الليل يراقب حركة البيع .. كان هناك اقبالا شديد على الكنافة والبقلاوة .

وكان هناك أيضا ظاهرة غريبة هو اندهاش الجنود من انخفاض اسعار المبيعات رغم انه التزم بكشف الأسعار الذى سلمه له الضابط السابق .

بدأ يكتشف الحقيقة ويفهم تحذير الصف ضابط الذى طلب نصيحته لقد كان الجندى يبيع بأسعار أعلى من التى حددتها قيادة الكتيبة وبالتالى يتبقى لديه فائض .. وهو يشترى سجائر لحسابه ويبيعها بأسعار أعلى فيترك لديه فائضا آخر .. بمعنى ان طاقة بيع السجائر فى الكتيبة مثلا خمسون خرطوشة .. يشترون عشرين رسميا وثلاثين يبيعونها لحسابهم.

اكتشف أيضا ان كيلو السكر وباكو الشاى يمكن ان ينتج منهما ثلاثين كوبا من الشاى وهم يحاسبون الادارة على انهما ينتجن عشرين كوبا فقط .

وبحسبة بسيطة يمكن تصور ان اكثر من نصف مكسب الكانتين لا يتم تسليمه للادارة .

جمع صديقنا ادلته وشهوده وذهب الى قائد الكتيبة .

توتر قليلا .. ثم حقق فى الامر .. وتوالت الجرائم .. لقد كان الصف ضابط المسئول عن التعيين يبيع صفائح الجبن فى الكانتين لحسابه .

وكان هناك عصابة من الصف ضباط تقتسم العائد الشهرى .. فلقد كان الضباط لكسلهم عادة ما يوكلون لهم ادارة الكانتين بدلا من الاشراف عليه .

وبدأت الفضائح تتسع .. لقد زجوا بضابط شرف ايضا فى المسئولية وكان نتيجة ذلك وهو الأمر الذى ادهش صديقنا ان القائد اوقف التحقيقات ولم يعاقب الا الجندى البائع بالسجن لمدة خمسة عشر يوما وتغييره .

شعر الجنود بما حدث فالأسعار انخفضت والجندى البائع تغير .. وزاد حماس صديقنا .. فانتهز اول فرصة لسفر الضباط الى غزة .. وكانت بالدور حيث يحضر اتوبيس من قيادة الفرقة ويصطحب ضابطين فقط من كل وحدة كل يوم جمعة لشراء متطلباتهم التى املتها عليهم زوجاتهم والتى عادة ما تستكمل بواسطة الخطابات .

وسافر صديقنا معهم .. لم تكن الكشوف التى يحملها تحتوى على اطقم برلون او اركوبال او ريكوردرات .. او اوعية طهى بالبخار او روائح او مستحضرات تجميل .. او ملابس داخلية .. وانما كانت زنانيب وشباشب كاوتش وكمبوت وشرابات كراون وبعض الأقمشة التى تصلح للطرح السوداء وحجارة البطاريات .. اشياء يهتم بها الجنود ويشترونها من العريش بأسعار مرتفعة .. فقد كان الجنود والصف ضباط ممنوعين من الذهاب فى هذه الرحلات .

اخذ كل الحصيلة المتيسرة من الكانتين وعاد ومعه بضائع غريبة لم تبع فى كانتين وحدة من قبل .. وبالطبع بأسعار اقل من اسعارها فى العريش .

فى نهاية الشهر حقق الكانتين ثلاثة اضعاف ما يحققه شهريا .

وكانت الفرصة لقائد الكتيبة لتلقين صغيرنا درسا جديدا .

قال — ما لم يفهمه زملاؤك ان الجندى هو الجيش ورعايته هى مهمتنا الرئيسية انهم يقلبون الأوضاع يتصورون ان الجنود مهمتهم خدمة

الضباط ولذلك ترى جيش المراسلات فى الميز والمطبخ وفى كل مكان يوجد به ضابط .. هذه بقايا الجيش الأرستقراطى القديم الذى لازالت قيمة تحكمنا حتى اليوم .

جيش ما قبل ثورة ٥٢ والتى قامت للقضاء على قيمة وأفكاره .

لقد الغت الثورة نظام البدل النقدى ونظام المراسلة واصبح قانون التجنيد مطبقا على جميع ابناء مصر .

الا انه عمليا لا يحضر هنا الا أفقر فقراء مصر .. ولازلنا نعاملهم كما كان الأمراء يعاملون عبيدهم فى الجيوش الأرستقراطية المناظرة للمجتمعات الاقطاعية رغم انتهاء الاقطاع .. الا تجد من يتنادى الاخر بلقب بك وباشا رغم الغاء الالقاب .

ان التغييرات لا تتم بقوانين ومراسيم ولكن لابد من تغيير البناء التحتى اى نظم وعلاقات وطرق الانتاج ثم تتغير طبقا لها بعد ذلك الابنية الفوقية التقاليد والعادات والقوانين والفن .

لقد سعدت بما فعلت فى نوبة توليك الأشراف على الكانتين كما سعدت من قبل بما أنجزته فى كل الاعمال التى أوكلت اليك .

وبالمناسبة لم اجد من هو افضل منك لحضور دورة تدريب على التوجيه المعنوى فى القاهرة لمدة شهرين .

سلمته خطابا من صاحب الشركة الأمريكى .. كان يبدى فيه استياءه للطريقة التى تعامل بها صديقنا مع المندوب الأنجليزى المفوض بادارة شركتهم وكان الخطاب حادا خاليا من الذوق .. لقد كتب له أنه لم يقم بواجبه بتقديم المعلومات الكافية لمندوبيهم وهو الأمر الذى يدفعون له من أجله مرتبه وانه يود أن يجده متعاونا بعد ذلك .

وكانت هى تكاد أن تعصف به فلقد أغضبهم .

لقد تجاوز المحظور .. وكان الآخر يبتسم .

فهو الذى وافق .. وهو الذى يقبض .

وتمادت فى تأنيبه .. الم اقل لك .. ماذا تستفيد من طريقتك فى التعامل معهم انهم الاقوى بعلمهم وحضارتهم ونقودهم .. وهم قادرون على سحقنا وسترى .

صاح فيها .. انهم لن يحصلوا على عمل بعد ذلك وهذا العجــوز المتصابى نصاب ولن يسمح له بأن يوقعه فريسة لنصبه .

اندهشت تماما ان يكون هذا رايه فى ولى نعمتهما .

اكمل بهدوء .. انه يشارك فى هذه الشركة بنقود نصفها لمشترى شركته الانجليزى والنصف الآخر بنقود صديقنا نفسه .. حقا هو دين عليه ولكنه سيسدده فى يوم ما .. بالتالى فأى خسارة سيتحملها طرفان غير عجوزها المتصابى الذى لا يهتم الا بتخدير مندوب المالك الانجليزى .

كانت تعجب من منطقه فهى لا تراه الا مفلسا من بلد مفلسة فكيف تتصور أن صاحب الشركة المليونير الأمريكى يمكنه أن يستغل هذا المفلس كما كيف تتصور أيضا أن أمريكا يمكنها ان تستغل بلدها المفلسة .

ولم يجد جدوى من حوارها .. انتظر حتى حضر عجوزها وشرح له ما حدث ودلل على صدق كلامه بموقفهم فى العطـــاء لقــد كانوا آخر الشركات المتقدمة كان ســعرهم ضعف السعر الذى قبلهم تماما .

وتراجع العجوز .. اعتذر ولكنه لم يتخل عن طريقته الامريكيــة عايره بانخفاض قدراته معددا ان مشـــاركى الشركات الاجنبية فى مصر من مصريين هم من ذوى النفوذ والسلطة مثل — ابناء واخوة السادات — ابناء سيد مرعى — أبناء حسن علام ابناء عثمان احمد عثمان — ابنــاء محمود يونس — أبناء عدلى ايوب — ابناء عبد المنعم الصاوى .. وانهم بذلك يستطيعون توفير اعمال دائمة لمشــاركيهم وكأنه يقول له (ابن مين انت فى مصر حتى تناقشنا .. يكفيك مشاركتنا) .

ولكنه لم يقل هذا لقد كان اكثر فطنــة .

استطرد قائلا — انه كان يمكنه مشاركة أحدهم أو من يماثله ولكنه فضل صديقنا لأنه يريد شريكا ذا فاعلية وليس ذا نفوذ فقط .

حقا لقد قضت الثورة على الاقطاع والرأسمالية واصبح الطريق مفتوحا امام الجميع للتنافس كل حسب قدرته وليس كل حسب اصوله .. ولكن حتى فى الأيام الاولى للثورة حل ذوو الثقة محل ذوى الكفاءة .

ومع الانفتاح تزاوج ابناء الحرس القديم مع ارستقراطية ما قبـــل الثورة مع اثرياء الانفتاح ليكونوا طبقة جديدة صعبة الاختراق .. مهمـــا حاول صديقنا أو من يشبهه .

الفصل العاشر

كان يشرف على الدورة مجموعة من شباب الضباط اصروا على ان تحقق اهدافها وعلى الالتزام بتنفيذ البرامج المعدة مسبقا بجدية ادهشت صديقنا . لم تكن مأمورية حضور الدورة نزهة او مكافأة للراحة .. لقد كانت عملا شاقا حضور محاضرات وندوات ومناقشات مستمرة من التاسعة صباحا وحتى الثالثة ظهرا حتى ان الدارسين تناقص عددهم بمرور الوقت ليصل الى النصف . كان الهدف من الدورة اعداد قادة سياسيين لديهم قدر من القناعة يولد القدرة على الاقناع .

واستعانوا لذلك بمجموعة من أساتذة الجامعات المتخصصين ليحاضروا فى الاشتراكية العربية والديمقراطية والحرية وعلم النفس وطرق التوجه لأفراد القوات المسلحة .

فى جو من الحرية غير المحدودة والتى ادهشت صديقنا دارت حوارات لا يمكن تصور حدوثها فى القوات المسلحة قبيل النكسة .

سأل صديقنا المحاضر عن الاشتراكية العلمية وعلاقتها بالاشتراكية العربية وكان لازال متأثرا بما قرأه فى كتاب صديقه .

واجاب الآخر — بأنه لا يوجد اشتراكية علمية واخرى غير علميه بل توجد صور مختلفة من الاشتراكيات تتناسب مع واقع وظروف كل قطر فالاشتراكية فى السويد او انجلترا تختلف عن الاتحاد السوفيتى الذى يختلف عن الصين وان الاشتراكية العربية تتميز بايمانها وباحلالها التحالف محل الصراع وهما الاعتراضان الأساسيان على الماركسية اذا كنا نقصد بها الاشتراكية العلمية .

ولم يقتنع صديقنا .. ظهر ذلك على ملامحه دون أن يفصح فتجربة قطار العريش كانت لا تزال ماثلة أمامه .

ولكن الضابط الذى يدير الندوة شـجعه ليسأل سؤاله بشكل مخفف .

ولكن فى حالة عدم الاعتراف بالصراع ماذا سيكون الموقف مع أعداء الثورة السابقين والحاليين والمستجدين الذين ينتظرون أول فرصة للقفز على مكاسب تحالف قوى الشعب العاملة .. ؟

اجاب الضابط ان العزل السياسى ومحاصرة قوى الثورة المضادة عليه أن يكون هدفا لكل القوى الوطنية وعلى راسها القوات المسلحة .. ان وظيفة القوات المسلحة ليس فقط حماية الوطن من الأخطار الخارجية بل وحماية مكاسبه الثورية .

اى ان الضابط اعترف بوجود الصراع ولكن لم يحدد كيف يمكن ادارته انه مجرد شعار لم يحدد ولم يختبر فى الواقع اليومى .

فى الديموقراطية ركز المحاضر على نقد الديموقراطية الغربية وبين مدى زيفها فالأحزاب الغربية عبارة عن تنويعات على نغمة واحدة وهى سيطرة أصحاب رؤوس الأموال على مقدرات الشعوب .. أما الديمقراطية العربية فسلاحها تحرير لقمة العيش وتوفير عمل شريف لكل قادر ومعاش مناسب لغير القادر .

وأن قوانين الحد الادنى للأجور والمكاسب العمالية والتأمين الصحى والتأمينات الأجتماعية ومجانية التعليم والدعم للسلع الاساسية هى وسائل الثورة لأصلاح الهيكل الاجتماعى المختل منذ عصور الاقطاع عندما كان نصف بالمائة من الشعب المصرى يتحكمون فى اقتصاده وينعمون بنصف ارضه ودخله .

ان تحالف قوى الشعب العاملة من عمال وفلاحين وجنود ومثقفين وراسمالية وطنية قادر على ارساء اسس ديمقراطية جديدة تستطيع الدفاع عن مصالحه وان نسبة الخمسين بالمائة من العمال والفلاحين الواجب توفرها فى كل المجالس النيابية تعبير حقيقى عن توزيع القوى فى مصر .

فى هذه المرة كان المعترض ضابطا آخر افصح بوضوح عن وجهة نظره انه يستقبل العمال والفلاحين فى وحدته وهو يرى أن الأمية والتخلف تجعلهم غير مؤهلين للدفاع عن وجهة نظرهم ومصالحهم .. بل بالعكس ان التجربة خلال المدة السابقة افرزت طبقة جديدة هلامية من فلاحى

وعمال مجلس الشـــعب الذين انسلخوا عن طبقتهم واصبحوا يمثلـــون ارستقراطية جاهله . وكأن المحاضر كان ينتظر هذا السؤال .. لم يفاجأ به .. قال انا معك الى حد ما .. أن العمل النيابى عمل شاق ويحتـــاج لمهارات وثقافات يجب اكتسابها وهذا لن يحدث الا بمـــرور الزمن .. فالفلاح أو العامل عديم الخبرة هذا يستطيع الدفاع جيدا عن مصـــالحه ومصالح زملائه فى المجالس المحلية الصغرى حيث العمـــل السـياسى يؤتى نتائجه مباشرة ويسهل مراقبته .. وفى هـــذه المجالس سيستطيع مجموعة من الناخبين تقويم وتدريب مندوبهم الذى يستطيع بعد تجربتـــه فى المجالس الصغرى أن ينشـــط تجربته ويغنيها فى المجالس المـــركزية .. انه الزمن ومدى رغبة وقدرة المثقفين على التخلى عن انانيتهم وشعورهم بالتفوق وتدريب كوادر خلفائهم .

كانت المناقشات دائما ساخنة .. وكان جو الحـــرية فى التعبـــير والاعتراض يزيدها سخونة وصحة جعلت صديقنا يراجع مواقف الشهور الســـابقة .

لقد كان هناك انفصام حاد بين القيـــادة الســـياسية والقيـــادات التنفيذية ان مجرد ذكر اسم لطفى الخولى اثار الدنيا واقعدها وذكر ماركس والاتحاد السوفيتى والشيوعية هنا يطرح بكل بساطة وثقة .

ان القيادة السياسية فعلا فى حاجة الى تنظيم مؤمن ينقل افكارها ويناقشها فى جو من الحرية الصحية وهو الأمر الذى لم يملؤه الاتحـــاد الاشتراكى الذى ضم بعض العناصر الانتهازية التى لا هـــدف لهـــا الا الاستفادة من الاقتراب من السلطة .

عندما عاد صديقنا الى كتيبته كان قد اقتنع بأهمية الحوار والحرية وكان يشعر بانتعاش ناتج عن القناعة بمبادىء الثورة وخطهـــا .. بل كان يشعر بأن عليه دورا هاما وهو نقل هذه القناعة الى الآخرين رغم جيوش الظلام التى تحاصر الثورة وتعطل اندفاعها .

ولكن هذا الحماس تبدد بعد مقابلته لقائد كتيبته .

لقد سأله باهتمام عن الموضوعات التى درسها .. ناقشه فيها .. علق على الأحداث ثم قال له ببرود :

انه ورغم التقرير المشرف الذى ارسلوه عنك ورغم انهم يوصـــون بأنك تصلح لتكون ضابط توجيه معنوى على مستوى الفرقة .. الا اننى لن اعينك فى هذه الوظيفة ثانيا .

صمت قليلا ثم اكمل (لقد سألونى فى ادارة السلاح عن اخبار الضابط الشيوعى ؟)

ولم يجرؤ صديقنا على سؤاله عن رده فقد كان واضحا .

ثم اصدر له التعليمات باعداد نفسه للسفر الى ابى عجيلة للمساعدة فى التجهيز الهندسى هناك .

صدر القانون رقم ٤٣ لعام ١٩٧٤ بعد الحرب مباشرة كان هدفه تشجيع المال العربى والأجنبى على الاستثمار فى مصر لأنعاش الاقتصاد القومى بعد حروب عديدة .

فى هذا الوقت كان العرب قد استخدموا سلاح البترول فى مواجهة العدوان وارتفع سعر البرميل الخام الى ارقام خرافية فتجمع فائض من اموال لديهم لم يحدث مثله فى التاريخ .

كانوا يستثمرونه فى الدول الغربية .. وكان هدف القانون اجتذاب هذا المال عن طريق بعض الاعفاءات والتسهيلات .. كالاعفاء من الضرائب لمدة خمس سنوات والسماح بدخول وخروج العملة الصعبة والاعفاء من قوانين العمالة .. ولكن لم تشجع هذه التسهيلات تدفق الأموال .

لذلك تم تعديل القانون الأول بقانون آخر فى عام ١٩٧٧ برقم ٣٢ .

ومنذ ذلك الوقت بدأت شركات برؤوس أموال مصرية وأجنبية تتكون تحت مظلته فى عام ٧٨ وصلت الى واحد وستين وفى عام ٨٢ اصبحت مائة وثلاث عشرة وفى نهاية ٨٣ ارتفعت الى مائة وخمس وخمسين شركة .

لماذا اندفعت الشركات الأجنبية لتكوين شركات استثمار فى مصر .

لقد كانت اوروبا وأمريكا تمر بأزمة اقتصادية .. وبطالة عاليه لم تحدث منذ الأزمة التى سبقت الحرب العالمية الثانية .

لقد صاحب التطور التكنولوجى من التشغيل عن بعد واستخدام الربيوت (الانسان الآلى) ما يسمى بالنسير نطيقا .. زيادة فى الانتاج واحتياج اقل من العمالة .. وبالتالى استهلاك منخفض .

لقد زار صديقنا مصنعا على مساحة مائة فدان يعمل لمدة أربع وعشرين ساعة يوميا ولا يديره اربعة افراد لمدة ست ساعات .. وباقى ساعات اليوم يعمل بدون أى مساعدة ادمية .. وبدون احتياج الى اضاءة .

فى المسانيا مثلا كانت هناك ازمة الاتراك .. الذين استوردوهم فى الستينات واصبحوا عبئا عليهم بعد ذلك مليونان من الاتراك كانوا يسعون الى طردهم ليخففوا من ازمة البطالة فى انجلترا .. كانت ازمة الهنود والباكستان .. فى فرنسا أزمة الجزائريين وسكان شمال افريقيا .. فى امريكا ازمة البورتريكيين وجنوب شرق آسيا .

وهكذا حاولت أوروبا حل ازمتها الاقتصادية على حساب دول العالم الثالث كما حدث أيام الخديوى توفيق والخديوى اسماعيل .

وكما حدث أيام الخديويين حدث فى عصر الانفتاح .. آلاف من المغامرين البيض قدموا الى مصر لاستنزاف ثرواتها واستنزاف أموال القروض التى منحتها دول أمريكا وأوربا لمصر .. ثلاثون مليارا من الدولارات .. اشترطت الدول المقرضة أن تنفق بواسطة شركاتها ومواطنيها أى يعود كل دولار أو استرلينى او مارك الى أمريكى او انجليزى او المسانى .

وغرق السوق بالسلع الاستهلاكية الجيد منها والخبيث .. سجائر .. شامبو .. صبغة شعر .. صابون .. شيكولاتة .. لبان .. احذية .. ملابس .. روائح .. سيارات .. اجهزة تكييف .. ثلاجات .. لحوم محفوظة .. فراخ .. بيض حتى المياه استوردوها .. حتى العيش استوردوه .

كانت مائة وخمس وخمسون شركة انفتاحية تعمل فى أعمال السمسرة والانتاج الاستهلاكى بنوك — فنادق — شركات تأمين — شركات مياه غازية — مستحضرات تجميل — مواد — بناء — مقاولات .

سمحت الدولة للمصرى بان يتعامل بالدولار رسميا وفى السوق السوداء وارتفع سعره من اربعين قرشا الى ستين الى سبعين الى ثمانين الى مائة وخمس وعشرين ومع ارتفاع سعر الدولار ينخفض الجنيه المصرى وتنخفض قيمته الشرائية .

وزادت المضاربات .. وارتفعت اسعار الأراضى .. بل هجر الفلاحون الزراعة وجرفوا الأرض ليصنعوا منها الطوب الأحمر .. وتحول الريف الى

مجتمع مستهلك بدلا من مجتمع منتج وتزايد عدد الوكلاء التجاريين بشكل لم يسبق له مثيل وهاجر كل قادر على العمل للخارج .. ومن بقى أصابته لوثة الاستهلاك .

كانت السلع المعروضة فى المجال التجارية تزيد الصرع .. التليفزيون الملون الفيديو ـ المطور .. وكان ضيق ذات اليد يدفع الباقين .. ممن لم يهاجر او يبيع قوة عمله فى الدول العربية أو يعمل وكيلا تجاريا أو مندوبا سياحيا أو موظفا بشركة استثمار .. الى أن يبيع بضاعة أخرى .. النفوذ .. والنفوذ كما يقول صديقنا يبدأ من جندي المرور حتي الذى يصدق على مشروع بمئات الملايين من الجنيهات .

وانتشرت الرشوة واستغلال النفوذ بشكل لا يمكن تصديقه الا فى بلاد العالم الثالث .. كذلك انتشر العهر وعم جميع الطبقات .. فكل واحدة لها زبونها الخاص .. الطبقات الدنيا للعرب .. والناطقات للانجليزية والفرنسية لرسل الانفتاح .

وتحولت القيم .. فمن الممكن ان يروج احدهم رسائل من الفراخ الفاسدة أو الجبن الفاسد .. او المخدرات .. ويموت العشرات .. وتتلف حياة آلاف ويرتفع عدد المليونيرات يوما .. بعد يوم .. حتى يصل الى ربع مليون مليونير متهرب معظمهم من أداء الضرائب .

وامتلأت القصور والمنازل والعشش بأفلام الجنس وحفلاته .. ولم يعد غريبا أن يقدم احدهم زوجته لذى منفعة .. بل لم يعد غريبا أن تدفع زوجة زوجها للرشوة واستغلال النفوذ .

.. لم يكن ذلك من اجل لقمة العيش ولكن من اجل الصرع الاستهلاكى الجبنيات والفواكه والمعلبات والبسكويت والكفيار والسلمون المدخن .. وسهرة فى الأندية الليلية وملابس لا تستخدم الا مرات قليلة .

وارتفع مستوى المعيشة تضاعفت الاسعار عشرون مرة على الأقل .. ونشب غول الانفتاح مخالبه فى كل قلب .. وفى كل بيت ..

وتفير صديقنا لماذا ينجو من غول الانفتاح .. ؟!

تغيرت ملابسه .. الاماكن التى يرتادها .. البشر الذين يتعامل معهم العزبة التى يقودها .. أهدافه ... حتى مفردات لغته امتلأت بكلمات

انجليزية .. لقد صار يقرأ الأدب الأمريكى ويشاهد الأفلام الامريكية ويمضى اكثر وقته مع السيدة التى قادته خلال دروب الغابة المتشابكة .

كانت تقول له ان فرصة الحياة تأتى مرة واحدة .. وان هناك مئات يحسدونه على حظه الباسم لاختيار الأمريكيين له ولكن للأسف هو جامد .. اقل ليونة غير قادر على التكيف مع الوضع الجديد .. فى الحياة قانون واحد .. ان لم تكن ذئبا أكلتك الذئاب .. وعليه ان يستخدم الى اقصى درجة كل ما وهبته الطبيعة من قدرات ومواهب لينتهز الفرصة ويستثمرها .

كان الأمريكيون قد مضوا .. واصبحت ملكة متوجة فى شركتها .. وكانت تبحث عن تسلية تستفيد منها .

سألته ــ لو اننا اتحدنا نستطيع ان نفعل ما نشاء .. نمتلك ما نشاء .. نسافر الى جزر البهاما فى يخت خاص بنا .. نعيش فى أوروبا فوق جبال الألب .. نخالط افضل البشر .. نصبح مليونيرات .

اقتربت منه .. شعر بحرارة انفاسها ورائحة عرقها الممزوج بأفضل عطور باريس .. وشفتيها الملتهبتين .. وغابا فى قبلة طويلة .

استقبلوه فى ابى عجيلة .. كانوا يعيدون تجهيزها هندسيا .. يقولون ان ابو عجيلة هى مركز سيناء ولقد استغرق لاحتلالها من الاسرائيليين اسبوعا فى عام ٥٦ وكانوا يعدونها لاحتمال حصار لا يقل عن شهرين .

كل بندقية فى الموقع لها دشمة خرسانية .. كل معدة عسكرية محصنة جيدا المياه فى خزانات تحت الأرض وكذلك الوقود والطعام .. كان العمل يجرى على قدم وساق .

وكانت سرية من كتيبته ملحقة على سرية اللواء الذى يحتـــل المنطقة تعمل فى هذا المكان منذ ثلاثة شهور .

وكان زميله الآخر الذى قدم معه لأول مرة يعمل فى هذه السرية منذ بدء تعيينه .. حيث علم منه ان دفعتهم قد تم ترقيتها الى نقيب .

كان الواجب المكلفة به سريتهم هو ازالة حقول الألغام القديمة ورص بدلا منها على مسافة خمسمائة متر .. وكان عليه ان ينضم للعمل اعتبارا من اليوم التالى .. وكانت هذه تجربته الأولى مع الألغـــام وما يصاحبها من خوف تقليدى .

سألهم عن تسجيلات الحقول المطلوب ازالتها فقالوا ان التسجيلات ضاعت وفى نفس الوقت لا قيمة لها لأن السيول جرفت الحقول وغيرت أماكنها لقد اصبحت مأمورية اخطر مما توقع .. ان الحقول تحتوى على الغام مضادة للدبابات وأخرى مضادة للأفراد ومعنى جرف السيل لها انهم قد يفاجئهم لغم مضاد للأفراد حيث لا يتوقعون .. وبالتالى تعريض عدد منهم للخطر .

أمام الحقول التى كان واجبه ازالة الغامها بطول كيلومترين وقف يتأمل .

ان ازالة الألغام البكليت المضادة للدبابات عملية سهلة .. حتى لو رقد او خطا عليها احدهم .

ولكن المشكلة ازالة الالغام الشرابنل المضادة للافراد كان معهم مكتشف الألغام — جهاز يصدر اصواتا تنبىء بوجود معدن — .

وبدأ رقيب الفصيلة فى استخدام المكتشف والتعامل مع الألغام المضادة للافراد وباقى الجنود فى ازالة الألغام المضادة للدبابات .. كانوا يعملون بحذر . ومع ازالة جزء من الحقل زادت جرأتهم ... ثم تضاعف سرعتهم .

ثم اكتشفوا الطريقة التى رصت بها لقد كانت بدائية وساذجة .. وزادت جراءة صديقنا أصبح فى وسط الحقل بين جنوده .. عندما مر عليه قائد المأمورية أنبه .. قال له ان أول غلطة فى المفرقعات هى آخر غلطة وما يفعله هو تهور وعليه أن يكون حذرا ويراعى تعليمات الأمن .

وهكذا صديقنا .. ينتقل بسهولة شديدة من اقصى اليمين الى أقصى اليسار دون أى انذار .. لم تكن هذه طبيعته فقط ولكنها سمة من سمات طبقته تتعامل بحذر شديد وخوف مع الأمور التى لا تتقنها ثم بالاندفاع وتهور بعد أن تتعلم .. وهو السر الذى جعل اغلب أفراد طبقته يتحولون من الاشتراكية العربية الى الراسمالية الانفتاحية فى مدة قصيرة .. !!

انتهوا من ازالة حقول الألغام وبدأوا فى رص الحقول الجديدة .. كان العمل يسير برتابة .. وكان قد بدأ يمل .. حتى مر عليهم قائد اللواء .. شجعه سأله عن مهنته .. عندما عرف انه معمارى ويهتم فى الديكور طلب من قائد السرية أن يصطحبه معه الى مبنى قيادة اللواء مساء ليناقشه فى موضوع هام .

احضر لهما شيكولاتة من دولابه الخاص .. وطلب لهما قهوة .. ثم بدا يناقشهما فى سبب استدعائه لهما .

ـــ انا أحضرت من اليمن شوية بوية .. وعايز ادهن الفيلا .. مش عارف اذا كانت الكمية ستكفى أم لا .. كذلك الالوان والذوق .. فايه رأيك باشمهندس (وليس يا سيادة النقيب) نمر على فى مصر .

ثم سأله ـــ انت اجازتك امتى ؟ .

رد الآخر ـــ حضرت منذ أسبوع .

عاق القائد ـــ طيب كويس انا اجازتى الأسبوع القادم يبقى سيادة النقيب يسمح لك وتنزل بدرى شوية وتفوت على فى مصر تتفرج على البوية وتختار الالوان وتعرفنا بنقاش كويس وابن حلال كدة مش شماط .. معندكش فى الكتيبة نقاش كويس .

رد قائد السرية ـــ عندنا يافندم بس مش من النوع اللى يصلح لفيلا سيادتك .

اجاب الآخر باستسلام ـــ معلهش .. الغالى برضه تمنه فيه .. ثم اكمل خلاص خلينا نشوفك ياباشمهندس .. ابقى تعالى اتغدى معانا هنا فى ميز الضباط كل يوم ثم نظر الى قائد السرية كما لو كان قد تذكر شيئا هاما وقال الا حقيقى ليه بتبعتوا تاخدوا اكلكم فى السرية احسن ناكل كلنا مع بعض .

اجاب قائد السرية ـــ ان شاء الله يافندم .

وهكذا اصبح صديقنا محل تكريم وترحيب فى طول اللواء وعرضه ففى اليوم التالى عندما ذهب للغذاء فى ميز قيادة اللواء .. قام قائد اللواء من مكانه وسلم عليه وقال له ازيك ياباشمهندس .

وبالطبع لم يمنع هذا احدهم أن يهمس فى اذنه :

حاسب على نفسك .. العميد حيموت ويجوز بنته لضابط مهندس .

الحر اصبح لا يطاق .. الشمس لا تمل من سكب طاقتها على ارض ابو عجيلة التى بدورها تعكسها على وجوههم وظهورهم حرارة .. فتتفصد الأجساد عرقا .. وفى وسط الصحراء ينبت حقل شعير انضجته الشمس فاصبحت سنابله صفراء وحان قطافها .. اصحاب الحقل باعلى الجبل يراقبون .. لقد كان عليه زرع حقل الغام فى هذا المكان .. ازالة الحياة .. وبذر الثمار وتفجرت فيه رومانسيته القديمة .. ملأت عينيه بالدموع ولم يستطع ان يقف فاستدار ليجلس فى العربة .. لحقه رقيب السرية .

قال له عندما سأله عن سبب تعبه .. فى وسط هذا الموت .. هـذا الجفاف نبضت الحياة .. واصبحت شـعيرا هو أمل هؤلاء المراقبين ونحن نقتلعه لنحرمهم منه .. بل ونحرمهم من الأمل فى زراعة أخرى .

ضحك الرجل ثم اكتست وجهه لمحة حزن عميقة .

قال ــ امال لو حضرت حرب ٥٦ كنت عملت ايه .. كنا لا نجد الوقت لدفن أعز اصدقائنا .

استرسل ــ كنت فى هذه الكتيبة كان اسمها الالاى السادس للمهندسين وكنا فى رفح .. انسحبت القوات .. ثم يصدروا لنا الأوامر .. ولم نشعر الا والاسرائيليون فوق رؤوسنا ــ جرينا ــ مشيت على قدمى مائتى كيلو حتى وصلت الى القنال .. كان الطيارين يطاردوننا واحدا واحدا .. وكان العربان هؤلاء الذين تحزن من اجلهم يبيعون شربة المـاء بالبندقية او الساعة أو الجزمة وكم شاهدنا من جثث عفنة بطونها مفتوحة والدود يأكلها .

سكت قليلا ثم اكمل بحكمة ــ عموما لا تحزن باكر سينزلون من فوق الجبل ويجمعونه انهم يراقبوننا ليعرفوا طريقة الرص .. وسوف يؤمنون الألغـام .. ويوصلوا المشاعل حتى اسرائيل .. حقـل الالغـام بدون حراسـة لا قيمة له .

وقفوا يراقبون الرص .. كانوا مجموعة قيـادة الجيش ومعهم قائد اللواء ورئيس اركانه وقائد سرية المهندسين وصـديقنا وزميله .. جاءوا للتفتيش على التحصينات الجديدة .. كان من بينهم مقدم مهندس .. عندما تعرف على صديقنا وزميله سألهما عن طريقة رصهم لحقول الالغام واماكنها .. ثم انفعل بدون مناسبة صائحا .. كل هذا كلام فارغ ان الطريقة التى يجهزون بها أبو عجيلة تعتبر مهزلة .

ضحك صديقنا وزميله .. مما زاده انفعالا .

قال ــ فى ٥٦ كانت التحصينات بنفس الشكل وهذا الممر قالوا انه غير صالح لمرور العربات .. ثم اشار الى الممر واستكمل كلامه .

الممر ده واصل حتى اسرائيـل ورغم وعورته حضرت منه القوات فى ٥٦ .. والآن يعيدون نفس المنطق مع تأمينه بحقل الغام .. ما قيمـة هـذا الحقل لا اعرف .. !!

ضحك صديقنا انه نفس ما قاله رقيب السرية .

غضب الآخر ونظر اليه معاتبا .

ـ ايه المستوى السيء ده .. القادة بتوعكم بيعلموكم ايه .. لماذا لا تقراون التاريخ .. يا بنى اللى ميعرفش التاريخ لا يمكن أن يفهم اليوم .. أو باكر خبرة الحرب ثمنها دم وأرواح .

ساله الضابط الصغير ـ وايه اللى ممكن يتعمل احسن من كده .

ترك الركب كله وجلس على الأرض وبدأ يرسم خريطة لسيناء فوق الرمل .

ـ هنا مضايق التمد والكونتلا وتمادة والحسنة .. على خط واحد .

ـ وهنا مضايق الجفجافة ومتلة وسدر على خط آخر .. لو اننا اهتممنا بالتحصينات والدفاع على طول هذين الخطين وتركنا سيناء كلها بدون قوات الا نقط انذار واستطلاع وبعض الموانع الصناعية استكمالا للموانع الطبيعية فان النقط الحصينة التى ستنشأ عند المضايق ستمنع تقدم اى قوات لحين قيام قوات أخرى احتياطية بالاندفاع لعمل هجوم مضاد .

ما قيمة الارض فى الصحراء .. لا قيمة لها .. ٪٦٠ القيمة الحقيقية للانسان والمعدات .

ان النقط الحصينة ودوريات الاستطلاع ستكتشف القوات المغيرة وقد تستطيع تعطيلها .. فاذا كان لدينا قوات موحدة سهلة الحركة نستطيع ان ندفع بها فى اتجاه المعركة الحقيقية .. وشن هجوم مضاد واسترداد الأرض .

كان يشير الى الخريطة ويقول يمكن ان يكون هنا فى الكيلو ١٦١ أو المريلش احتياطى تكتيكى .. ويمكن ان نضع هنا احتاطى تعبوى او خلف المضايق ان تفرقة القوات بهذا الشكل الكلاسيكى لا معنى له .. انه يربط القوات بالأرض ويجعلها غنيمة سهلة التدمير .. أما القوات المتجمعة فى احتياطات فيمكن بسهولة المناورة بها .

يئس من تعاطفنا معه فكيف غابت هذه الافكار عن جهاز الاستراتيج والتكتيك فى الجيش .

وشعر هو بما يدور بخلدهما فقال .. متعلهش هذا كلام للتاريخ لو حدثت حرب اخرى فستكون نفس خطة ٥٦ لأنها لازالت صالحة مع هذه الدفاعات الورقية .

ابتسم لهما وقال .. ستكونون الوقود لهذه الترهات وعليكما أن تفهما ثم تركهما وعاد الى عربته غاضبا .

وصدقت نبوءة المقدم لقد استخدم الاسرائيليون نفس خطة ٥٦ .. وسقطت الدفاعات الورقية فى أيام قلائل .. وكان زملاء صديقنا وقودها .. والاعجب أن الاسرائيليين بعد احتلالهم لسيناء نفذوا خطته فى الدفاع عنها بعد زيادة الطرق الطولية والعرضية للمناورة .

فى الغذاء بميز قيادة اللواء اختلى به رئيس الأركان لأمر هام جلس صديقنا على طرف كرسيه كى يستمع الى ما يريد ويسرع بالخروج فلقد كان معه قادة الجيش القادمون للتفتيش على التجهيزات والجلوس مع الرتب الكبيرة عادة ما يكون محفوفا بالأخطار .

كان احدهم يسأله عن نتيجة الدواء الجديد .

وكان رئيس الأركان له اسلوب مميز فى الحديث فرد بخفة دم :

انا يا بيه لخذت الابرتين من هنا وبقيت الالاى واقول يااللى تجيب لى الجماعة وانفجروا جميعا فى الضحك .. علق —

ولاد الكلب دول متقدمين جدا فى مسائل الطب دى وانت عارف اخوك مؤمن ومش بتاع هلس .

رد الآخر — اطلع من دول بقى بزمتك م لافتش عليك واحدة كده ولا كدة .

تنبهوا بعد هذا السؤال ان معهم ضابطا صغيرا .. فعلق صاحب السؤال :

— عمرك شفت ياشمهندس ناس عواجيز زينا بيقولوا الكلام ده .

تلعثم الآخر واحمر وجهه خجلا ولم تخرج الكلمات من فمه .

انقذه رئيس الأركان — يا اخى فى روسيا الضبط والربط مخالف تماما.

آخر انحلال لكن فى نفس الوقت أعلى ضبط وربط — وبدأ يقص مشهدا لفت نظره :

— كنا طالعين مناورة .. وكنت مرافقا لقائد لواء روسى .. كان الموعد السادسة وصلنا قبل الموعد بربع ساعة لم نجد السائق .. أنا افتكرت زى عندنا .. ضربت له كلاكس عدة مرات لم يرد .

سألت قائد اللواء عن السائق .

فقال ــ زمانه جاى .. وتحت الحاحى نظر الى جندى يقف مستندا على السور فى لا مبالاة يدخن واشار له .. اى تعالى .. هز الجندى اكتافه وقال : انتهت ورديتى .... قال له قائد اللواء .

ــ اريدك .... رد الجندى بضيق .

ــ شىء هام ...... ثم حضر .

سأله القائد ــ اين السائق ؟ .

امتعض الجندى ورد ــ سيأتى فى ميعاده .

ولم ينته الكلام حتى وجدنا السائق قد حضر وخبط على الكاوتش للتأكد من نفخه وفتح الكابود تأكد من وجود الماء فى الرديراتير وقاس الزيت وفتش على البنزين ثم ركب العربة وادار المفتاح للتسخين .. فى السادسة تماما بدأ التحرك فى اتجاهنا .. ثم علق :

شىء غريب رغم مظاهر عدم الضبط والربط بمفهومنا الا انه اعلى ضبط وربط بمفهوم العمل .

عم الصمت لثوان .... قاطعه احدهم قائلا .

ــ مش زى البهائم اللى عندنا .

ومال العميد رئيس الاركان على صديقنا قائلا :

ــ والنبى يا بنى لما توصل كتيبتك ابقى وصى الجزمجى بناعكم يخلص لى جوز البوت الجديد لانه اتأخر عنده وعايز واسطة .

الفصــل الحــادي عشر

انتهى تجهيز الخط الدفاعى الأول وعادوا جميعــا الى مقر الكتيبة . ولأول مرة تكتمل القوة (العدد) وكان العام التدريبى قد انتهى دون تدريب فالسرايا جميعها كانت تؤدى اعمالا فى تجهيز الخط الدفاعى سواء فى القسيمة او ابو عجيلة .

عقد قائد الكتيبة مؤتمرا للضباط .. ثم بدء فى عرض خطته للتدريب قائلا : انتهى الوقت الذى كان يمكننا ان نتدرب فيه ولكننا استفدنا ايضــا فأثناء العمل تعلم الجندى حفر ملجأ وتركيبه ورص حقل الغام وازالة آخر وبذلك نستطيع ان نعتمد على ان الفترة السابقة قد غطت مهام التــدريب الابتدائى .

الذى ينقصنا اليوم بغض النظر عن تفتيش هيئة التدريب هو ان نتدرب على واجب الحرب .. وما هو واجب الحرب لكتيبتنا .. عمل مفرزة تأمين تحرك .. عمل مفرزة موانع متحركة .. فاذا تدربنا على مهام المفرزتين على مستوى الفصيلة وعلى مستوى السرية نكون بذلك قد استوعبنا الواجب الذى ستقوم به الكتيبة فى المعركة .

كانت خطة القائد مادام الوقت قد ضاع فى انشاء خطوط الدفاع .. فلنتدرب عمليا على واجبنا .

وهو بتدريبه للفصائل والسرايا سيطمئن على ان كل جندى قــد أدى مهمته على الأقل مرتين مرة فى تدريب الفصيلة واخرى فى تدريب السرية .. وانه سيشاهد زملاءه يؤدون نفس المهمة اربع مرات أخرى .

ثم حدد أهدافا للسرايا والفصائل كما لو كانت فى المعركة .

تحولت الكتيبة الى خلية نحل .. قامت كل فصيلة باداء المهمة التى حددت لهـــا وكذا كل سرية وفى نهاية الشهر كان بمقدوره أن ينام مرتاح البال الى ان كل رجاله قد فهموا وتدربوا على واجبهم .. ويستطيعون القيام به اذا قامت الحرب .

انتقلت بعد ذلك الفرقة لدهشور بما فى ذلك كتيبة صديقنا .. ولأول مرة منذ بدء مغامرته بالسفر الى اسكان ومرافق سيناء يستقر فى القـــاهرة يعيش فيها بانتظام يتحول الى موظف يستقيظ صباحا ليحلق ذقنه ويرتدى ملابسـه وينتظر العربة التى تقله الى مكان المعسكر .. حيث يجد مكتبه نظيفا ومرشوشـا بالمـاء والفليت بواسـطة المراسلة .. يبدل ملابسـه يرتدى الأفرول .. ويحضر طابور الصباح يتمتم ببضع كلمات محفوظة بملل .

ـ سرية صـــفا .

ـ سرية انتباه .

ـ تشكيل مفتوح مارش .

ـ اقلع الطاقيـة .

ويتحرك بين الطوابير يفتش على الجنود .

ـ شعرك طويل ليه .... تقيف .

ـ ذقنك طويلة ليه .... حرمان خميس وجمعة .

ـ ده منظر جندى بالقوات المسلحة .

ـ اوفرولك وسخ ومقطع ليه .

ولا ينتظر سماع التبرير أو الرد فهو يعرف انهم يستحقون صرف دفعة ملابس جديدة ولم تصرف بعد .

ـ البس الطاقيـــة .

ـ تشكيل منضم مارش .

ـ سرية صـــفا .

ـ سرية انتباه ... عايز صوت الخطوة يهز المكاتب .

ـ سرية صـــفا .... انتباه .

ـ ويقف أمام السرية منتظرا صوت رئيس العمليـــات .

ـكتيبة صـفا .. كتيبة انتباه ... دور للتعليم فيلتفت الى رقيب أول السرية ويقول دور للتعلم .. ويتجه الى المكاتب .

وهناك حتما يجد ضابطا حزينا أو سعيدا وتبدأ المناقشات حول حزنه او سعادته وتتطرق لمغامرات اليوم السابق ويتحمس احدهم فينادى على المراسلة ياواد يا فلان .. دور شاى (اى شاى للجميع) .

وبعد نصف ساعة يجلجله آخر ياواد يا فلان .... دور قهوة .

ويدخل صف ضابط حاملا اليومية وكشوف الاجازات والتصاريح وتدور المناقشات .

ــ لا ياسيدى الواد ده نزل الاسبوع الماضى .

ــ اصل امه ماتت .

ــ هى امه حتموت كام مرة .

ــ السرية محبوسة لغاية مينضفوا خيامهم .

ــ سيادة المقدم عايز سيادتك .

ــ مضيت دفتر النوبانجيات .

ــ هو كل يوم نوبانجية .

ــ عملت برنامج التدريب .

ــ والبنت بعد م قرصتها عملت ايه .

ــ العسكرى ميقدرش يتحكم فى نفسه بيبول وهو واقف .

ــ وليه مشركهوش فى القومسيون .

ــ لو كان له كوسة كان خرج بدون سبب .

وهكذا تصبح الساعة الثانية الا ربعا فيدخل جيش المراسلات لتنظيف الاحذية واخراج البدل وتعليق الاوفرولات .. وانتظار العربات التى ستعود بهم .

وانقطعت الصلة بين الضباط والجنود الا فيما ندر .

المعسكر قذر يملؤه الذباب .. الجنود بدون تدريب .. حلقات الكلام لا تنتهى وينتقل من الكتيبة عدد من الضباط وينضم لها عدد آخر .. ويستقيل احد زميليه لدراسة الدكتوراه فى الاتحاد السوفيتى فتقبل استقالته .. وفجأة تدب الحياة فى الكتيبة .. تفتيش هيئة التدريب .. وتبدأ المؤتمرات .

فى مصر التفتيش مخالف لسيناء هنا يجب الاهتمام بوثائق وفصـــول وميادين التدريب .. ويجب تلقين الجنود كما هائلا من المعلومات النظرية .

وتم توزيع المهام بينهم .. بالطبع عرفتم ما هى مهام صديقنا .

فصول التدريب واللوح .. ونظافة المعسكر واصلاحه وبناء بوابة

و .. وهو الغريب التوجيه المعنوى .

فى ذلك اليوم استدعاه القائد اغلق عليهما الباب بنفسه ثم اشار الى شانون قائلا — فى هذا الشمانون خطاب من قيادة الفرقة موقع بواسطة القائد نفسه يصدر فيه لى أمرا بتسليمك مهام ضابط توجيه معنـــوى .. الكتيبة ستتولى هذا العمل مع احتفاظى بهـــذه الورقة لتـــأمينى فى وقت الحـــاجة .

وكان سبب هذه التعليمات ان ضابط توجيه معنوى الفرقة عنـــدما حضر للتفتيش على ضابط الكتيبة وجده يقرا للجـــنود من كتاب التـــدريب وانقلبت ورقتان بدلا من واحدة فاستمر فى القراءة دون ان يشعر بفارق .

وسهر الرجال ليالى طويلة يرسمون ويحبرون ويخططـــون بالجـــير ويدهنون بالبوية .. وتم تجهيز كل شىء حتى من المكلف منهم باحضـــار المرطبات والثلج والجاتوه والشاى واللبن .. وانتظروا لجنة هيئة التدريب عندما استدعاهم قائد الكتيبة لاجتماع عاجل .

اكتسب وجه القائد بجدية من سيصدر أمرا بالقاء قنبلة ذرية .. وظل يتامل وجوههم .. ثم أمر جندى المراسلة بقفل الباب ومنع اى فـــرد من الاقتراب وبدا يتكلم بعد ان ضمن اهتمام الجميع وتشوقهم لســـــماع ما سـيقول .

قال : كلنا سمعنا خطبة الرئيس والتى قال فيها انه سيضرب مراكز العدوان فى السعودية .. لقد كان الرئيس جادا بعدما استنفذ كل الطرق السلمية كى لا يشتبك عربى باخيه العربى .

ولكن ارواحنا اهم من اى اعتبار اخوى والحرب هى الحرب لذلك عندما صرح بأنه سيقضى على قواعد العدوان كان ذلك هو الحل الوحيد.. وعليه ستتحرك فرقتنا لتعزيز قواتنا باليمن .. لم يحدد لها مهمة قتالية ولكنه امر انذارى بالتحرك .. ومهما كانت وجهة نظرنا الشخصية فى حرب

اليمن . اقول هذا لبعض منكم محدودين .. فسنؤدى دورنا هناك بدون تراخ . (ارفتع صوته ودق على المنضدة) .. ولن اسمح بقطرة دم واحدة تضيع هباء بسبب اهمال ضابط من الضباط ولهذا .

فها هي امامكم الفرصة .. من يقبل ان يحضر معنا على هذا الشرط ـ بشرفى لن اتنازل او ارحم ـ فاهلا .. ومن لا يريد .. فهناك قوائم لمن يطلبون السفر . كل ما اريده ان اعرف من يريد ان يسافر ومن لا يريد وبدأ يسألهم واحدا واحدا وافق الجميع عدا ضابطين حتى وصل الى صديقنا الذى قال .. لا .

اجاب الآخر باستفزاز .. بالذات انت ستذهب سواء وافقت ام ابيت .. لأننى اعرف سبب رفضك .

كانوا قد توتروا .. فقد اخفى الخبر عن الجميع حتى رئيس عملياته فوجىء به .. وكان قد قدمه بشكل درامى لم يتح لهم الفرصة للتفكير .

فى نهاية الاجتماع ساله احدهم والتفتيش يا فندم .

اجاب ـ مستمر وان كانت الأسبقية الأولى للأعداد للسفر .

نظر بعد ذلك لصديقنا وطلب منه الاجتماع بالصف والجنود .

انتشر الخبر سريعا بين الصف ضباط والجنود .. التفوا حول صديقنا يسالونه .. الذى كان يجيب بقدر معرفته .. وانفضوا من حوله حتى لم يبق منهم الا الرقيبان اللذان ساعداه فى مأمورية التسيمة وصف ضابطين آخرين تبعوه الى داخل مكتبه .

قال الرقيب الشاعر .. أرجو ان تعفينى من السفر لقد سافرت من قبل ومن نقود اليمن اشتريت منزلا فى الزقازيق حوله حديقة زرعتها بنفسى واريد أن أستمتع بها قبل أن أموت .

قال الرقيب الميكانيكى ـ انا اريد ان أسافر .. أريد أن اشترى قطعة أرض فى المطرية ، ابنى عليها منزلا ملكا ولا الحاجة للايجار .

قال الصف ضابط ـ المطرية لقد اصبحت مستعمرة عسكرية موقوفة على ضباط الصف العائدين من اليمن .

ضحك آخر قائلا ـ فعلا اذا مررت هناك ستجد الفوط الكاكى

معلقة ومنشورة بجوار الأوفرولات والشرابات وصنادل الجيش التى يلبسها هناك النساء والأطفال .

علق الميكانيكى ـــ لكن تفتكر حضرتك بدل السفر حيكفى .. الواحد يقعد قد أيه هناك علشان يبنى بيت .

وتغير روتين الحياة فى المنطقة التى تحتلها الفرقة .. تم نقل الضابطين الرافضين وحل محلهما آخران .. احدهما رئيس عمليات جديد للكتيبة .. واستكملت الكتيبة قوتها ـــ بحيث اصبحت كاملة مثلما درسوا فى كتب التكتيك ـــ بالراغبين فى السفر .. وتم تطعيمهم .. واعدوا كشوفا بالافراد والسلاح واستعدوا للسفر .

فى اليوم السابق للسفر تماما وكانوا قد سمحوا للجنود بيوم اذارى اى يستحمون ويغسلون ملابسهم ويحلقون شعورهم .. دخل الكتيبة سيكروباس غريب .. كان به السكرتير العسكرى لقائد الفرقة وطاقم من ادارة التوجيه المعنوى .

استدعوا صديقنا .. تعرف عليهم .. اعتذر له السكرتير العسكرى بانه لم يكن مخططا المرور عليهم ولكن سيادة اللواء امر بالمرور عليهم ليشاهد مندوبو الادارة فصل التوجيه المعنوى الذى اعده صديقنا .

علق احد افراد الطاقم .. ليس الفصل فقط ولكن أيضا للتعرف على تجربتكم فى التوجيه المعنوى .

اعتذر صديقنا بأن الجنود يستعدون للسفر ولذلك فسيجدهم فى الحمام او يغسلون ملابسهم .

أصر الآخر ثم نادى على بعض الجنود دون ترتيب كيفما اتفق .. حضروا بملابسهم الداخلية او بأجزاء من اوفرولاتهم .

وقف بينهم يخطب .. احنا دلوقت مسافرين لليمن .. كل واحد حياخد بدل سفر .. ماذا ستفعل بالنقود .. ؟؟

رد أحد الجنود ـــ ساشترى بقرة او اشارك على فحل .

ـــ كويس .

رد آخر ـــ ساشترى قطعة ارض صغيرة لو كانت النقود كافية .

— .. ..

ـ سأضعها فى البوسطة .

— .. ..

— سأرسل أمى وأبى للحجاز .

— .. ..

— حفتح محل بقالة فى بلدنا .

— عظيم جدا يعنى مش حتشرب حشيش — مش حتتجوز واحدة تانية .. مش .

وهنا رفع أحد الجنود يده معترضا .

— تسمح يافندى احنا رايحين اليمن علشان نؤدى واجب علينا مش علشان الفلوس .

— ضحك المفتش وكأنما تذكر فجأة انهم فى اليمن لأداء واجب .

ثم علق — عظيم هذه هى الأجابة التى اريدها .. ثم كرر عظيم متشكرين يا سيادة النقيب بالتوفيق انشاء الله .

هبطت الطائرة فى مطار الغردقة .. حملا حقيبتيهما ووضعاهما امام الأتوبيس الذى سيحملهما الى القرية .. لقد كانا فى طريقهما الى مجاويش اقضاء اربعة ايام لقد سقط فى حبائلها .. اطبقت كفيها عليه .. اتحدا على حد قولها .. وكانت رحلتهما لمجاويش الخطوة التى تبدأ بها رحلة الالف ميل الى جزر الباهاما والريفيرا .. وحياة أصحاب الملايين .. لقد خططت لكل شيىء .. كانت فى حاجة الى شخص فنى تثق فيه ويرتبط بهـا .. واجهة .. فهم لن يقبلوها لأنها سكرتيرتهم .. و .. وهم لن يعترفوا بها.

وكان هو .. لقد اكتسب ثقتهم فى بداية تعامله معهم بعد أن أعد دراسة العطاء الذى تعرفوا عن طريقه به .. وضخمت هى دوره حتى لقد تصوروا انهم لن يستطيعوا الاستمرار فى السوق المصرية الا اذا تحالف معهم .. وهى التى أوصلت العلاقة بينهم وبين الشريك المصرى السابق الى أسوأ حالاتها .. ثم هى التى رشحته لهم .. وبدون أن يشعروا انها تدفعهم فى اتجاهه .. وهى التى سهلت التعاقد معه .. لقد قالت لصديقتها ولماذا فعلت بالأغنياء ؟ لقد حاولوا غشك .. أختر شابا طموحا يرضى بالقليل .. ثم بعد ذلك هى التى سممت الآبار خلفه .. لقد نفخت فى النار حتى توهجت المناقشات بينه وبين الأنجليزى ذى النفوذ على الشركة

الأمريكية .. كانت تريده أن يعتمد عليهــا منفردة وان يقطع كل صــلاته بالآخرين الا من خلالها لتتحكم فى العلاقة وهى التى أوحت لصاحب الشركة بارسال خطابه الحاد له .

لقد اصبح عجينة طيعة بين يديها الآن .. استخدمت طريقــة ذهب المعز وسيفه انه سيخاف على دخله وسيهتم بمستقبله .. سيخاف .. سيلجأ لها .. وكانت اللحظة المناسبة لمداعبة عواطفه .. لقد ظلمها طليقها لقد قطفها مبكرا .. لقد عبث بنقائها .. ثم أمنت غيرته .. فهو يعــلم انها صديقة العجوز الأمريكى وهو يعرف أيضا انها كانت صديقة لاكثر من امريكى أو اوروبى مروا عليها . وغرق صديقنا فى بحيرة وحل الانفتاح .. الى آخر شعرة فى رأسه .

ان الصراع الاستهلاكى والدور الذى أوحت اليه به اجهزة الدعاية جعله فى حاجة دائمة لدخل متزايد .. وهى بوابة الجنة .. لن يستطيع ان يخطو خطوة واحدة للداخل بدونها حتى لو عرف ماضيها وحاضرها وايضا مستقبلها . تحرك الاتوبيس تجاه القرية السياحية .. استقبلوهم بالتهليل مجاويش ..مجاويش .. عشرات من الشباب والشابات فى ملابس غريبة والحرية تقفز من عيونهم .. كان للمكان سحر خاص على شرقى لا يعرف الا الكبت والخوف .

كان مدير القــرية .. يقول هنا جزيرة الحرية .. هنا تستطيع أن تفعل ما تشاء اخلعوا ملابسكم ومشاكلكم .. وساعدونا على أن نجعلكم تستمتعون .

كانت تحتضنه تقبله بعينيها .. تضغط على ظهره بصدرها .. وهما متجهان الى عشتهما .

لقد اعدت كل شيىء .. لقد استسلم لضغوطها .. لقد قال لهــا احبك .. لقد اكتشفت أن تجربته مع النساء مسطحة .. انها قادرة على تحريكه وفق هواها انها تشعر به وبسذاجته وهو يقبلها وكانت تتعمد أن تعلمه مع كل قبلة جديدا .كانت تتقن اثارة اللهب فى دمه وجســده .. ثم تتركه ليتعذب ولتبتز موافقاته . لقد اتفق معها على أن يترك لها ادارة دفة علاقته مع أولاد العم سام ستتحدث باسمه .. وســتتفاوض ايضــا باسمه .

لقد اتفق على أن يتحالف معها .. على ان يصبح البديل لاصدقائها

اثناء غيابهم وان يصبح زميلها او رئيسها او شريكها حسب الموقف اثنـــاء وجودهم وكانت تخطط لأولى ضرباتها عندما قادته لهذا المكان .

ان مجاويش تبدو كما لو كانت قد اعدت فعلا لهذا الغرض .. لافواء فرد ما الآخر .

كانت تقف معه فى حوض الاستحمام الضيق وهما عاريان تدلك له جسده بشامبو خاص بالاستحمام .. وتضغط على أماكن محددة من جسده تعرف جيدا يداها الطرق اليها وتعرف ايضا تأثيرها عليه .

رقد على السرير عاريا على وجهه . كانت تدلكه بلسيون مخصص للمساج وتغطى اجزاء من جسده بكريمات مخصصة لترطيب الجلد الجاف .

وتسللت شفاتها تعبر من رقبته لصدره لبطنه حتى اكتملـت ملامح فيلم بورنو من الافلام الشـائع مشاهدتها فى العصر الانفتاحى .

واصبح عبدا لها .. سيطرت عليه الحاجة والانتهازية والشـهوة لقد اصبح ناضجا للخطوة التالية .

ما رايك .. هناك بضائع تم ادخالها لمصر معفـاة من الجمـارك لاستخدامها فى مشروعنا .. !!

لو اننا بعناها فى السوق المحلى فيمكننا ان نكسب حوالى المائة الف .

لقد اعددت كل شيء .. المواد تم استهلاكها ورقيـا وتم تجنيبهـا ولكننى لا أعرف لمن ابيعها .. انها اول مائة الف فى او لمليون يا حبيبى .

الفصـــل الثـــانى عشر

.. القطار يتحرك بهم .. على الجانبين ارض خضراء مزروعة بمحاصيل لا يستطيع تمييزها . الشمس تميل للغروب .. ولكنها لم تغرب بعد .

اشعتها التى فقدت حرارتها تلقى بظلال على النخيل العالى .

بخلفية الصورة بقرات ترعى فى سلام .. فلاح ينظر للقطار المحمل بالجنود ويرفع ذراعيه لأعلى بالدعاء .

وهاجمته أغنية ياحبايب بالسلامة .. رحتم ورجعتم لنا بالسلامة .. يا حبايب بالسلامة .. يا حبايب بالسلامة .

كان يهرب بالحلم (كما هى عادته) من الحقيقة عندما يجد نفسه فى موقف لا يستطيع مقاومته .. كانت الأغنية توحى له بانه ذهب الى هناك وعاد . لقد كان مسافرا مضطرا لأن قائده امره بذلك من خلال الوحدة والصراع الدائمين بينهما .. كان يحاول ان يبدو أمام نفسه كما لو كان ضحية .. وظهرت على قشرة شعوره كلمات والده .. قد تستطيع أن تضحك على العالم كله ما عدا نفسك فعلا ليس تنفيذ أمر قائده فقط الذى جعله جالسا فى هذا القطار المتحرك الى الأدبية .. انها شهوة المعرفة التجربة .. المغامرة .. التى لا يمل منها ابدا لقد استسلم لأنه يريد أن يخوض التجربة .. حتى ولو كان سيدفع حياته ثمنا لها .. ان موته شيىء قائم .. وموتهم جميعا قائم ايضا .. انها مجرد رصاصة مجهولة يطلقها يمنى غيور على حرية وطنه وهو مقتنع انه يقف الى جانب الحق والعدل والشرف .. ان موتهم جميعا قائم .. ان موتهم جميعا قائم .. وظل يتأمل الوجوه المبتسمة والضاحكة .. ان هناك قوة أخرى اعمتهم عن الحقيقة المعلقة فوق رؤوسهم . المال والسلع الاستهلاكية .. وفرحة الزوجة

والأطفال .. وصار يتلو « يأيها الذين امنوا أن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروه » ... وهكذا ذاتها الانثى هى السبب .. هى التى أخرجتهم من الجنة .. وهى الناقصة عقلا ودينا .. وهى التى تدفعهم للصرع الاستهلاكى .. وتنبه الى انه لم تكن له علاقة ما بأنثى حتى ذلك الوقت لا صديقة ولا حبيبة ولا زوجة .. انها أمه .. وأخته فقط .

أن اخته لا يمكن ان تكون ناقصة العقل .. ولا يمكن أن تكون عدوة له .. انه حياتها .. حبها .. وشعر بالخوف عليها .. وود لو عاد ليودعها ثانيا لقد كانت تبكى وهو يستعد للسفر .. كانت تخاف عليه .. ماذا ستفعل لو مات .. وبكى .

الشمس اختفت لم يلحظ اختفاءها .. ولكنه شعر بانقباض يملأ نفسه وعقله والحت عليه الأغنية .. يا حبايب بالسلامة .. رحتم ورجعتم لنا بالسلامة .

وكان الجنود فى العربات الخلفية يغنون .. ولا حاطط رجلى فى الميه الا ومعايا عدوية .. وانتقلوا من القطار الى الباخرة .. وتحركت الى وسط البحر .. الأرض تبتعد .. تختفى وهو يجلس فوق كرسى بحر يراقبها ... ويبكى .

قد يهون العمر الا ساعة .. وتهون الأرض الا موضعا .. وهمس لنفسه .. يا حبيبتى يا مصر .

زميل يناديه .. لقد وزعوا عليهم علب سجائر .. يأخذ علبته منه .. يسأله وماذا ستفعل بعلبتك .. انت لا تدخن .

يرد الآخر ببساطة — سأدخن اعتبارا من اليوم .

يبتسم صديقنا — لقد بدأت التغييرات .

الجنود يتشاجرون على ظهر المركب .

رقيب أول جديد على الكتيبة يقول ان أحد الجنود أضاع سونكى .

ضابط آخر يجمع الجنود ويتمم على سلاحهم .

ضابط من الضباط الجدد يعنف الجندى — اسرق واحد بداله يابن الكلب .. أنت عيل .

فوضى شديدة فوق الباخرة .. كما لو كانوا فى رحلة الى القناطر الخيرية .

لا يمكن أن يكونوا مقدمة الفرقة الذاهبة لتدعيم القوات لضرب مراكز العدوان بالسعودية انهم فى حرب .. وهناك احتمال لقصف الباخرة .. سواء بالطائرات أو التدمير او زوارق الطوربيد .. ان أعداءهم كثيرون .
السعودية واليمن واسرائيل .. وتدعمهم امريكا .

يقولون أن هناك خبراء بلجيك وفرنسيين وهولنديين واسرائيليين يوجهون القوات اليمنية ويحاربون معهم .. ولم يرعبه الا عجزه عن النجاة

ان فرصة نجاته ضعيفة .. واستسلم للقضاء .. لقد قال لهم المقدم الذى قابله فى سيناء .. « أنتم الوقود » .. الكابينة شديدة الحرارة ولا يستطيع أن ينام دقات الجرس تعلن عن العشاء .. عشاء متأخر .. والجنود يوزعون عليهم الطعام فى اذانات .. ينامون على سطح المركب الحر يزداد .. يتخففون من ملابسهم .. فى البداية الجنود العائدون من اجازاتهم .. ثم يقلدهم الآخرون بعضهم سافر أربع وخمس مرات .

فالضباط يسافرون بالطائرة والجنود بالمركب .. نصف الأجازة تضيع فى السفر يحاول ان يسترخى .. ان يستمتع بالبحر .. فقد تكون آخر فرصة له للراحة .

يقرا كتابا .. يتأمل الأمواج .

فى الصالون برتيتة بوكر .. يلعبون على السجائر فالنقود لا تستخدم فى هذا المكان افطار — غذاء — عشاء — حر — نوم .. مشاكل الجنود .. الحديث لا ينتهى عن بضائع اليمن .. خاصة مع المخضرمين .. هل معك دولارات .. هل معك استرلينى ما هو الأفضل .. ؟؟ ما هو آخر سعر لهما .. المعدات الكهربائية السجاد رخيص جدا .

باخرة تمر جوارهم .. البحارة يحيونها بأشارات خاصة .. ضابط بحرى صغير يفسر له .. لابد من تحيتها فالمفروض اننا باخرة مدنية وليست عسكرية .. يكملان حديثهما .

سافر الى انجلترا وهولندا وايطاليا والهند واليابان .. رحلته التالية الى استراليا وامريكا .

ويشعر بالحسد تجاهه .. انها شهوة المعرفة التى تقوده دائما ..

وهو قد يعيش ويموت ولا يرى هذه البلاد .. ففى وطنه اجراءات السفر فى منتهى الصعوبة وتحويل العملة أكثر صعوبة وبالنسبة للعسكريين تصل الأمور الى درجة الاستحالة .

حياتهم لذيذة .. لغير المتزوج .. فى كل ميناء يجد عديدا من الزوجات فى استقباله يختار منهن من يشاء .

يحب بنت فى مدرسة الليسيه .. يحضر لها من كل ميناء هدية .. الستات خائنين .. لابد ان تثق فيهن قبل ان ترتبط بهن خصوصا فى مهنتنا اكثر من الضباط .

البنت المودرن هى اكثر بنت تثق فيها .. لأنها جربت وعرفت وفهمت واختارت وهى تحكم عقلها وقلبها .. لا يمكن الضحك عليها .. البنت التقليدية سهلة الانحراف .. يمكن اغواءها بسهولة .

البحارة يتقنون البوكر .. لنا أساطير معه .. أحاول ان اقرا .. احضر من كل بلد كتابا واسطوانة ولوحة وعروسة .

اخلق الفرص لكى ازور المتاحف .. بعض المدن عبارة عن متحف روما وفلورنسا وتمنى صديقنا ان يكون بحارا .. كان ينظر له باعجاب .. جعل الآخر يسترسل البحر الأحمر هادىء .. لاحظ سمك القرش ..لايخاف الا من الدرافيل يلتف حول المراكب ليعيش على الفضلات آه لو واحد سقط بينها .

وتنبه صديقنا على كوابيسه بخصوص ضرب الباخرة .. سيتحول جسده الى غذاء يكون عضلات هذه القرش .

وصلوا الحديدة .. الباخرة تناور للدخول للميناء .. الصفارات ترحب بهم لقد اصبحوا فى اليمن .. !!

خرجا من البحر .. كان يجرى خلفها محاولا اللحاق بها .. وكانت ترتدى مايوه بكيني بلون جلد النمر .. خلعت نصفه الأعلى تشبها بالاوربيات حولها فبرز ثدياها المتكوران الأسمران بتجاعيدهما الخفيفة التى بدات تزحف عليهما مع الزمن .

رقد بجوارها بدون تجفيف الماء العالق بجسده .. سحبت البشكير المعلق ثم بدات فى ازالة قطرات الماء . .ودهن جسمه بالزيو ت.

كان يستمتع بلمسات اصابعها الباردة لجسده الملتهب ويكبح خيالاته التى كانت تتعجل رجوعهما الى عشهما .

قالت بلبونة .. ها .. ما رايك يا بابا .. !!

كان قد نسى حديث البارحة .. او تناساه .

فسألها .. رايى فى ايه .. !!

ردت بحزم لا يتناسب مع التدليل الذى تدلله له .

فى البضائع .

سكت قليلا .. ثم اجاب مترددا خوفا على طرده من جنتها .

ـ احنا حنشتغل حرامية على اخر الزمن .

ردت باستخفاف ـ مين قال اننا حنسرق .. انا متفقة معاهم .. المواد قيمتها نصف مليون جنيه بدون جمارك .. باضافة الجمارك والرسوم ستصبح مليونا اذا تدرنا نبيعها بسبعمائة وخمسين الفا .. فسيكون نصيبنا مائة الف .

سألها : وهل يعرفون اننى سأشترك معك ؟

ردت بخبث ـ لا .. ثم اردفت .. حتى الآن .

كان من الواضح ان الأمر يتصل بسرقة الحكومة المصرية بعد ان كان متصورا انهما سيسرقان الأمريكيين والمصريين .

ـ ولكن غير مسموح ببيع بضائع مستوردة لحساب مشروع معفى جمركيا فى السوق المحلى .

ردت باستهزاء ـ واذا كان مسموحا فما فائدتنا .. ليه ندفع للحكومة هى بتعمل لنا ايه .. شوارع مكسرة .. وتليفونات تلفانة .. وتذاكرة .. وهم نفسهم بيترشوا . .كان ممكن الأمريكان يدفعوا الميت الف دى نفسها لهم وياخذوا شهادة اخراج جمركى سليمة مية فى المية لكن انا اللى عرضت عليهم أهى نواية تسند زير .

كان يعجب من منطقها .. فهو له فلسفته المتكاملة ولكن من اين لها بهذه الأمثلة والتعبيرات .

حاول مداعبتها ـ ياه دى انت بقيتى بلدى قوى .. ايه النواية دى .. !!
ردت المداعبة بمثلها ـ البركة فى مسلسلات التليفزيون .

تصورت انها قد اقنعته وانتهى دورها ولم تعاود سؤاله .. الصقت صدرها العارى فى ظهره وتركت الأجساد تكمل الحديث .

كان قائد الكتيبة فى انتظارهم بالميناء .. لقد سافر بالطائرة توفيرا للوقت وللأعداد لاستقبالهم .

كان يرتدى شورت وقميصا نصف، كم بدون ياقة كاكى وصندل جلد بنى مثل الآخرين الذين يحيطونه .. تجمع الجنود فى صفوف .. بأسلحتهم كاملة بعد أن عوضوا السونكى الضائع .. الضابط قائد المقدمة يحى قائد الكتيبة معلنا أن الجنود والسلاح كامل .. فيما يقال عنه (تمام)

قائد الكتيبة يعانق الضباط .. صديقنا يركب بجواره عربته الجيب التى يقودها بنفسه .. يشرح له ملاحظاته .

استلمنا مكان كتيبة المهندسين السابقة .. معسكر كئيب يبعد عن البحر حوالى نصف كيلو متر .. ثم يهمس سأحاول أن ننتقل الى معسكر على شاطىء البحر مباشرة .. اذا كان لابد ان نعيش هنا فليكن فى مكان مناسب .

يتحركون على طريق ممتاز .. يعلق القائد لقد انشاه الصينيون .

ثم يهمس ـــ عندما ذهب المهندس يطلب من الامام قيمته امر باعدامه قائلا :

لقد سودت أرض الله يا كافر .. !!

عندما تصور ان صديقنا لم يصدقه .. اكمل : ولقد انشاوا له نصبا تذكاريا على الطريق ..

الوجوه سمراء .. اقرب الى السواد .. الأجساد هزيلة .. وهم يرتدون الجلباب الأبيض وحفاة ويضعون فوق رؤوسهم طربوش قش مخروطى واكثر ارتفاعا من الطربوش العادى مبانى من دورين او ثلاثة لها طابع مخالف لباقى الأماكن المحيطة .. انها مساكن الروس .

يعلق قائد الكتيبة .. لقد تنازلوا لنا عن عمارتين منها لقيادة الفرقة .

الحر شديد والرطوبة عالية يشعر ان الأفرول يخنقه .. عربات ذيل جديدة تتبعهم بها الجنود .

ضباط كتيبة المهندسين الذين سيتسلمون منهم المعسكر يرحبون بهم، قائدهم فى صنعاء يتلقى أوامر الانتقال .

أسماء كثيرة وضباط كثيرون .. ينادى بعضهم بعضا برتبهم ووظائفهم، أحدهم كون علاقة سريعة بصديقنا لقد كان ودودا مرحا .

ـ سأنام هنا حتى الصباح .. سأطير باكر الى قفل حرض .

كان يتكلم كما لو كانت قفل حرض هذه لندن او باريس يجب أن يعرفها الآخرون عندما تنبه الى أن صديقنا مستجد .. بدأ يشرح له .

نحن نتحرك على محورين .. احدهما حوله معظم المشاكل وهو طريق الحديدة صنعاء ويخترق وسط اليمن .. والآخر الساحلى يبدا من الحديدة وينتهى فى ميدى على حدود السعودية مارا بوادى مور ووادى عبس وحرض وميدى هذه المنطقة هادئة الا فى جزء واحد وحول الحديدة نفسها طريق الحديدة صنعاء اسفلتى ممتاز وغريب .. تبداه لابسا شورت وقميصا نصف كم وتنتهى لابسا أفرول وفانلة ضرب نار وبالطو .. يتراوح بين جهنم والقطب .. اما الساحل الشمالى فهو طريق ترابى مزعج .. لذلك نفضل السفر بالطائرة .

ثم قام وأحضر وعاء اسطوانيا بلاستيك غريب قدمه لصديقنا مداعبا .. تفتكر ايه ده .. !!

احتار الآخر .

ضحك بطفولة وشقاوة ثم قال : ترموس .. اتمدنوا بقه .. وبدأ يحلم .

الواحد يملؤه ثلجا .. ومعه الراديو والريكوردر الترانسنور ويرقد تحت الشمسية فى السويس يقرا الجرايد والمجلات .

ثم علق بود .

انا من السويس يا عمى .. الواحد عايز يتجوز ينام فى حضن العروسة ويعوض ايام الشقاوة .. كان يقول هذا ويضرب بقبضته دولابا صاجا بجواره ..

ـ وما الذى يمنعك .. !!

ـ لا يريدون الاستغناء عنى .. ثم همس .. أصل أخوك فنان فى البوبى تراب .

اهتم صديقنا بفهم معنى الكلمة .

ـ نحن اى المخابرات وأنا نصنع شراكا خداعية على هيئة طرود ـ زمزمية علب كمبوت ـ قلم حبر ـ علبة شيكولاته .. يأخذها العملاء ويتركونها فى السعودية وهناك تنفجر باسم هيئة تحرير الشعب السعودى.

هذا ايضا ما نقوم به فى عدن .. المركزان اللى تقود منهما المخابرات

العملية وينجهز فيهما الاشراك هما ميدى وحرض .. وانا يا سيدى مسئول حرض .

كان يتكلم ببساطة غريبة عن طرود الموت وبنفس الطريقة التى يتكلم بها عن العروس والشمسية والريكوردر .

ولم يحتمل صديقنا استمرار مناقشته أو النظر اليـه ... ان الأمر بالنسبة له عمل وبالنسبة لصديقنا أطفـال وسيدات ومدنيون يقتلون ويشـوهون .. !!

احتفلوا بقدومهم فذبحوا معزة .. وتناولوا الغذاء على دفعتين فتة بالخل والثوم مع لحم مسلوق ومحمر .. ثم ارتدى كل منهم مايوه .. والى البحر .

عندما توقفت العربة ونزل من صندوقها الخلفى .. وقف مشدوها .. لقد كان على البلاج مجموعة من الحوريات البيضاوات ذوات الشـعر الأصفر .. يلعبن فى المـاء وعلى الشاطىء كرة طائرة ويصحن بأصوات غريبة .

ضحك احد القدامى ثم لكزه .. انه بلاج الروس .. بعد ذلك حذره من التعامل معهم او الاقتراب .. هذه تعليمات المخابرات .

ثم أردف لينصحه : فأحد الصف ضباط نزل خلفهن الى المـاء وعض واحدة منهن قبضوا عليه وسلموه للقيادة .. ورغم ان الروسية تنازلت عن الشكوى .. وقبلت اعتذاره الا انه عزل الى رتبة عريف وتم ترحيله من اليمن .

المـاء ممتلىء بالأملاح وغـير مستسـاغ والكمبوت يزيد العطش وصديقنا يصاب بمغص واسهال حاد .

الطبيب يطمئنه:لا تخف مجرد تسمم .. لكن بكرة معدتك ستتعود على اكل اليمن .. تتناول ٤ حبات انتروفيوفورم و٤ حبات سلفا .

عندما أعترض على الجرعة

ضحك الآخر قائلا : ياباشمهندس انا عارف اليمن .. كل حاجة هنا بتتقلب نصحه بان يغطى نفسه ليلا رغم الحرارة الشديدة والا سيتعرض للرطوبة .

فى نهاية اليوم تسلم خمسة عشر ريالا سلفة من بدل السفر .

استلموا مقر الكتيبة ومهماتها ومعداتها وعرباتها من ضباط الكتيبة الراحلة بعد عناء ومناروات وسخافات وصلت الى حد النصب فى بعض الأحيان .

فقد كان الآخرون معذورين فعليهم تسوية عهدتهم قبل سفرهم والا ستخصم من مرتباتهم .

كان احدهم يقول لن يرى النقص فى العهدة الا آخر واحد يسلم الجيش ويضحك مبررا العجز فى بعض الأصناف والمهمات .

وسعى قائد الكتيبة لدى قائد ورئيس اركان الفرقة حتى صرحا له بانشاء معسكر جديد لكتيبته على البحر بجوار شاطىء الروس . وبالطبع اصبح صديقنا المسئول عن اقامته وتجهيزه .

اعد صديقنا رسما تخطيطيا للمعسكر .. مكان لخيام الجنود فى طرفه الجنوبى .. وآخر لخيام الضباط فى طرفه الشمالى .. ومطبخ مبنى للجنود وآخر للضباط وخيمتان متصلتان فى وسط البحر تستخدمان كمطعم للضباط بحيث يتناولون طعامهم وحولهم الماء من كل جانب .. ثم مكاتب الضباط وارض التدريب بها خيمة هندى ضخمة وسور له بوابة ثم عبر الطريق مكان للمعدات والحملة ابعد ما يمكن عن البحر .

رسم مسقطين اثنين مقترحين .. اختار القائد واحدا منهما . صدق عليه قائد الفرقة وبدأ التنفيذ .

توجهوا للموقع صديقنا والبلدوزر ومجموعة جنود معهم ادوات حفر كواريك وازم وتجارى ورقيب سباك .

سعى القائد لدى الاشتغال حتى حصل على ادبخانات جديدة .. صرفوها وشونوها فى الموقع .. وفشل فى الحصول على زوايا حديد واسلاك لتسوير الكتيبة سوى البلدوزر الموقع .. حفروا اماكن دورات المياه والمطابخ .

كانت الحرارة تزداد كلما توغلوا فى النهار .. وشعر الرقيب السباك بدوخة كان رقيبا متطوعا كبير السن له زوجتان وعشرة أبناء .. وكان فى مصر يعمل فى تركيب اطقم الصحى وسباكة العمارات الجديدة بعد الظهر .. وكان يامل ان يكفيه بدل السفر عن العمل بعد المواعيد الرسمية ولكن ضربة الشمس اللعينة جعلته يخرف .. فارسله صديقنا الى المستشفى للعلاج .. الذى جعله يتناول اقراصا من الملح .. لتعويض الفاقد منه من العرق الغزير .

فى المساء طلبه القائد قال له انه اثناء تجواله وجد سورا حديديا يحيط ارض فراغ كانت ستستخدم كمعسكر لتدريب الجنود المستجدين ولكن الفيت

الفكرة وبقى السور بدون صاحب .. وطلب منه ارسال فصيلة من الأولاد الجدعان لفك السور وسرقته وتركيبه حول المقر الجديد .

وفعلا فى المساء أزالا جانبين من السور وركباهما حول المعسكر .. احتاجوا بعد ذلك لعدد قليل اضافى .. عندما ذهب عريف لاحضارها قبض عليه جنود كتيبة المدرعات المجاورة للمكان وارسلوا لهم اشارة لاستلام اللص .

سلمه القائد الاشارة موبخا اياه لأنه أرسل عريفا لخمة سيجعلهم يواجهون س و ج .

فى الصباح ذهب صديقنا لكتيبة المدرعات وكانت منشأة فى مكان قريب من البحر .. كانت واسعة ونظيفة ولها طابع مميز اذ لصقوا كل خيمتين معا وفرشوهما الواحا خشبية .. وكونوا ميز الضباط من اربع خيام منصوبة اعلى من منسوب الأرض الطبيعية .. واسفلها مناضد مغطاة بمفارش نظيفة وثلاجة ايديال ١٠ قدم ومبرد مياه .

كانوا يتناولون افطارهم بيضا وبسطرمة ومربة بالزبدة والقشدة .. وفول مدمس لونه احمر يتصاعد منه البخار ومحاط بكمية كبيرة من الزيت والليمون وانواع من المخللات فى علب جروبى .

مكان جميل وطعام شهى معد بذوق .. كان حول المائدة مجموعة من الشباب حليقى الذقون بملابسهم المدنية بحيث يصعب تمييز رتبهم .. كأنهم يقضون أجازتهم على شاطىء المعمورة .. كانت تفوح فى المكان رائحة الأولد سبايس وعلى مناضد صغيرة محاطة بكراسى فوتى كانت مجلات الشبكة والموعد .

فى ركن آخر كراسى بلاج ملونة واكثر من شمسية شاطىء مغلقة .

استقبله قائد الكتيبة بابتسامة مرحبة .. اهلا يا باشمهندس .. ولازم تفطر نسرة فطار ياولد .. انتم جيتم امتى .. ألحمد لله عى السلامة .. وهل حصلتم على تصديق بانشاء معسكر على البحر .. احنا دخنا على بال م وافقوا لنا على مكان معسكرنا .. ومش على البحر زيكم .

الحياة حلوة هنا بس العرق والحر .. تصور الواحد بيعرق تحت الدش ها .. ها ثم احضروا التمر هندى المثلج .

جاملهم صديقنا : كتيبة ممتازة واضح ان رئيس الشئون الادارية شاطر .

فهبوا جميعا .. لا يا سيدى المدرعات طول عمرها كدة .

ــ لنا والله يا فندم عريف عندكم .

ــ ايوه يا سيدى جينا للجد .. أولا السور ده سور الأشغال .. احنا حقيقى مش مستلميه لكن متحفظين عليه من طرفهم .. لاحظنا امس ان السور نقص فعملنا كمينا وقع فيه عريفكم .. فى الحقيقة احنا خفنا ليكونوا يمنين علشان كدة بلغنا المخابرات .. لكن مادام فى بيتها .. سيادتك بس تحضر ورقة صغيرة من الأشغال بالسماح لكم بأخذ السور وتضيفه على عهدتكم وتنتهى المشكلة رد صديقنا : متشكر قوى يافندم .. على القطار العظيم وعلى الذوق .. الحقيقة الكتيبة مش معقولة .. الكتاب بيان من عنوانه يافندم .. ممكن ولو فيها رذالة أخذ العريف بتاعنا .

ــ بالطبع .. بالطبع تحت أمرك .. ياولد وصل الباشمهندس لغاية السجن وطلعوا العريف وخليه يستلمه .. مع السلامة .. مع السلامة يا باشمهندس .

أصبح صديقنا فى موقف لا يحسد عليه لقد سرقوا السور فعلا ويمكن محاكمتهم والأمر متوقف على موافقة سيادة الرائد الباشمهندس مدير الاشغال .. وهو ذو سطوة غريبة فهو المتحكم فى الاسوار والادبخانات وغطاطيس المياه والثلاجات والمراوح والأهم من ذلك اجهزة التكييف .. واصلاحها .

والقادة يعاملون باحترام مبالغ فيه ليضمن لهم على الأقل الا يمر يوم بدون تكييف .. اذا عطل الجهاز .

وقرر ان يخوض التجربة .

ــ صباح الخير يا فندم .

ــ ...... الآخر لا يرد .

جلس واضعا ساقا فوق الأخرى .. ثم ساله برزالة .

ــ أنا شفت سيادتك فين قبل كدة .

رفع الآخر رأسه وتوقف عن قراءة الأوراق التى امامه .

ــ سيادتك عايز حاجة .

ــ انا نقيب مهندس من الكتيبة الجديدة .

مش القائد بتاعكم الأسمر الطويل ده .

ــ اه يا فندم ولقد طلب من سيادتك سورا لم يكن متوفرا فى المخازن ولكننـــا وجدنا سورا حـــول منطقة العزل فأخـــذنا ضلعين منه وأنشأنا سور الكتيبة .

سكت لثوانى ثم أكمل .

هذا بلاغ لسيادتك للعلم لتعرف اين ذهب السور .

ووقف ليستأذن .. ثار الآخر .

ــ هو شغل فتونة .. ايه يا فندى اللى يخليك تسرق السور أنا حبلغ قائد القوات .

ــ أولا انا مش افندى .. اسمى النقيب .. ثم احنا مسرقناش .. بدليل اننى ابلغك .. وبعدين احنا مش حرامية علشان تقول تسرق . كل الحكاية حولت سور غير مستخدم لسور مستخدم .

رق صوت مهندس الأشغال بعد ان تصور انه فى ورطة .. كان همه تقفيل مستندات العهدة .

ــ والحل .. سيادتك تستلم السور كله .. ويضاف لعهدتك ثم تأخذ الجـــزء المطلـــوب وتعيد الزائد .. ننزله من عهدتك كارتجاع عادى .. والا حبلغ المخابرات .. تفكوا السور وتنقلوه برجالتكم وعرباتكم .

كاد قلبه ان يقفز فرحا .. لقد بلع الآخر الطعم .

ــ حاضر يا فندم .. احنا تحت أمر سيادتك .. أنا جاى انفذ الأوامر حبعت لسيادتك رئيس الشئون الادارية ومعه المستندات .. بس سيادتك تكتب لى ورقة صغيرة بالسماح لنا بأخذ السور .

ــ اتفضل يا سيدى وادى الورقة .. انت تقرب لسيادة اللواء قائد القوات .

ــ آه من قال لسيادتك (وكان يكذب بالطبع) .

ــ الشبه واضح .

ثم وقف ليودعه .. ومع السلامة يا باشمهندس .

اخذ التصريح وجرى الى المخابرات .. ولم يجد الا عريفا يلبس ملابس مدنية كان يعرفه فقد عمل معه فى مكتب امن الفرقة عندما كان صديقنا ضابط أمن وحدته .

رحب به .. وعندما قرأ التصريح وعرف الموضوع شطب على الاشارة قبل ان يعرضها وانتهت القضية .

عندما قص ما حدث على قائد الكتيبة علق :

— برافو .. خلاص متسألش فى بتاع الأشغال .. احنا نلم السور ونركبه فى الكتيبة .. وهو يجرى ورانا علشان المستندات وبالمرة ناخذ مقابلها شيئا .

الفصـــل الثـــالث عشر

انطلقت موسيقى « الديسكو كلاسيك » بافتتـــاحية السيمـــفونية الخامسة لبتهوفن .. ثم اعقبها دقات وارتام متتالية .

فتنبه كل الموجودين بالقاعة الواسعة .. كان معناها ان خبرا ما أو لعبة ما ستحدث .

كان يلعبان اسكرابل .. وكان رصيده أعلى من رصـــيدها ان ذلك يضايقها فهي أقوى منه في اللغة الانجليزية .. وهي متمرسة على اللعب مــع اصدقائها الأمريكيين .. ووجدتها فرصة لكي تتخلص من هزيمة نهائية واضحة ابعدت اللوحة .. ثم نظرت تجاه المسرح .

تضـايق .. فهو لم يتخلص من عادة ان يكون الأول دائما .. شعرت بذلك فحاولت أن تراضيه لعبث في شعر رأسـه .. كانت تعلم نقاط ضعفه جيدا وكيف كان يستسلم لأصابع والدته وهي تداعب فروة راسـه بعد خروجه من الحمام .

جذبته من يده ليقفا امام المسرح يتابعان لعبة جديدة .

كانت ترتدي بنطلون اسود ستان وبلوزة بيضاء تظهر صدرها وعنقها وظهرها الذي تزينه بعقد لؤلؤ أبيض .

كانت متسقة تماما مع الجو المحيط فمعظم الرواد أوربيون قادمون من انحاء شتى لقضاء اسبوع على ضفاف البحر الاحمر .. أو مصريون .. تخلصوا من جلدهم ولبسوا جلودا مستوردة .

كانت اللغة السائدة الفرنسية أو الانجليزية .. وكانت قد بدأت حوارا مع امريكي شاب تسأله عما فاتهما من اللعبة .

ودوت مقدمة السيمفونية الخامسة ثانيـــا .. أعلن المذيع ان موعد العشاء قـــد حان .

وتدفقوا الى المطعم .. كان العاملون الأجانب قد جهزوا لهم مفاجاة ارتدوا ملابس من العصور الوسطى .. ووقفوا يرحبون بهم .

جلسا حول منضدة مستديرة وشاركهما خمس آخرون .. الامريكى الذى بدأت معه الحوار وزوجته وثلاثة فرنسيين رجل وسيدتان .

كانت تتكلم الانجليزية والفرنسية .. وتناقشهم عن بلادهم وتصف بعض الاماكن لو كانت قد عاشت فيها لفترات طويلة .. وانتهت زجاجة النبيذ . وانتهت زجاجة اخرى .. كانت تحاول اشراكه فى الحديث .. لقد كانت محترفة .. تدربت على جذب انتباه الآخرين .. الاجانب .

إنتهى بهما الأمر على كرسيين حول حمام السباحة .. كانت الدقات السريعة لموسيقى فرقة جنكيز خان تصلهم عبر الصالة المستديرة .. وكانت ومضات الضوء وانعكاساتها على الراقصين .. تجعلهم يشعرون أنهم يراقبون عملا من أعمال فلليني .. تبعه صوت مايكل جاكسون والسخونة تزداد بين الراقصين . ثم فريق البيدجيز .. كانت تلتقط التغيير فى اللحن مباشرة .. وتلفت انتباهه هذه الفرقة اسمها بوليس .. وهذه دى بيريل .. ثم تضحك من طريقة نطقه للفرنسية .

خفت الاضاءة لتسلم الموسيقى الى صوت ميرى ماتيور .. ثم باربارا ستراساند وعندما بدأت شيرلى باس تقول احبك أكرهك .. احبك اكرهك .. شدته من ساعده ليرقصا .. التصقت به عندما بدأ خوليو اجليسيوس .. ثم قبلته مع فريق الابا وانسحبا ليرقدا متجاورين خلف حمام السباحة .

القمر بدر ونسمة هواء باردة تنعشهما .. وكان قد بدأ يقلق .

سألها بدون مقدمات — ولكن هل مصرح لاى فرد بالاتجار .. ؟

ثم رد على نفسه — لابد من ترخيص .. ولابد من تحديد مصدر البضائع وسعرها ولابد من تحديد هل دفع رسوم عليها أم لا .. ثم هناك قانون يحدد نسبة الارباح بحيث لا تزيد عن خمسة عشر بالمائة .

نظرت اليه بخيبة امل .. ثم أجابت :

اذا كانت الامور تسير بهذه الطريقة فكيف اصبح هؤلاء مليونيرات .

ثم مدت كفها الى مراكز الضعف فى رأسه وبدأت تعالج تردده .

ـ هذه العملية بسيطة .. المهم العملية الاخرى .

قاطعها كملا لو كان قد وجد قشة يتعلق بها .

ـ أنا بقول انهم يدفعوا القرشين دول لبتوع الجمارك ويخلصوا على البضاعة ونبقى صح أحسن .

ثارت أصبحت كالنمرة .. لقد دمر كل تعبها بضعفه .

ـ انت ايه .. قلت لك لازم نثبت 'هم اننا نقدر نعمل كل شيء .

انت فاكر انهم نايمين فى امريكا .. دول عارفين كل حاجة .. ويعرفوا اكثر منك عن بلدك .. ولو م اثبتنش انك قد المسئولية حيدوروا على واحد تانى اديك شفت عد لك كام « ابن » آخر مرة افكرك ابن عثمان وابن حسن علام وابن عدلى أيوب وابن يونس .

امسكتها بيده حاول تقبيلها .. ولكنها تملصت منه .. وقفت بعيدا عنه قالت مش حتلمسنى أو تقرب منى الا لمـا تبقى زى م انا عايزة .. ثم بدلال انا عايزة مصلحتك .. مصلحتنا .

عندما اخذوا الريالات السلفة .. ذهبوا الى سوق الحـديدة لشراء بعض احتياجاتهم .

السوق يعج بالرجال ذوى الشورتات والقمصان الصيفى الكاكى .. وعربات الجيش المختلفة .. جنود وصف ضباط وصغار الضباط حتى المتقدمين والمتداء .. عربات جيب قيادة وجيب صغيرة وعربات بصندوق .. خفيفة وثقيلة .. الجميع يحملون كشوفا باحتياجات موصفة لهم بدقة .. قميص نوم برلون أزرق فاتح ـ كيتشن ماشين مولينكس بها عجان .. سيشوار به فرشة شعر برتقالى .. وهكذا .. حتى مستوى الصابون ومعجون الاسنان والكولونيا .

وكان السوق ينقسم الى قسمين .. الجديد منه اقيم خصيصا بعـد وصول القوات المصرية ويحتله تجار عدنيون وهم تجار بالفطرة يغالطون ويحلفون أيمانا كاذبة ويستقطبون الزبائن بكل الحيل ويجملون السلعة .

وهؤلاء كانوا يتعاملون اساسا مع الضـباط يبهرونهم بكل جـديد فى الاسواق العالمية .

والقسم الآخر القديم او السوق الاصلى فيتاجر فيه اليمنيون .. يجلس التاجر امام دكانه مسمرا يلوك نباتا اخضر فى فمه وكل بضع دقائق يبصـق

بجواره عصير القات .. وفي هذه الحالة يسمى الرجل مخزنا .. اى يخزن القات في فمه اذا اقتربت منه لشراء بضاعته .. لا يرد عليك ثم يشير باصبعه لتدخل وتاخذ ما تريد .. ثم تعود لتعطيه النقود يقلبها في يده اذا وافق وضعها بكسل في جيبه واذا لم يوافق بردها لك بقرف ويخطف البضاعة منك ويقذفها لتستقر بجوار زميلاتها في اكوام غير مرتبة .

وللسوق الثاني رائحة مميزة تجمع بين التراب والعفن والعرق والابخرة رائحة نفاذة غير محتملة .

في هذا السوق تشاهد اليمنيين بملابسهم المعقدة المركبة وعلى رؤوسهم غطاء يشبه العمة المصرية بتلافيف كثيرة .. وكل منهم يحيط وسطه حزام جلدي عريض يتوسطه خنجر يختلف قيمته وطوله باختلاف مقام الرجل .. وهو غال قد يصل سعر خنجر متوسط الى اربعمائة ريال يمنى اى حوالى مائة وخمسين جنيها .

في هذا السوق يمكن ان يقترب منك ولد صغير ويهمس « بتريد تخنس » اى هل تريد أن تزاول الجنس .. فاذا كنت قد فقدت عقلك يمكنك الذهاب معه معرضا نفسك للسرقة والقتل وايضا للامراض الجنسية المعروفة وغير المعروفة ففي اليمن حرية جنسية غريبة والامراض الجنسية ظاهرة عادية ولا تعالج .

كان تجار السوق الجديد يعرفون الضباط القدامى .. ويرحبون بهم .. اشترى احدهم ماكينة لاعداد الجيلاتي بعد وضعها في الفريزر وتوصيلها بالكهرباء واشترى آخر ماكينة حلاقة بالكهرباء .. وثالث ورابع .. واشترى صديقنا بريالاته المحدودة نظارة وولاعة .

بدل أحدهم دولارات واسترليني الى جنيهات مصرية وشرح فلسفته قائلا :

اى جهاز من اللى انت شايفهم يوجد في مصر ولكن بزيادة من ٢٠٪ الى ٣٠٪ بالمائة فرق العملة يوازي من ١٢٠ الى ١٥٠ بالمائة .. ايها ارخص فبدل الشراء والنقل والحمل والغلبة دي .. احول الدولارات لمصري بمكسب ثم اشتري من مصر .

آخرون اشتروا سجائر كيلوباترا بستة قروش أو خمسة قروش بكميات كبيرة لقد كان هذا السعر نصف سعرها في مصر ... وفي حالة بيعها يحققون مكاسب مناسبة .

كانت المهمات الخاصة بالانبخانات قد اكتملت .. وركبت وصبت الخرسانة العادية اسفلها .. وركب الرقيب السباك مناطيس المياه والمواسير والحنفيات وطلمبة رافعة .. وانتهى البلدوزر من تسوية الموقع .. وتم تركيب السور المبروق والبوابة .. واستعدوا للعودة .

ركب صديقنا فى كابينة العربة .. ثم دعى الجنود والصف ضباط للركوب فى الصندوق المكشوف .. وجد الرقيب السباك يربط راسه بمنديل ويتحامل على نفسه ليصعد الى الصندوق ... سمح له بالركوب جواره .. فأصبح كلاهما فى الكابينة بجوار السائق .

كان القائد يقف أمام خيمته عندما شاهد العربة وبكابينتها صديقنا والسباك غضب .. طلبه الى مكتبه .

— يا سيادة النقيب انا قلت ميت مرة لا تصح هذه التصرفات .

— ماذا حدث يا فندم (محاولا كسب بعض الوقت) .

— ليه السباك يركب بجوارك .

— يا فندم كان (قاطعه) .

— انت مش عارف ان ممنوع يركب أثنان بجوار السائق واننى عاقبت ضابطين ركبا بجوار السائق .

— يا فندم اصل (قاطعه) .

— لا اقبل اعذار .. هذا انحلال .. يجب ان يكون لك برستيدج الضباط الضابط .. ضابط .. والجندى .. جندى .. تكلمه .. تعتنى به .. تحافظ عليه لكن لازم تجمع بين الحب والخوف والاحترام .. يحبك ويحترمك ويخاف منك .. اتفضل .

غضب صديقنا وقاطع الغذاء الجماعى ثلاثة ايام .. كان يطلب غذاءه منفصلا ولا يجلس معهم عصرا .. ولا يذهب لبلاج الروس .

وانتقلت الكتيبة الى الموقع الجديد .. ووصل من مصر باقى افرادها بقيادة رئيس العمليات الجديد وقائد سرية جديد ايضا .

فى ليلة اليوم الثالث .. جاءت اشارة من المخابرات سلمها الجندى لرئيس العمليات .. ذهب الى صديقنا ايقظه من نومه وطلب منه ارتداء ملابسه .

قال له انه جاءتهم اشارة من المخابرات بانفجار قنبلة يدوية ويطلبون احد المهندسين للكشف عن قنابل لم تنفجر بعد .

ـ طيب وأنا مالى .

ـ ستذهب أنت .

ـ ولماذا أنا .. أنا لا أفهم فى القنابل اليدوية .

سكت الآخر قليلا فلقد تصور انه ضابط مغضوب عليه من القائد لأنه لا يتناول غذاءه معهم لذلك فلقد أوكل له هذه المهمة القاتلة .. ثم تنبه مع ردود صديقنا الى أنه ينصرف بطريقة خاطئة .

استكمل حديثه :

ـ طيب دور على سيادة المقدم فى الحديدة وقول له يتصرف .

ـ حـــاضر .

ـ أوعى تفتكر حاجة أنا معرفكوش ومطلوب منى ان أتصرف .

ذهب لقائد الكتيبة .. لقد كان يعرف دائما أين يجده .. وجده يركب عربته .. قدم له الاشارة .. وضع الآخر ساعده حـول كتف صـديقنا وناقشه بود :

ـ مين قالك تيجى هنـا .

ـ سـيادة الرائـد .

ـ هل كان يعرف مكانى .

ـ لا ولكننى اعرف أين ستكون .. فهنا لا يوجد كباريه أو سينما .

ضحك الآخر .. ثم اركبه معه عربته وذهبا الى المخابرات .

قال لهم ـ هذه ليست وظيفتنا .. انها مهمة التسليح ومن فضلكم نرجو الا تخلطوا بعد ذلك بين مهامنا .. اتفضلوا الاشارة .. سلام عليكم .

قدم لصديقنا سيجارة .. أشعل له سيجارته بولاعته الجديدة .. اخذها منه وبدأ يقلبها بين كفيه .. كانت رائحة الويسكى واضحة .

ـ منين دى .

ـ اشـــتريتها .

ـ واشتريت ايه كمان .

ـ نظارة بيرسول .

عظيم .. عظيم .. ابتدينا .. كنت فاكرك اصلب من كده .

كانت العربة قد وصلت الى مقر الكتيبة .. نزل منها واتجه الى خيمته والآخـــر يتبعـــــه .

طلب من الجندى المراسلة أن يضع كرسيين على شاطىء البحر .
ثم طالب منه فنجانين قهوة ثقيلة وحياة أبوه .

جلسا متقابلين .. حرارة الجو أصبحت اقل .. نسمات رطبة تهب من البحر مباشرة .

ساله — قولى يا باشمهندس ...... ايه هى الشيوعية ؟

فوجىء صديقنا بالسؤال .. آخر ما يتوقع سماعه .

اجاب — الشيوعية .. الشيوعية مذهب اقتصادى اجتماعى سياسى وينقسم الى قسمين .. النظرى وضع أسسه كارل ماركس وانجلز — والعملى طبقة لينين وماو لكن سيادتك بتسأل ليه .. ؟؟

اجاب الآخر : أكمل .. عايز اتعلم .. انت شريكى .

— بدأ التطبيق العملى فى الاتحاد السوفيتى .

— ولكن هل الاتحاد السوفيتى نجح فى تطبيق الشيوعية ؟؟ —

— الاتحاد السوفيتى نفسه لا يدعى هذا .. انهم لازالوا دولة اشتراكية .

الشيوعية تحتاج لأجيال .. ولها مقومات لم تتوفر بعد .. ولم توجد بعد الدولة الشيوعية .

— طيب وما هو الجانب النظرى ؟

— تقصد سيادتك المادية الجدلية والتاريخية .

— عفـــارم عليــــك .

وهنا اكتشف صديقنا أن قائده قد درس الشيوعية .. وبدأ بتردد .. ثم يسرد بعض المعلومات المشوشة .

واخيرا قال — انها التراكم الكمى البطىء الذى يعقبه تغير نوعى سريع .

اجاب الآخر — اذا فهو تراكم كمى بطىء .. يعنى فى البداية نظارة بيرسول وولاعة رونسون .. ثم بوتاجاز المصانع لا يصلح .. الفرنسى افضل .. ثم الثلاجة الايديال صغيرة وستنجهاوس اكبر .. والشقة ضيقة على الأولاد فيلا تناسبهم .. وبعكوكة صغيرة بدل زحمة الاتوبيس .. ثم

تكبر وتكبر التطلعات التى لا نهاية لها ويحـــدث التغير النوعى فتبيع روحك وجهدك ومبادئك .. و .. حتى بلدك .

وكأن دشا باردا سقط على الراس الملتهبة .. ضحك القائد المنتشى ثم سحبه من يده لداخل الخيمة .. غير ملابسه .. ارتدى جلبابا أبيض .. غسل رأسه جففه وجهه واخرج مشترياته ليريها لصديقنا .

اندهش اكثر .. اتسعت عيناه ... ما الذى يريده ؟؟

تكلم الآخر كما لو كان منوما .

ـ عندما كنت فى سنك .. كنا فى الطليعة الوفدية .. وهى شباب يسار الوفد كنت متحمسا جدا .. وياما دخلت معـــارك مع الأخـــوة .. (الأخوان بالطبع) (وهم غدارين) .. انتظرونى فى الظلام واخذت مطوة فى فخذى .. علامتها لازالت هنا .. ولكن .. ولكننى تغيرت الأن .. أنا غير مستعد لأى مشاكل .. مرتبى منزلى . عائلتى .. احنا جيل انتهى .. ضربونا بالكرباج .. أتلفونا ولكن أنتم ما عذركم .. تصـــبح على خـــير ياباشـــمهندس .

كان عائدا لخيمته .. كلام القائد يضغط على راسه .

فى البدء ولاعة .. وفى النهاية تغير نوعى .

قابله رئيس العمليات سأله ماذا فعل .

لم يرد عليه .. اتجه الى سريره .. كان ينظر الى الدولاب الذى وضع فيه ملابسه واشياءه برعب كما لو كان بداخله قنابل زمنية قابلة للأنفجار .

الفصـــل الرابع عشر

كانت ليلتهما الأخيرة فى القرية .. مرت الأيام بسرعة غريبة .. كان كل منهما قد اكتشف زميله وتصور أنه فهمه .

لقد وصل الى قناعة نهائية بأنها خطر عليه .. تطلعـــاتها اكبر من طاقته وامكانياته .. انها من نوع النساء الذى يهوى بالرجال الى الحضيض كالملاك الأزرق .. وكارمن ..

لو انه استمر فى علاقته بها فكيف يستطيع ان يواجه والده او قائده بنواياها لقد تعلم من حريق القاهرة انه لا يحق له أن يغنم لنفسه من خلال خراب بلاده .. انهم يغلونها ويغلونه .. انه يضحى براس والده المرفوعة وعزة نفسه يوم أن رفض الاقتراب من راس السلطة رغم صداقته بهما .

لقد كشفت اوراقها بالكامل فما هى الا كومبرادور يعمل باشارة من اسياده ويتيه على مواطنيه بالفتات التى حصل عليها منهم .. وهو يرفض هذه الوظيفة وعاودته رومانسيته .. لقد قرر اللجوء الى قوة الاستغناء انها وسيلته دائما لمواجهة مثل هذه المواقف سيستغنى عنها وعنهم وعنه .

وعاودته احلام الحرية التى كان يحلم بها فى طفولته .. عليـــه ان يختار .. هكذا قال سارتر .. ان الأنسان تتحدد ماهيته باختياراته .

لقد تصور انهم فى حاجة الى علمه .. وتجربته وشرفه .. ولكـــن اتضح انهم بحاجة الى مخلب قط يلتقط لهم ولها الثمـــرات النـــاضجة من الأتون .

وقرر أن يخسر العالم كله ويكسب نفســه .. سيستقيل ويبيع اسهمه ويسترد كمبيالته وهم الخاسرون لن يكون كومبرادورا .

وكانت تتصور انها فهمته .. انه جبان محدود الطموح .. ولكنه اصبح عجينة طيعة فى يدها تستخدمها بالطريقة التى تريدها .. ستجربه فى العملية الأولى انها فى حاجة الى اتصالاته وذكائه ومعرفته بهذا الواقع المتشابك . .وبعد ذلك ستحدد موقفها .

كان الليل قد انتصف .. وكانا قد عادا لعشهما بعد أن شربت حتى اصبحت فى حالة سكر بين .

خلعت ملابسها .. ارتدت مايو بكينى أسود .. ربطت كل المناديل والايشاربات التى معها حول وسطها .. ثم لبست جميع العقود والخرز واللؤلؤ حول رقبتها وصدرها .. وبدأت ترقص بلديا وتتطوح .. كانت تحاول أن تجدد حتى لا يمل وكان راقدا على السرير يراقبها ويحاول أن يجعلها تتصور انه منجذب لها .. لم يكن قد حان الوقت بعد لمصارحتها بموقفه .. أو هو يرتشف الكاس حتى الثمالة .

عندما تعبت من الرقص .. رقدت جواره وهى تداعب شعره الأسود الكث الفاحم وتقبله كما لو كانت ستأكله .. قالت فى محاولة لاستعادته : العملية اللى قلت لك عليها سرية جدا .. وحياتى تظاهر انك لا تعرفها لقد قابلوا أمريكيا يعمل فى مصر وله صلات واسعة . .لقد شاهدوا صورة مع اكثر من مسئول .. وعدهم انه سيحيل اليهم مدينة سكنية كاملة .

لقد راوا اللوحات والمواصفات اخذ منهم عشرين الفا حتى الآن .. كمصاريف ولكنهم سيحصلون عليها .. تصور ماذا سيكون نصيبنا من هذه العملية .

كان يستمع اليها وهو صامت .. عندما أنهت كلامها علق :

لا يمكن هذا نصب .. لا يمكن احالة مدينة سكنية لشركة مهما كانت بالأمر المباشر لابد من عمل عطاء .. انتم لن تفهموا السوق المصرى أبدا .

حتى فى حالة التواطىء فالأمر يتم باجراءات قانونية مائة بالمائة .. كل ما يحدث انهم يتيحون للمتواطىء معه فرصة أفضل .. تصل لدرجة تغيير المستندات بعد فتح العطاءات .. او التجسس على المنافسين أواخفاء بعض المعلومات عنهم .. لكن هذه الطريقة نصب .. كلكم تنصبون .. ثم استدار ونام .

— ما رأيك لو اتصلت انت بالمسئولين وحصلت لهم على العملية .. ستكون عمولتنا كبيرة لدرجة تستحق التعب من أجل المشروع ..

ضحك ثم قال ــ ربنا يسهل .

عندما استدعوا قائد الكتيبة للمقابلة فى رئاسة الفرقة .. كان قد اخرج كرسيا أمام خيمته وجلس يقرأ كتابا فى الاقتصاد السياسى .. كان الكاتب يتكلم عن الملكية الخاصة ونشأتها مع المجتمع الزراعى. والتطورات التى احدثتها على العلاقات البشرية أقترب منه رئيس العمليات الجديد بحذر وترقب خوفا من رد فعل مماثل لتصرفه فى الليلة السابقة .. لقد تصور انه فى مواجهة شخصية غريبة ذلك الذى يمكنه مقاطعة قائد الكتيبة وفى نفس الوقت يقضى معه ساعات يتناقشان منفردين .. وكان يخاف ان يكون صديقنا قد اكتشف سبب اختياره له للقيام بمهمة الأمس الخطرة .

ــ صباح الخير يا سيادة النقيب .

ــ صباح الخير يافندم ..

(قالها دون أن يرفع راسه عن كتابه) ..

ــ عملت ايه امبارح ؟ ..

ــ سيادة المقدم قال لهم انه ليس اختصاصنا .

ــ ولقيت المقدم فين ؟

ــ انا دائما أعرف أين اجده .

حاول الآخر اطالة الحديث .. فهو يريد ان يحدد شخصية قائد الكتيبة على الاقل ان لم يكن شخصيتهما .. وهذه دائما طريقة اى قائد ثان جديد .

ــ اوع تكون زعلت منى انا جديد ولا أعرفكم واخترتك بصفتك ضابط استطلاع واقدم ضابط عاش فى الكتيبة .. وتوسمت فيك انك ملحلح وحتتصرف .

ــ شكرا .. انا مش زعلان يا فندم .. كان لازم واحد يتصرف .

فى هذا الوقت ظهرت عربة القائد وهى تجتاز البوابة .. فتركه مسرعا ليكتشف أسباب استدعاء القائد .

جلس كلاهما فى خيمة مكتب القائد ثم استدعيا قائد السرية الجديد وبعده قائد السرية الذى تعلم التدخين لانهم يزودونهم بالسجائر مجانا .

بعد قليل اقترب أحدهما من صديقنا ..

تحب تطلع مأمورية .. انا شايف انك متوتر هنا .

— وليه لا .

— مطلوب سرية فى مامورية خاصـــة .

— هذا سبب استدعاء القائد ؟.

— آه ..

— اكون قائدها .. لن أدهب ومعى قائد سرية .

— ليسه .

— لاننى اكبر من ان اكون قائد فصيلة .. ولاننى منذ بداية عملى هنا وانا اعمل منفردا ولاننى لا احترم قادة السرايا .. فأى شخص طلب نقله لكتيبة مسافرة اليمن مخصوص فى نظرى انتهازى ولا اثق فيه .

— ولكن قائد السرية الجديد شخص ممتاز وحيعجبك .

— رد الآخر بحزم الذى لا يقبل مناقشة — مع احترامى لقيمك .. فان لك نظـــرة مخالفة لنظرتي للحياة .. ارجوك اذا كانوا قـــد ارسلوك لسؤالى .. فردى لا البس معه قادة فصائل .. !! ولا ابتدينا نلقح ماموريات على بعض .

كان رد صديقنا حادا ومحددا .. انه لا يمانع من القيام بأى مامورية .. ولكنه لا يثق فى انتهازية من طلب سفره لليمن من اجـــل مكاسبها .. انه يعادى بذلك نصف ضباط الكتيبة بادئا برئيس عملياتها .. لقد رده حـــوار الأمس مع قائده الى اقصى اليسار .. الم اقل لكم انها سمة طبقتـــه .

استدعاهم قائد الكتيبة .. رئيس العمليات وقائد السرية الجـــديد وصديقنا . دون أن يتيح لأحـــدهم الكلام لبس قناع الجدية .. واصدر تعليمـــاته —

الموضوع اللى حتكلم فيه موضوع حساس وهـــام .. وهو اول عمل تكلف به الكتيبة وقد تكون الفرقة فى اليمن .. نستطيع ان نعـــتبره امرا على المستوى الاستراتيجى صدر من القيادة السياسية لقيادة القوات لقيادة الفرقة التى كلفت كتيبتنـــا بتنفيـــذه ثم همس — انها أوامر الرئيس بنفســـه .

فى حرض على حدود السعودية .. المدينة التى عقدوا فيها مؤتمر السلام الأخـــير يوجد وادى .. هذا الوادى جاف الآن .. ولكن بعد

شهرين ستسقط الأمطـــار وتملؤه .. وستذهب المياه الى السعودية حيث تروى عشرة آلاف فـــدان .

فى نهاية الوادى وقرب الحدود السعودية يوجد مضيق كان عليه سد ترابى يحجز هذه الكمية من الماء .. ويروى حوالى من خمسة الى ثمانية الاف فـــدان باليمن تهدم هذا السد .. وهاجر اليمنيون من ارضهم الى الأرض التى يرويها المجرى المائى فى السعودية .. وهـــؤلاء هم سبب المشكلة .. فالسعودية تستخدمهم فى حملات الاغارة والتسلل .. لذلك قررت القيادة السياسية .. اعادة انشاء السد لتمنع المياة عن السعودية وتروى بها أرض يمنية .. وتصبح المنطقة الحدودية منطقة محروقة .. اى لا يوجـــد بها سكان فيسهل مراقبتها والتحرك من خـــلالها كما ذكرت موسم الأمطار بعد شهرين .. والتقارير المبدئية حددت أن انشاء السد يحتاج الى سرية لمـــدة اربعة شهور .. كما ترون المهمة صعبة وفوق الطاقة خصوصا لو تصورنا ردود فعل السعوديين .. وما ستفعله مع منشىء السد الغام وشراك خداعية .. وقـــد يصل الأمر الى اغـــارة بالقـــوات .

يوجد فى المنطقة لواء مشاة واخر للمدفعية غير مجموعة القوات الخاصة وبالطبع فى الأحتياط باقى الفرقة فى الخلف بمعنى ان هناك قـــوات للحماية صمت قليلا ليراقب ردود افعالهم ثم اكمـــل ــ

اخترت السرية الأولى بقيادة سيادة النقيب وتدعيم سيادة النقيب .. (واشـــار اليهمـــا) رغم معرفتى بمعارضة كليهما للأختيار .

احـــدهما يقول ــ انه لا يصح ان يحضر معه ضابط لا يريـــد ان يتعاون . واشـار الى قائد السرية .

والثانى يقول ــ انا لا اعرفه وقد كبرت على ان اكون قائد فصيلة (واشار لصديقنا) لذلك وحلا لهذه المشكلة نستطيع ان نسمى السرية الأولى مأمورية عمل لها قائد وقائد ثان .. لمـــاذا اخذت هذا الشكل .

لأن قائد المأمورية يمتلك خبرة المهندس المدنى وخبرة التنفيذ ولكنه جديد على الكتيبة وعلى افرادها ولا يعقل ان يخرج قائد بأفراد لا يعرفهم مأمورية لأول مرة . والعكس القائد الثانى يعرف افراد الكتيبة بالفرد ويربطه بهم عـــلاقات انسانية ولكنه اقل حذرا واكثر اندفاعا خصوصا عندما يقتنع بفكرة ما مثل العلاقات الانسانية مع اليمنيين .

- سندعم السرية ببلدوزرين على كاوتش .. على قائد المأموريه التجهيز للسفر بأخذ راى رئيس العمليا تءوالقائد الثانى .. وله الحق فى استخدام جميع امكانيات الكتيبة .. تمام الاستعداد المباشرة صباح باكر وسأفتش على المأمورية بنفسى .. شكرا وحظا موفقا للمأمورية والكتيبة .. وتفضلوا .

لم يتح لأى منهما مناقشة الموضوع .. لقد تفهم الموقف جيدا . تفهم وجهة نظر جميع المعاونين ثم أصدر أمر قتال كما يدرس تماما فى الكلية الحربية ومدرسة المهندسين والمناورات .

لقد كان قائدا قويا .. ذكيا .. متفهما تماما مهامه وكانت أوامره مدروسة تدعو للثقة .. لقد طرح عليهم كل الحقائق .. بصراحة مناسبة للموقف .

حذرهم من المخاطر بشكل واضح حدد خطته .. وكان عليهم ان يعملوا وبهدوء لذلك لم يعترض صديقنا بل أصبح اكثر تجاوبا ورغبة فى التعاون .. الم اقل لكم انه ينتقل بسهولة من أقصى اليمين الى اقصى اليسار .

اقترب منه قائد المأمورية اعطاه كتابا ثم علق —

خذ ياباشمهندس اقرا ما بين الصفحتين المطويتين .. كان الموضوع عن تصميم وانشاء السدود الترابية .

تعجب صديقنا من اين اتى بهذا الكتاب .. ثم عرف بعد ذلك انه يستعد لتقديم دبلوم فى الأساسات وميكانيكا التربة وانه احضر معه كتبه ليذاكر أثناء تواجده بالايمن كما تصرف قائد المأمورية ايضا ناجحا وعلى مستوى الموقف لقد استطاع ان يبدأ علاقتهما بالثقة .. فلقد زادت ثقة صديقنا فى معلوماته الهندسية .. وزادت ثقته بنفسه بعد أن قرا الورقات المطويات .. كانت كل الظواهر تشير الى انهم سيبدأون عملا ناجحا .

اختاروا الصف ضباط وسائقى المعدات واستلموا البلدوزرين الملحقين عليهم . كانا يتحركان على كاوتش .. عندما اعترض صديقنا .. رد قائد المأمورية بأن الطريق لحرض ترابى ولا يتحمل جرارا بمقطورة يحمل بلدوزر على كاتينة لذلك زودوهم بأخرى تتحرك على عجل لتستطيع الوصول .

حملوا خمس عربات بالجنود والمعدات الخاصة بالاعاشة — الخيام — غناطيس المياه ادبخانات — سراير للضباط فقط .. فالجنود والصف

ينامون على الأرض حتى فى الحديدة على البحر .. وبعض شكاير الاسمنت ومعدات الحفر اليدوية وجراكن مياه ممتلئة وتعيين تحرك والسلاح الشخصى للجنود وصناديق ذخيرة ووصف للطريق .. تسيرون على هذا المدق حتى وادى مور .. ثم تعبرونه الى عبس .. ثم منها الى تلك حرض انه المدق الوحيد وستجدون نقط مرور ترشدكم . فى تمام العاشرة نتش قائد الكتيبة على القــول ثم استدعاهم لخيمته ــ

ــ احنا بندرس تكتيك وتاريخ ليه .. !! .. علشــان منستخدمهوش وكل مرة نتعلم من أول وجــديد .

المنظر بتاعكم ده .. معناه انكم قررتم الانتحار وقتل جنودكم قبل وصولكم لحرض المهمات تملأ العربات والجنود فوقها .. ثم كمين وطلقات نار من كل اتجاه ويقتل ويقتل ويتنز من يقفز ليذبح على الأرض .

الحل لو كنا عايزين نتعلم من خبرة الدماء المسفوكة .. الجنود من جانبى العربة . وجوههم للخارج كل منهم معه بندقية وبها خزينة الطلقات معدة للضــرب .

فرد معه رشاش فى مقدمة العربة . كل جندى أوصف ضابط على رأسه الخوذة حدث كمين تفتح العربات سرعتها على الآخر .. الجنود تشتبك من فــوق العربات البلدوزرات امامك سرعتهــا نفس سرعتكم لتستطيعوا حمايتها .

اصطف القول بالشكل الذى اشار به القائد ثم اطلقت البلدوزرات صفارتها التى تشبه سراين البوليس واحتضنهم زملاؤهم ثم تجمعوا حول السور يلوحون لهم ويبكون فقد كانوا جميعا متأكدين انها سرية انتحارية ذهبت لتمــوت .

ضغط القائد على كفة ثم همس بحب . ثقتى بك كبيرة خللى بالك من نفسك . تحرك القول فى الطريق الذى يتصل معسكرات وحدات الفرقة المختلفة وكتائبها وهو يعلن عن نفسه بسارينة البلدوزرات وخرج الضباط والجنــود يودعونهم ويلوحــون لهم . يرفعون أيديهم المتماســكة لأعلى فلقد كانوا المأمورية الأولى للفرقة .

كان يرتدى فانلة بيضــاء بنصف كم وشورت أبيض قصير وصندل .. ويعلق على كتفه نظارة ميدان ويضــع النظارة البيرســول الجديدة .. ويجلس فى العربة الأخيــرة فلقد كان قائد المأمورية فى أول عربة .. وهــو فى آخر عربة ليحكما السيطرة على القول الذى ترك الحديدة وبدأ يتحرك على المدق

حركة العربيات تتسبب فى تكوين سحابة من التراب خلفها يتعذر معها الرؤية الجنود باعلى الصندوق وجوههم للخارج .. احدهم ينام فوق بندقيته .. قد تنطلق رصاصة خاطئة من احدهم تتسبب فى مشاكل لايعلم مداها .

كان يشعر باهمية اليقظة .. واهمية ان يصلوا سالمين بعد تلقين قائد الكتيبة اما هم فلم يحدثهم احد .

ان الطريق بالنسبة لهم عذاب للوضع الشاذ الذى يجلسون به .. وكأنما تنبه فجأة الى انه اصبح فى حماية هؤلاء الجنود وان سلامته وسلامتهم متوقفة على مدى يقظتهم وتحملهم المسئولية .

وفجأة توقف القول .. ووجد قائد المأمورية يهرول ناحيته .. ياسيادة النقيب من فضلك قبل أن نتقدم أريد أن اتكلم مع الجنود .

ونزل الجنود من عرباتهم .. ووقفوا فى صفوف أمامهم ضباط الصف وتقدم قائد المأمورية —

يا رجالة احنا رايحين فى مأمورية هامة جدا .. وماشيين فى وسط اعدائنا حياتنا ملهاش لازمة لكن الهدف اللى احنا رايحينه هو المهم .. لازم نوصل وبأى شكل .. تنتجوا عنيكم .. أى مخالفة للضبط والربط سأقابلها بأقصى جزاء مفهوم ثم استدار لصديقنا وقال هل تريد بسيادتك أن تقول لهم شيئا .. ؟؟

قال صديقنا — اه من فضلك .. سيادة النقيب قال اللى عايز اقوله لكن عايز أوضح شيئا ان حياتنا لها لازمة ولها اهمية كبيرة لانفسنا ولاهالينا ولبلدنا ولازم نحافظ عليها مش حنحافظ عليها الا بالانتباه الشديد والضبط والربط .

اللى حيخالف مش حيتسبب فى اذى نفسه فقط بل فى اذى زملائه ووطنه ايضا وقد لاحظت ان التراب الناتج من كل عربة بيمنع الرؤية للعربة التى خلفها ..

فبعد اذن قائد المأمورية .. يتحرك السائقون خلف خلاف .. يعنى ما نمشيش خلف بعضنا .. نتحرك فى طابورين .. الأول على اليمين والثانى على الشمال . وهكذا . كان يعجب كيف توصل كلاهما لنفس النتيجة فى نفس الوقت .. ان المواقف هى التى تصنع الافكار .. اليس كذلك .. ؟؟ معنى هذا انك اذا وضعت مجموعة من الافراد فى ظرف معين بنفس

القدر .. فاعتقد انهم سيصلون الى نتائج متقاربة اليس هذا ما تفعله البيئة والظروف الاجتماعية والسياسية والاقتصادية فى الافـراد .. اليس هذا ما تفعله اجهزة الاعـلام — الجريدة .. الاذاعة والتلفزيون .

الطريق ممتد .. غير مستو .. الصحراء تحيطه من اليمين واليسار .. فى بعض الأحيان يضطر القول للانحراف خـارج المدق الذى يستحيل السير فيه .. عشش متناثرة على هيئة اكواخ ذات اطراف مدببة ... شكلها مألوف لديه .. ولكنه لايتذكر اين راها .بتكرارها .يتذكر .. فى كتبتاريخ العمارة انها مثال حى لأكواخ عصـرما قبل التاريخ .. ويضحك .. لقد كانوا يصنعونها من البوص بأن يجففوا الاعواد ثم يغطونها من الداخـل والخارج بالطين لتتماسك النسـاء يلبسن بنطلونات واسعة معقودة من أعلى بواسطة قطعة قماش ولدى القدمين تشبه ملابس الف ليلة .

الرجال بالعكس يرتدون الجلباب .. أطفال يتجمعون حـول عربات القـول ... قذرين جدا .. عرايا تماما .. أغلبهم تطل من اعينهم نظرات ذكاء فطرى وحيوية رغم ضعفهم الواضح ينادون نداء غير مسموع .

يفتح الزجاج ليسمعهم .. كانوا يقولون باسكو .. باسكو .. ماذا يريدون .؟ يسأل احد الجنود — يرد بانهم يريدون البسكويت الذى يأكلونه ضمن تعيين التحـرك .

عند نقطة مرور يقفون للاستراحة .. يرقد صديقنا على الأرض فى ظل عربته قائد المأمورية يقترب منه يجلس بجواره يعطيه ورقة مطوية يفضـها يجدها سلطة الجزاءاتالمنوحة له والعقوبات التى يستطيعتوقيعها على الصف والجنود بصفته قائد مأمورية .. يعيدها له بدون تعليق .

الآخر يعلق — انها سلطاتك ايضا فمن حقك استخدامها مثلى تماما بالمناسبـة التعليق للى قلته للجنود كان مناسبا تماما فدافع الحياة اقوى من دافع الموت . ينظر للصف ضابط وهم يتحركون فى حرية ويناقشـون جنود البوليس الحربى فى نقطة المـرور ثم يعلق —

شايف .. شـايف الصف ضباط بيعملوا ايه مش معقول الفوضى دى .

ثم لصديقنا .. متزعلش منى انا جشد عليهم شوية .. ويقف يصيح —

اركب كل الناس .. ثم يجمع الصف ضباط .

سيادة النقيب بيقول انكم احسن صف ضباط الكتيبة ومع ذلك انتم ناس منحلـــين أنا لن ارحم فى الجزاءات ممنوع حد منكم ينزل من عربيته .. الوقفة دى علشان نريح العربات ونزود المية .

رجع الصف ضباط منفعلين فلم يتعودوا على مثل هذه المعاملة .. خصوصا وهم متصورون انهم فى مأمورية مع صديقنا .

القول يتوغل فى ارض اليمن .. الأعصاب مشدودة .. يخترقون قرية .. لها نفس ملامح القرية المصرية .. الأطفـــال حفاة السيدات فى داخل اكواخهن يفستن . شوادر بيع الخضر .. الطيور تجرى أمام العربات .. الرجال ينظرون للجنود بملل .. الكل يندهش من شكل وصوت البلدوزرات .. الحيوانات ترعى أو مربوطة بحبل أمام الكوخ ولكنها هزيلة .. كلب مستلق يلهث من الحرارة .. كميات هائلة من الذباب تتجمع حـوله .. الأطفال يصيحون باسكو .. باسكو .. الجنـــود يقذفونهم بالبسكويت .. الشبان يطرقون زجـــاج العربات ويطلبون بولوبيف أو سردين أو علب خضار .. ولــد صغير يطلب سيجارة .. لقد تعودوا على قوات الجيش .. الرجال يرقدون امام اكواخهم يمضغـــون القات .. يلبسون الطرابيش الخوص .. ينظرون لهم بملل وتبلد .. يسرعون بالخـــروج من القرية .

ويتكرر هذا المشهد عدة مرات .. وتنتهى الدهشة الأولى .. فيغرق كل منهم داخل نفســه .. فى عالم خاص به .. حتى يصلوا فى الخامسـة الى وادى مور ويقرروا أن يقضوا ليلتهم فى هذا المكان .. فهو منطقة شئون ادارية اللـــواء الذى يحتـــل المنطقة وبها قوات مصرية وفصيلة مهندسين كبارى مسئولة عن انشاء مخاضات لتعبر عليها القوات .

العربات تنتشر .. الجنود تعد خيامها الصغيرة (هيكلات) لتستخدمها فى النوم .. يضع مرتبته تحت عربة من العربات .. كل منهم يستخدم جـــزءا من تعيين التحرك لتناول عشائه .

الصف ضباط يحيطون بصديقنا ليشكوا له من قائد المأمورية .. جنديان يوسسان ثم يتجهان فى اتجاه محدد .. يعودان بعد فترة يضحكان ويتغامـــزان .

آخر يذهب في نفس الاتجاه .. يتبعه صديقنا ليجد يمنيا يجلس على مصطبة أمام كوخ ومعه ثلاث فتيات بيضاوات .. الجندي يميل عليه يحدثه يشير لواحدة منهن ثم يدخلان الى الكوخ .

يقص ملاحظاته علي قائد المأمورية .. يطلبان من الصف ضباط مراقبة الجنود حتى لا يصاب أحدهم بمرض .

ضابط غريب يطلب من صديقنا مصاحبتهم صباحا خلال رحلتهم .. ثم يتحدث معه .. كان مهندسا زراعيا .. لذلك فهو يتنقل بين الوحدات المختلفة ليهتم بمزارعها .. كان خفيف الظل ويتعامل مع اصعب المواقف بمرح .. ويعلق على الحرب فيقول ـ

هنا لا تعرف الفرق بين الجمهوري والملكي .. كلهم جمهوريون .. وكلهم ملكيون ولا تحكمهم أى مقاييس .. ان وحدات كاملة من الجيش الجمهوري بعد أن يتم تسليحها تنضم الى القوات الملكية .. ثم يضحك وهو يقص قصة أحد قادة فصائل الدبابات اليمنية الذى حاول عبور الوادي بدبابته فغرزت .. احضر اخرى ليخرج بها الاولى فغرزت الثانية واندفعت الأولى لعمق المجرى وغرقت .. فأخذ الدبابة الثالثة الخاصة بالفصيلة وانضم بهسا للملكيين .

زعماء القبائل هنا لهم مرتبات .. بعد أن يصرفها يطرقع كام رصاصة .. فيزيدون له المرتب .. فيسكت .. ليه سكت متعرفش .. ليه ضرب برضه متعرفش .

الحياة هنا مخالفة تماما لكل معلوماتنا .. اليمنيون لايعرفون الفارق بين النظامين الجمهوري والملكي .. توجد فقط قبائل متمردة .. هناك في أعلى الجبل في منطقة اسمها الطور .. لذلك في طريقنا سنسلك طريقا آخر لا يمر اسفلهم فقد تكون المغزالة شغالة ويطخونا .. هم حتيقى معاهم بنادق من أيام سيدنا نوح من التى تضرب رصاصة ثم تحشوها لتضرب أخرى لكن الرصاصة برجل خصوصا لو كان دم . دم .

دم . دم يا سيدى رصاص ينفجر على مرتين لذلك يصدر صوتين دم ويصدين دم أخرى فسموه الجنود دم . دم .. وهو رصاص محرم لأن الرصاصة بعد الاصابة الاولى تنفجر داخل الجسم .. ثم يضحك .

أوعى رجالتك تروح لابو فتحية .. لحسن بناته عندهن زهرى .. تصور الرجل مسرح مراته وبناته بعلب الخضار والبولوبيف يخرب بيته هذى نصف عساكر الجيش المصرى .

الشمس يملأ ضوءها المكان بعض الجنود يسبحون فى مجرى الوادى.. وبعضهم يصنع الشاى فى علب صفيح على عيدان حطب .. وجسد صديقنا أصبح مفكوكا كل جزء منه يعمل منفصلا من الرطوبة .

قائد المأمورية يصيح ليعيد الجنود مهماتهم الى العربات .. يصدر تعليماته ستتحرك بعد نصف ساعة .

يجلس فوق صندوق يحلق ذقنه باسترخاء .. يشعر بحنين لمصر .. يريد أن يرقد تحت شجر الكلية الحربية بجوار القناية يتناول افطاره .. أحد الجنود يحضر له كوز شاى هدية من قائد المأمورية .. يفكر .. لو انهم بدلا من رشوة زعماء القبائل زرعوا هذه الارض وساعدوا هؤلاء البدو على الهبوط من اعلى الجبل والاستقرار .. لو أن الجهد الذى يبذلونه بذله خبراء الزارعة بدلا من خبراء الحرب .. ودوى صوت ماكينات الرى بدلا من صوت ماكينات ضرب النار وانتقل هؤلاء من عصر البداوة الى عصر الزراعة الم يكن ذلك أوفر وأفضل لجميع الاطراف .. كان سيقضى على تمردهم .. ثورتهم .. غضبهم وصراعاتهم .. حل طويل المدى ولكن أكثر ضمانا .

القول يتحرك يعبر المخاضة الى الجانب الاكثر خطورة فى اتجاه عبس ... المناظر تتغير .. حقول مزروعة على الجانبين .. السكان أقرب للفلاح المصرى اللون الاسود يغلب عليهم .. جدودهم هاجروا من الحبشة واستوطنوا هذا الجزء أحفاد الملك ابرهة الذى غزا جزيرة العرب وحاول هدم الكعبة ... النساء عاريات الصدور .. لا يلبسن الا احرمة على هيئة جيب حول الوسط أما الثديان ظاهران .. بعضهن ذوات قوام رائع .. واثداء مشدودة بعضهن اثداؤهن متهدلة او متضخمة ينظرن اليهم بدون خجل .. الجنود يصيحون من أعلى العربات .. الحيوانات فى هذا المكان سمينة عن زميلاتها فى وادى مور .. يصلون عبس قرية كبيرة تحوطها الجبال بها مطار أنشأته القوات المصرية .. بئر عنتر .. بيت عبلة .. وعند نقطة الشرطة يطلب منهم قائدها التحرك بسرعة حتى يصلوا قبل غروب الشمس .. تصحبهم دورية حراسة لتأمينهم مكونة من عربيتين مدرعتين مركب عليهما رشاشات متوسطة .. عند بئر تديره جماعة مندسين .. وقفوا ليتزودوا بالماء ويقص عليهم الجنود أخبار معركة حدثت فى اليوم السابق .

ففى الساعة الواحدة سمعوا أصواتا وحجارة تقذف على الموقع .. ثم تحركات مشبوهة أطلقوا النار فى اتجاهها وظلت المواقع تطلق النار طول

الليل وتكهرب الجو فى عبس فى الصباح وجدوا ان الضحايا فردان كبيران جاءا ليشربا .

الطريق من عبس الى حرض جبلى .. تشعر ان تحت كل حجر يمنى متربصا ببندقيته وشريط رصاص دم . دم .

يزيدون من سرعة العربات .. البلدوزران لا يستطيعان اللحاق بهم يقفون فى انتظارهما مجموعة من الاطفال تقترب منهم تطلب باسكو .. طفلان اسودان فى لون الابنوس يقفان ساكنين بدون كلام تقاطيعهما حلوة ينجذب لهما صديقنا ينزل من عربته يداعبهما يقبلهما ثم يمنحهما قالبا من الفولية يصلون الى مشارف قفل حرض .. يقفون قليلا لتجهيز انفسهم .. الجنود يشدون اجسادهم الى المقاعد .. البلدوزران يطلقان سارينتهما .. اليمنيون يهللون لمنظر البلدوزرين .. القول أصبح أمام البوابة الرئيسية .. الجنود يقابلونهم بالتهليل متصورين انها قوات قادمة لتغييرهم .. العربتان المدرعتان تستديران للعودة .. جندى من البوابة يقفز على سلم اول عربة ليقودهم لمكان سرية مهندسى اللواء .. اللون الاخضر هو اللون الغالب على المعسكر الطرق محفورة فى الجبل ملتوية وضيقة .. الجنود يخرجون من خيامهم للترحيب بهم .. منظرهم يثير الضحك بالخوذات والبنادق الموجهة للخارج.

احدهم يعلق .. لبسه مشدودين أصلهم مستجدين .

الجنود حفاة فى المواقع وبدون سترات او قمصان .. ذقونهم طويلة شعرهم طويل .

وصلوا الى سرية المهندسين التى تطل على الوادى الذى سينشئون فيه السد .. اللون الاخضر يجعلها اقرب لعزبة او حديقة .. ضباط السرية يقابلونهم بالاحضان أحدهم دفع صديقنا بمزح معه :

بقا حضرتكم بناة السد .

الفصـــل الخامس عشر

عندما قامت حرب ٧٣ كان صديقنا نائبا لمدير مخازن المهندسين بالهرم منذ عام كان قد أصبح مقدما ونقلوه الى المخازن بعد ان خدم فى التشكيلات لمدة عشرة اعوام .. مصخرة للتعبيرات العسكرية ولكن تشكيلات بمعنى أسلحة القتال .

ان العمل فى مخزن لرجل قضى معظم عمره فى المواقع تجربة غريبة كان يتصور انه لا يعمل فهو لا يقود .. لا يؤثر .. لا يغير .. كل ما يفعله هو ان يوقع على أذون صرف وارتجاع ويراقب حركة الصنف ثم يصدر اوامر فتتحرك عشرات العربات فارغة وتعود ممتلئة أو بالعكس .

كان يستقيظ صباحا .. يركب عربته الخاصة .. عربة صغيرة نصر ١٢٨ .. يذهب بها الى مكتبه .. ويظل يتكلم ويتكلم ويتكلم حتى يتعب .. فيعود ليحيا حياة عادية كأى مهندس حكومى من زملائه .. وكان قائده يشفق عليه فهو يعرف ان ضابط التشكيلات يموت على المكتب فى مخزنه .. يصاب بامراض الشيخوخة المبكرة .وكان هو يعجب لماذا يكون ضباط الشئون الادارية والمخازن مهندسين .. انها خبرات خاصة لا يتعلمونها .. وكان هو يجيب على السؤال وهل هناك شىء نعمله تعلمناه ؟

ولكن اتاحت له اقامته فى القاهرة أن يرى ويتعلم أشياء جديدة لم يتعلمها خلال رحلة حياته من سيناء الى اليمن ومن اليمن الى الجبهة .

لقد كان يشاهد اللوحات التى يعلقها طلاب جامعة القاهرة على مبناهم يحثون فيها القيادة السياسية على الحرب ويطالبون بالحرية والديموقراطية وكان يشعر بالازمة الإقتصادية وهى تتجمع سحبها لتعصف بفقراء وطنه وكان ايضا ترعبه التطورات السياسية حوله .. عبد الناصر مات بعد أن

قضى سنوات عمره الاخيرة يدرب قوات الجيش للثأر من هزيمة ٦٧ والاصلاح الديموقراطى بعد بيان ٣٠ مارس .

وقام خلفه « بثورة ١٥ مايو » .. الخبراء الروس تم طردهم من القوات المسلحة فى ساعات .. والجيش يعانى من ذل الهزيمة .. وعدم القدرة على تصحيحها وهو قابع فى مكتبه بمخازن الهرم يوقع اذون الصرف والارتجاع .. واندلعت المظاهرات اكثر من مرة .. وكبحت المظاهرات اكثر من مرة .

فى ليلة العيد الكبير تم اعتقال أكثر من مائتى طالب من الجامعة ومن ميدان التحرير الذى احتلوه .. قرأ اكثر من مرة منشوراتهم .. ومطالبهم .. وتخفى فى زى مدنى فى يوم وقرأ مجلات الحائط المعلقة بالجامعة .. كان يود لو أصبح مدنيا ليكتب ويصيح .. كان يتكلم عما يحدث حوله بحرية غريبة .. لم يكن يهتم كثيرا .. منذ أن طلبه قائده وقفل الباب ثم حدثه عن الورقة الهامة التى يحتفظ بها فى درج الشانون .. واندلعت الحرب

الحرب بالنسـبة للمدنيين مباراة فى كرة القدم يهللون فيها لفريقهم او حتى الذى أحرز التعادل .

ولكن بالنسبة للعسكريين موت ودماء وضحايا وجثث وتشوهات .. ووصلته الانباء .. الجيش يندفع عبر المـانع المـائى .. وعبر تحصينات بارليف .. لم تدهشه لقد تدرب هو وجنوده على هذا الواجب على الاقل عشر مرات . الجيش المصرى يصد الهجوم المضاد التكتيكى والتعبوى .. ولم يدهشه هذا أيضا فخطط الاسرائيليين فى الدفاع عن سيناء معروفة .. ولقد تدرب الجنود عشرات المرات على معارك صـد الدبابات بالاسـلحة الشخصية . الجيش المصرى يتوقف من الاستمرار فى التقـدم للعمق .. وادهشـه هذا . ان العمق الاستراتيجى أصبح ضيقا للحد الذى لا يمكن الدفاع عنه لا سبيل للدفاع عن الارض المكتسبة الا بالوصول الى المرات .. هكذا علمه مقدم اسمر فى سيناء عندما كان ملازما صغيرا . ثم تتوالى الكوارث .

اختراق للقوات فى المفصل بين الجيش الثانى والثالث بواسطة راس حربة اسرائيلية يقودها شارون .

بناء جسر خرسانى عبر القناة فى مكان الثغرة .. الجيش الثانى محاصر داخل سيناء .. القوات الاسرائيلية تهاجم القوات المصرية فى الضفة الغربية .

الاسرائيليون يصلون الى الكيلو ١٠١ من القاهرة .. وقف القتال .. نحن لا نستطيع أن نحارب أمريكا .. انهارت القيادة ثانية .. لقد ادوا

معركة عظيمة فى الجزء الذى تدربوا عليـه عشرات المرات .. وارتبكت القيادة عندما أصبح لابد من ادارة معركة حديثة .

وبدات الاحتفالات .. سلاح المهندسين لا يكرمون منه الا الشهداء .. اللواء احمد حمدى .. والسلاح الذى بنى الجسور .. وهزم المانع الترابى ودمر الدشم .. ورص الالغام .. وازال الالغام .. واوصل ونقل المياه وفتح الطرق .. كأنه لم يفعل شيئا وكان هذه الأعمال تمت منفصلة كظاهرة من ظواهر الطبيعة وبدات ارهاصات الانفتاح .. نحن لا نحارب امريكا اكبرقوة فى التاريخ تسعون بالمائة من المشكلة فى يد أمريكا .. لابد من تشجيع أصحاب رؤوس الاموال على استثمارها فى مصر .

وصدر القانون ٤٢ لعام ٧٤ .. وسمحوا للضبط بتقديم استقالاتهم او احالتهم الى المعاش .. وخرج صديقنا .. ثم ترقيته لرتبة عقيد ثم احيل الى المعاش بناء على اتفاق مع مدير سلاحه .

لقد اصبح الآن فى الخارج .. لم يعد التفكير جريمة عسكرية .. ارتفعت الاسعار فى بلده بعد الحرب مباشرة .. ارتفعت بشكل جنونى .. تضاعفت أسعار معظم السلع والخدمات خلال اربعة شهور .. وانخفضت القوة الشرائية للجنيه الى النصف .. وكان عليه ان يعمل .

ترى من يسمح لمهندس تخرج منذ اثنى عشر عاما قضاها يرص الغام وينشىء الملاجىء والسدود الترابية بالعمل وكان القطاع العام ملاذه .

ساله مدير عام ادارة المشروعات بشركة المقاولات عن خبرته .

كان يتكلم بخجل وحساسية .. فهو لم يعد صغيرا وفى نفس الوقت يريد العمل .. انها البداية دائمـا لتى عاناها طول عمره . عندما بدأ فى سيناء .. وعندما بدا يحفر الملاجىء .. وعندما بدأ يزيل الالغام .. وعندما بدأ يبنى السد .. وعندما بدأ العمل كمخزنجى .. وها هو يبدأ من جديد .

كان الآخر ينظر اليه بعطف وحب نكره بعيون تائهة عندما سأله عن الماركسية على شاطىء الحديدة لقد كان شابا آخر من الطليعة الوفدية .. ولكنـه لا يخـاف على اسـرته ومرتبـه ومكانتـه .. لا بل كـان يخـاف ايضـا على اسـرته ومرتبـه ومكـانته فقـد أمضى

فى السجن سنوات خرج بعدها متأخرا عن دفعته وجاهد وتعلم ليحتل مكانه ثم يتفوق ثم يتخصص .. كان أستاذا حقيقيا .. وهب نفسه لقضية شريفة ان يعلم الشباب .. وأن يحافظ على نفسه من الانزلاق بين يدى الزبانية فأنتم لا تعرفون أصدقائى معنى الاعتقال والسجن ومحاربة البشر فى ارزاقهم .. هم فقط الذين يعرفون .. من ذاق مهانة السجن .. ومن ذاق مهانة التسلط على المسجونين لقد عاش عصر محاربة اعداء الثورة الذى تكلم عنهم ضباط التوجيه المعنوى فى الدورة التى حضرها صديقنا .. لكنهم لم يحاربوا اعداء الثورة .. حاربوا اعداء الثورة المضادة .. فانتصرت الثورة المضادة مع أول ضربة لها .

لقد جردوا الثورة من حماتها .. فأصبحت فريسة سهلة لرجال الانفتاح لقد قلموا أظافر المدافعون عنها فأصبح من السهل عقد اتفاق كامب دافيد .

ومع ذلك الرجل لم ينهر .. بل قاوم فى شكل آخر .. فى خلق اجيال جديدة من الفنيين الذين يمتلكون لغة العصر .. سلاح المقاومة الحقيقى لجحافل جيوش الانفتاح .

قال له : عظيم نحن نحتاج لخبرتك هذه .. لدينا مشروع جديد ندرسه العامل الحاكم فيه الحفر فى الصخر .. اذا استطعنا ان نخفض تكاليفه ستصبح فرصتنا افضل .. هل يمكنك ان تدرس لنا تكاليف الحفر .. يمكنك مساعدة زميل مكلف بهذه المهمة .

وبدا صديقنا من مكان افضل بكثير من تصوره .. لقد بدا خبير فى موضوع لا يعرفه غيره بين جميع العاملين بادارة المشروعات .. ولكن هذه مجرد بداية عليه تطويرها كما حدث دائما .

وساعده مديره زوده بملاحظاته دون ان يشعره .. كما فعل مهندس المقاولين معه فى العريش .. ثم زوده بمجموعة من الكتب كان عليه دراستها . واستمر صديقنا .. يتعلم .. ويتعلم .. ويتعلم .

يتعلم من مساعدته لزملائه .. يتعلم من قرائته للكتب .. ويتعلم من ملاحظات رئيسه ... وهكذا مصرى دائما .. بل وهكذا الحياة دائما .. لا تتوقف .. اذا أعطيتها أعطتك واغنت البشرية .

.لقد استطاع صديقنا فى مدة محدودة أن يحصل ما فاته .. ولم يجد انه اضاع ستين عمره هباء فى القوات المسلحة .. لقد تعلم منها الكثير .. على الاقل كيف يدير عملا .

تحركت العربة الجيب فى طرقات المدينة الملتوية والممتلئة بالاطفال الصغار والنساء المحجبات لتخرج فى اتجاه الوادى .

كان يقودها نقيب من سرية استطلاع اللواء بجواره قائد سرية مهندسى اللواء .. فى الخلف على كرسيين عريضين متقابلين كان يجلس قائد المأمورية وصديقنا وبجوار قائد المأمورية شيخ يمنى والى جوار صديقنا شاب يمنى يرتدى الملابس العادية .. فى نهاية العربة جنديان من سرية الاستطلاع مسلح كل منهما ببندقية آلية .

الجو حار شديد الحرارة .. وضابط الاستطلاع يضع بجواره ترمس به مكعبات ثلج يرطب بها منديله ويمسح بها وجهه الابيض شديد الحمرة الذى يحاكى وجوه الاوروبيين .. ويتصرف بتأفف .

قائد سرية المهندسين يضحك وهو يشرح غير عابىء بوقع كلامه .. هذا الشيخ الحافى ذو الرائحة النفاذة يمتلك خمسة آلاف فدان اى ان حوالى سبعين بالمائة من الارض التى سيرويها السد ملك له .. وبذلك ستتحول من ارض للرعى الى ارض زراعية .. ثم يضيف :

الارض التى يحتلها لواء المدفعية ولواء المشاة ملكه ايضا ويؤجرها للجيش يعيد صديقنا النظر اليه وهو يبتسم فيجده يمنيا عاديا وان كان اكثر سمنه من اغلبهم . اسنانه صفراء مهشمة او متآكلة من القات والايلبس حتى صندلا فى قدميه ويخلع حزامه وخنجره احتراما للجيش المصرى .

يستكمل قائد سرية المهندسين : أما الافنــدى ده فهو مدرس ومثقف المدينة الوحيد فهو يدير مدرسة يدرس فيها من عشرة الى خمسة عشر طالبا وبالاضافة لذلك فهو مدير اعمال الشيخ لانه يستطيع قراءة عقوده واوراقه كذلك هو المستشار القانونى والتجارى لجميع أعيان القرية .

يبتسم الآخر ايضا .. يمنى عادى تكاد تبرز عظامه من تحت القميص ولكنه يرتدى شبشب زنوبة ازرق متآكل .. علق صديقنا .. اهلا وسهلا يمنى احنا مع اقطاعى ومثقف يمنى . . .

ولم يكن هذا غريبا فالاقطاع وخلدمو الاقطاع من المثقفين هم الحلفاء

الطبيعيون للجيوش المستعمرة فى اى مكان على الارض .. وبذلك تحددت هوية الجيش المصرى فى اليمن مع فارق بسيط ان الاستعمار وسيلة عسكرية لاستغلال اقتصادى وفى اليمن هم الذين يستغلون الجيش المصرى اقتصاديا.. سواء عن طريق الاتاوات كما يفعل رؤساء القبائل او عن طريق الايجارات كما يفعل شيخنا الحافى او عن طريق البضائع التى يشتريها المصريون من اسواقهم ويفرقون بها بلدهم .

اذا استرسلنا فسنصل الى اغرب نتيجة أن اليمن هو الذى يستعمر مصر .

شعر المثقف بلهجة صديقنا .. فحاول الدفاع عن نفسه .. أو التقرب منهم أو على الاقل اشعارهم بأنه يختلف عن الباقين فتكلم عن آخر شخصية يمكن أن يتوقعها أى منهم .. عن ماوتسى تونج .. ثم لينين .. ثم عن كتاب الاستعمار اعلى مراحل الراسمالية .. ويدلل عن طريقه .. يكذب الادعاءات الاستعمارية السعودية .. وتصور صديقنا لاول وهلة انه فى مواجهة شيوعى يمنى .. تعجب .. !! الشيوعية تنمو حتى فى اليمن .. ؟؟

ولكن الآخر انتقل الى الكلام عن برتراند رسل ثم سارتر فطه حسين والعقاد وصار يخلط الافكار بعضها ببعض بطريقة مضحكة .

اعتبره الآخرون يثرثر فيما لا معنى له .. ولكن صديقنا لم يترك هذه الفرصة تمر عليه ببساطة .

تجاوب معه ثم سأله — اين تعلمت هذا .. ؟؟

رد بأنه تعلمه من الصينيين .. عندما كانوا ينشئون طريق الحديدة صنعاء لقد عمل كمقاول انفار يحضر لهم اليمنيين .. ويعطونه اجرته وبعض الكتب كسب كثيرا ولكنه سافر الى عدن حيث وقع فى حب عدنية من اللاتى يلبسن البلوزة المفتوحة والسروال القصير واضاع هناك نقوده ولكنه ترا للآخرين سكت قليلا ثم شرد ببصره خارج العربة .. ثم تكلم فجاة :

رجعت الآن واعمل مدرسا .. اعلم الاطفال واحفظهم القران .. وتوقفت عن القراءة الا ما اخذه من سيادة النجيب .

توقف ثانيا عن الكلام .. ثم نظر بعد ذلك لصديقنا وقال :

— انت مش ضابط أنا عارف انت ايه .. !!

نظر له قائد سرية المهندسين وقال : لو جدع حقيقى ومثقف تعرف هو ايه !!

رد الآخر بثقة : انت صحفى .. رأيت مثلك كثيرين فى مؤتمر حرض .

داعبه قائد المأمورية : لا خابت منك دى مش مضبوط .

رد المثقف : يبقى انت المهندس .. ودول الضباط .

ضحكوا جميعا ولم يعلق أحدهم .. لانهم كانوا قد وصلوا الى المنطقة التى سيقام بها السد .. ولكن اذاعة السعودية فى نشرة اخبارها الاخيرة فى ذلك اليوم .. اذاعت أنها قد رصدت عشرة آلاف ريال بمنى لمن يأتى لها براس المهندس الذى سينشىء سد حرض .

كان يتعاطف معهم جميعا .. يوليهم اهتمامه بنفس القدر .. كان يعرف مزايا وعيوب كل منهم وكيف يتعامل معها .. لقد كان قادرا على اقناع كل منهم منفصلا وايضا قيادتهم فى توافق كمايسترو نابغ مع أوركسترا متنوع الالآت يعزف مقطوعة مركبة من اعمال باخ .

ولكن صديقنا كان له مكان خاص حاول الا يشعر به الآخرون .. لقد كان يرده الى اخصب فترات حياته بمناقشاته السياسية والاجتماعية والعامية قال له : — لقد انهزمت القوى الثورية فى مصر .. لابد من الاعتراف .. انتهى المد الاشتراكى .. ولا أمل .. لقد فرضت أمريكا واسرائيل شروطهما وقبلتهما القيادة السياسية .. ان توقيع كامب دافيد بمثابة توقيع وثيقة استسلام نهائى رغم كل محاولات التجميل واظهاره على انه انتصار .

صمت قليلا ثم اشار بيده وكفه :

علينا ان كنا نريد الا نغرق فى الطوفان ان نتوقع الآثار المترتبة على ذلك .. كان يعدد له الاثار بنفس الطريقة التى يحلل بها بنود عطاء لتقدير سعره .

— اول هذه الآثار .. القضاء على المكاسب الاشتراكية أو تجميدها أو تفريغها من مضمونها .. وسيعانى القطاع العام الكثير من ذلك .

— بعد التجميد ستغرق الدول الصناعية السوق بفائض منتجاتها .. من كل نوع وصنف ومستوى وسعر .. فى البداية ستكون الاسعارمنافسة للمنتجات المحلية وبعد ان تقضى على الصناعة المصرية سترتفع الأسعار تدريجيا بشكل لا يمكن تصوره .

علينا أن نستوعب دروس التاريخ عبود باشا خفض سعر الكحول الى مليم للتر .. كان هذا السعر اقل من التكلفة .. عندما اغلقت جميع المصانع المنتجة للكحول رفع سعره الى عشرين مليما .. لقد احتكر السوق .

ثم اكمل نقاطه :

ـ سيتغير الهيكل الاقتصادى . الزراعة ستضعف .. الصناعة ستنتهى ولن يبقى الا التجار والوكلاء والسماسرة .. اى ان البناء التحتى للمجتمع سيصاب بالضعف والتحلل .

ـ وسيعقب ذلك تغير البناء الفوقى .. القوانين ـ التقاليد ـ الفن ـ الادب ـ الثقافة ـ الذوق العام .

سيطفو على السطح كل ما هو غث .. وسينتحر الشرفاء .. لن ينجو فرد واحد من الطوفان .. سنغرق جميعا .. تذكر . .

كان صديقنا ينظر اليه مندهشا .. لماذا يخصه بهذا التحليل .. !! وفى هذا الوقت .. !!

اجاب الآخر دون ان يسأله صديقنا ـ ان علينا واجبا .. لا معنى للاشتراكية الآن .. ان معركتنا معركة وطنية عليها ان تضم كل من هو شريف على هذه الارض بغض النظر عن تركيبته الطبقية .. علينا ان نواجه المد العالى للثورة المضادة وباسلوبها .. اعادة النظر فى كل النظريات السابقة .. سكت قليلا ثم امسك القلم وبدا يخطط على الورق هناك بناء تحتى سيتم تدميره بواسطة المنتجات الجاهزة الصناعية والزراعية علينا ترميمه بانشاء صناعة مصرية بدعوة كل المصريين للعمل ولكن باسلوب جديد باستيعاب لغة العصر من ادارة وتنظيم .. كل ما فعلته اوروبا وامريكا لا يزيد عن ثورة فى الادارة والتنظيم واستخدام الحاسب الآلى هو اداته .

وهناك بناء فوقى سيتمزق بذوق وتقاليد التجار .. وباستيراد علاقات وفنون الغرب المعبرة عن التمزق .. بعضها سيتم انشاؤه للتصدير لنا خصيصا .. ان الغرب سيصدر لنا ازمته يا صديقى .

وعلينا أن نواجه البناء الفوقى المترهل الممزق بنسج ثوب جديد يناسب المرحلة الجديدة .. أن التنوير شعار لابد أن يسود هذه الفترة .

كل من يتكلم عن الاشتراكية والشيوعية والسلفية والديكتاتورية وما شابه لا أود أن أقول خائن ولكنه لا يستوعب الموقف جيدا .

كان صديقنا قد توصل الى اجزاء من هذه الأفكار فلم تصدمه .. ولكن الذى حركه وحمسه هو الحل العملى الذى قدمه رئيسه بعد ذلك .

قال : علينا من الان الاستعداد للبلدوزرات الكاسحة .. للشركات العملاقة القادمة لتسوى بنا وباقتصادنا وبنائنا الفوقى والتحتى الأرض .

علينا ان نتعلم لغة المستقبل (الادارة والتنظيم والكومبيوتر) .

وانا رغم سنى هذا وتجربتى سأبدأ معكم .

واقتنع صديقنا لقد قضى بعد ذلك معظم وقته فى دورات وتدريبات يدرس ابجدية الادارة الحديثة والاقتصاد .. وطرق الانشاء .. والبرمجة والكومبيوتر .

لم يكن الوحيد الذى يفعل هذا ان طاقم ادارة المشروعات بقيادة مديره الذى اقنع ادارة الشركة بوجهه نظره كان كخلية النحل .. تدرس وتحاول التطبيق .. تفشل مرات ثم تنجح .. حتى أصبحت الادارة نموذجا جديدا استوعب مفردات لغة العصر وتشرب بالواقع .. ثم مزج الاثنين ليخرج بتغيير نوعى .. ادارة مصرية حديثة .. ولكن الطوفان لم يمهلهم .. لقد صدقت رؤية المدير وبدأت البضائع الأجنبية تفد وخلفهـا الشركات .. وخلفها المعونات .. وبدأ البناء الفوقى يتغـير .. أصبحت العمولة والرشوة والسمسرة والكسب السريع قيم المجتمـع الجـديد .. الذى لفظ خليه ادارة المشروعات كما يلفظ الجسـد جسما غريبا .. لقد بدأ القطاع العام فعلا يتغير .

وقفوا فوق تبة صغيرة وسط المضيق الذى سوف يغلقونه . عن يمينهم مسافة كيلو ونصف مترا وعن يسارهم مسافة أخرى حوالى نصف كيلومتر المضيق يفصل واديين متسعين تحفهما الجبال من الجانبين .. أى أن طول السد المطلوب كيلو متران اذا تم غلقهما ستصطدم به المياه القادمة من اعلى جبال اليمن وتخزن ثم تتحول الى جانب آخر يصل بها الى ميدى عبر طريق حفرته السيول من قبل عندما كان هناك سد .

كان مثقف القرية يتكلم عن الدوافع القومية والعربية والنـاصرية

التى ستجعلهم ينشئون السد .. ويتعهد نيابة عن أعيان البلد بتوفير الظلة والماء البارد للمهندس والضابط طول مدة العمل .

وكان الآخرون يحسبون بشكل ابتدائى حجم العمل المطلوب .

قال قائد المأمورية : اذا تصورنا اننا سنكوم أتربة فقط بدون تشكيل لجسم السد وحساب لقلبه أو الاعمال الفنية الأخرى فمطلوب تكويم ألفى متر طولى بعرض عشرين وارتفاع خمسة أمتار أى حوالى .. حوالى مائتى ألف متر مكعب .. وبالتالى مطلوب حفر هذه الكمية وأخراج الطفلة.

قال قائد ثان المأمورية : لدينا بلدوزران على كاوتش أنتاجية كل منهما فى اقصى حالاته بدون عوائق او مشاكل مائة متر مكعب فى الساعة بمعنى الف متر مكعب اذا عملنا عشر ساعات فى اليوم .. أى ألفى متر مكعب يوم للبلدوزرين مقسومة على أربعمائة الف فنحن نحتاج الى مائتى يوم عمل أى حوالى أربعة شهور .

ضحك قائد سرية المهندسين فلقد كانت هذه تقديراته ثم أضاف : اذا كانت المدة المتيسرة قبل موسم الأمطار شهرين أو شهرين ونصف على الأكثر .

ضحكوا جميعا ثم قالوا يصبح من المستحيل انشاؤه .. أو تتضاعف المعدات كان مثقف القرية يتابعهم ويحاول أن يفهم ما يقولون فقد كانت التركيبات والاصطلاحات الانجليزية التى امتلأت بها المناقشات تربكه .. لقد تصور انهم يعدون لصعود القمر وليس لبناء السد .. حاول أن يترجم للشيخ المصاحب له . .ولكنه فشل .

كانت ابتسامة لا معنى لها لا تفارق وجهه حتى وصلوا الى نتيجة انه من المستحيل انهاء العمل قبل السيول بمعداتهم فأصيب بخيبة أمل .. تداول بعدها الحديث مع الشيخ بلهجتهما ثم قال : انهم مستعدون لمساعدتهم بمائة رجل كل يوم ومعهم بقرهم وزخافاتهم .. ضحكوا جميعا ولم يجيبوا .

فى مقر السرية كان المقدم فى انتظارهم ..

عندما أطلعوه على نتائج استطلاعهم .. ومطالبهم (فلقد طلبوا حفارا أماميا بكباش وبلدوزر آخر على كاتينة وعربتين قلاب ..) .

اعتبرهما يحلمان .. فمن اين سيحضر هذه المعدات وكيف سينقلها ظل ساهما لفترة ثم سألهما عن المسافة بين مقر سرية المهندسين ومكان السد عندما عرف انها حوالى خمسة عشر كيلو مترا .

اقترح ان ينشئوا معسكرا بجوار الموقع فيوفرون وقت الذهاب والعودة ويعملون كل ساعات النهار المنيرة ..

ولم ترق لهما الفكرة .. فهى ستوفر حقا الوقت ولكنها ستفقد الامداد الادارى وستجعلهم لقمة سائغة للقوات السعودية او المتسللين وستزيد الجهد البدنى للجنود اثناء حراستهم للموقع ليلا .

واستمرت المناقشة طول الليل .. وكل طرف مصر على وجهة نظره .

فى اليوم التالى صباحا ذهبوا جميعا الى الموقع ومعهم المعدات والجنود وبدأوا يجربون الطرق المختلفة للانشاء . وكل من ثلاثتهم يحاول أن يبتكر ويعدل .. فى البدء كان الانتاج غير مشجع فكفاءة البلدوزرات التى تتحرك على كاوتش كانت منخفضة واقل حتى من حساباتهم الابتدائية سواء فى الحفر او رفع الاتربة .

وبمرور الوقت وتعديل طرق العمل حدث تقدم بطىء حتى استطاعوا فى نهاية اليوم حفر وتشكيل عشرة امتار فقط من السد .. كان معنى ذلك انهم بحاجة الى مائتى يوم عمل اى حوالى ثمانية شهور واصبح اتمام السد قبل سقوط الأمطار بهذا الشكل عملا يائسا .

فى المساء .. جلسوا امام الخيمة المنصوبة حديثا يقلبون الامر .. كان قائدا المأمورية قد اصابهما اليأس .. ولكن قائد الكتيبة كان متحمسا يصر على انهاء السد فى المدة المحددة .. كان الآخران ساخطان .. انهم يتداولون الأوراق والأوامر فى ثلاثة أو أربعة شهور ثم يطلبون منا التنفيذ فى شهرين . وكان القائد ولأول مرة دائم الابتسام فخبراته كانت ترشده ان العقبات الابتدائية هى طبيعة الاشياء .. والاصرار والتغلب عليها هى طبيعة البشر .. كان يقول لهما لا تيأسا إن المعدلات الحقيقية لم نصل اليها بعد وفعلا وفى اليوم التالى انجزا عشرين مترا بقليل من التنظيم والتدريب وزاد حماسهما .. اذا انتظم الموقف أكثر قد يرتفع المعدل .. وارتفع المعدل فعلا الى خمس وعشرين وبدأت لهجة التشكيك تختفى

وبدأ الأمل يغزو مفردات أحاديثهم ثم اقتنعا بانه من الممكن أن ينهوا العمل فى المدة المقررة ثم تعهدا بانهاء العمل فى المدة المقررة بشرط الا يقيما المعسكر بجوار العمل .

كان قد مضى اسبوع تأكد القائد فى نهايته أن رجاله قادرون على نسوا انهم يعملون مع رجال لهم طاقتهم وحالتهم النفسية وحماسهم انهاء المهمة فتركهم وعاد الى مقر الكتيبة بالحديدة .

اقتنع الضباط بامكانية انهاء العمل فى الموعد المحدد .. ولكنهم وياسهم ان الحساب بطريقة معدة ساعة أو رجل ساعة تفترض أن الانسان يمكن التعامل معه بنفس درجة الثقة التى يتعامل بها مع الآلة .

وهذا هو موقف الادارة الأمريكية اذ انها تحلل كل شيء .. الحالة النفسية والاقتصادية والاجتماعية للعامل وانتصالاته السياسية وتأثير الحرارة والضوء والفصول والموسيقى وعدد ساعات العمل على انتاجيته أى كل ما يتصل بالانسان سواء ما يشعر به أو لا يشعر به ثم تقدم كل هذه البيانات للكومبيوتر .. وتستنتج معدلات قياسية لكل نوع من العمل ولكل منطقة او مجموعة من السكان وبالتالى يمكن الاعتماد على هذه البيانات فى دراسة معدلات انتاج البشر بنفس درجة الثقة التى تحسب بها معدلات انتاج المعدات والآلات ..

ولكن فى شرقنا العظيم عليك ان تعتمد على التجربة والخطأ وحساسيتك عندما تتعامل مع البشر .. لتضمن سيولة الانتاج .. قد تنتج فى يوم أقل من المعدل وقد تنتج فى يوم أعلى كثيرا من المعدل .

وهذا ما حدث مع الرجال .. انخفضت معدلاتهم وهم يشاهدون قادتهم يتخبطون فى بداية التجربة .. ثم ارتفعت معدلاتهم عندما كان قائد الكتيبة يغذيها بحماسه لتنخفض ثانيا بعد رحيلة .. وبدأوا يتلكئون صباحا عند الاستيقاظ ويتعجلون العودة ويطيلون الراحة اثناء العمل ..وانخفضت الانتاجية من خمس وعشرين الى ثمانية عشر الى عشرة أمتار .

تصدى قائد المأمورية للموقف . .وقع جزاء على أحد الصف ضباط السائقين للبلدوزر وارتفع المعدل قليلا ولكنه لم يصل أبدا للخمس وعشرين مترا واستلهم صديقنا تجربة القسيمة .. أشترى معزة من نقوده الخاصة ثم أقام فى المساء حفلة سمر .. قاطعها قائد المأمورية .

خول المعزة المشوية التى يتخاطف لحمها الضباط والصف ضباط والجنود بدأت المواهب الكامنة فى أى مجموعة تلتقى عشوائيا فى الظهور وارتفعت الضحكات ثم الغناء والرقص والمنولوج والنكت والضحك والموال .. ثم حديث ..

سألهم صديقنا .. من هو الرجل ؟؟

قال احدهم — من يكسب جيدا ؟.

رد — النساء والأطفال والشواذ والعاهرات يكسبون اكثر .

قال آخر — الحمش اى الذى يحترمه الناس ويهتمون برأيه ويخافونه .

رد — الأسد أكثر قوة من اى انسان .

قال آخر — غير المخنث .. ذو الشارب والعضلات المفتولة .

رد — هناك رجال عظام مظهرهم ابعد ما يمكن عن الرجولة .. جيفارا كان طويل الشعر .. غاندى كان نحيفا ضعيفا .. اغلب القادة بدون شوارب او عضلات .

سأله احد الصف ضباط لينهى الحديث — اذن فمن هو الرجل ..؟؟

— هو الذى يعمل ويعمل جيدا .

وفى لمح البصر تحولت كل العيون تجاه الكسالى .. وضج الجميع بالضحك .

وتفجر الحديث بعد ذلك عن السد وامكانية انهائه فى موعده .

كان صديقنا يشرح ببساطة وهدوء ما اقتنع به .. وكان واضحا من كلماته وردوده الصادقة .

لقد كانت تجربة مدرسة التوجيه المعنوى لازالت ترشده .. الحرية والمواجهة والمناقشة حتى الاقتناع بكل الصدق بكل الحرية .. وتصاعد الحديث وتشعب لمدى تخلف وفقر اليمنيين .. وربط الجنود بين ما يتوهمون به وما يمكن أن يحدثه من تأثير على انهاء فقر وتخلف اخوة لهم .

فى نهاية الليلة .. كان كل منهم قد وعى تماما الدور الحضارى والانسانى الذى يساهم به .. ونام صديقنا فى هذه الليلة .

ارتفع المعدل بعد ذلك حتى وصل الى الخمس وعشرين مترا ثم تجاوزوها ولكن للأسف توقفت الماكينات .. وكان من الصعب اقناعهما بالدور الحضارى والانسانى الذى تقوم به .. لقد اهملوا الصيانة .. وسرقهم حماسهم فلم يعالجوا الاعطال فى بداية ظهورها .. وتعطل البلدوزران احدهما ثم الآخر وانقطع هدير المكن .. ووقفوا .

كان السد قد اصبح حياته .. كان يستعذب الوقوف فى الشمس يرقبه يكبر ويكبر .. وكان لصوت هدير البلدوزرات وهى تقطع الأرض وتكومها وترفعها وقع السيمفونية .. كانت سيمفونية رائعة ممتعة تمجد العمل والانسان والحياة وكان قد عشق صوتها وعشق الوجوه السمراء المبللة بالعرق والتراب .

وكان للصمت الذى جثم على الموقع أيضا صوت ولكنه صوت الموت واليأس والاستسلام وقرر امرا .. قرر أن يبنى السد بأيديهم بالكوريك والازمة والغلق .. قرر ان يحفره ويخلطه بالعرق والتعب .. عندما اعلن هذا قابلوا الامر باستغراب .. باستخفاف .. ماذا سيفعل حفنة من الرجال بدون المعدة .. ما سيحفرونه فى يوم يؤديه البلدوزر فى جرة واحدة .. ومع ذلك اصر صديقنا .

بالرومانسيته انه هو نفسه لم يتغير ابدا يهرب الى الأحلام كلما واجهته مشاكل الحياة الصعبة .

تكاسل الرجال وهم يحفرون .. وهم ينقلون التراب .. وتمرد احدهم لمكان يتنقل بالغلق نصف ممتلىء .. كان شابا أسمر من الصعيد يحمل كل شهامة المصرى الصعيدى وفى نفس الوقت طريقته فى مقاومة السلطة بالتخريب والسلبية . لم يجرؤ على الرفض ولكنه أيضا لم يعمل بحماس وانتقلت سلبيته الى الآخرين .. ناداه صديقنا اخذ منه الغلق قائلا هذا شرف لا يقوم به الا الرجال .. حمله على كتفه وعمل بينهم .. وقف الشاب فى البداية مندهشا .. زاد حماس الرجال .. وقف الآخر وحيدا بدون عمل .. لم يستطع ان يتحمل الموقف .. حاول استرضاءه ليعاود العمل .. رفض صديقنا .. حاول أن يعتذر .. ثم يسترضيه ..

واخيرا سلمه الفلق بعد ان تعلم كلاهما درسا .. فلقد تعلم الشـــاب ان قيمته لا تنبع الا من العمل .. وتعلم صديقنا الا يعذب نفســه ورجاله بفكرة رومانسية غير قابلة للتحقيق .

لذلك فبعد ان انتظم العمل انهاه وعاد لمقره بالمامورية يبحـــث عن وسيلة اخرى .

الفصـــل الســـــابع عشر

عندما حيا الضيف الجالس عند رئيسه يتناول القهوة .. لم يكن يتصور انهما سيؤثر كل منهما فى حياة الآخر أبلغ تأثير .. كان مقاول باطن وكان يتكلم عن الادارة الحديثة والبرمجة وحسابات التكاليف والمتابعة عن طريق مراكز التكلفة وكان صديقنا ينظر له بدهشة .. فمقاولو الباطن لا يتكلمون عن الادارة الحديثة .

فمنذ تأميم شركات المقاولات كان مقاولو الباطن رؤســـاء أنفـــار تم ترقيتهم بالأقدمية ليصبحوا مقاولين معظمهم يجهل القراءة والكتـــابة وكل ميزتهم انهم يعرفون كيف يقتسمون أرباحهم مع مديرى التنفيذ المشرفين عليهم . لقد تم تكليف جميع المهندسين ولم يسمح الا للقليل منهم بالعمل الحر ولم يكن امامهم وسيلة الا مشاركة رؤساء الأنفار وتحـويلهم الى مقاولين كان عددهم كبيرا لأنه لم يكن مسموحا بحجم عمل يزيد عن مائة الف جنيه للمقاول الواحد خلال العام .

وكان لكل مدير تنفيذ عشرات من المقاولين يعملون معه .

ومع الانفتاح وفى بدايته زاد حجم العمل لبعضـهم وتضخموا لدرجة انهم ثاروا على صانعيهم وصنعوا هم مديرين يكلفونهم بالعمل لقاء نسب من حجم العمـــل أو مكافآت محدودة .

شعر الضيف بنظرات صديقنا ودهشته .. فبدأ يشرح له .. ان عملية المقاولات مرت بتطورات مختلفة .. بدأت منذ القدم .. عندما كان لكل صناعة شيخ وهو المسموح له باعطاء الترخيص للعاملين لمزاولة المهنة وكانت الأعمال بسيطة ومحدودة .. وفى الانشاءات الكبيرة كان يعمـــل اكثر من شيخ فى اكثر من نشاط .

وتطور الموقف بعد انتهاء نظام شيوخ الحرف فأصبح الشيخ معلما وتعدد المعلمون واصبح لكل معلم صبيان .. وظل هذا النظام قائما حتى الآن . رغم أن شركات كثيرة تعدى حجم عملها الملايين وموظفوها يعـــدون بالمئات ومن جميع التخصصات الا انها تدار بطريقة المعلم .

رئيس مجلس ادارة يجمع فى يده كل الانشطة والقرارات ويحمـل نفسـه كل المسئولية والباقون صبيان ينفذون تعليماته دون مناقشة .

الشركة التى بها معلم قوى تصبح شركة ممتازة والتى معلمها ضعيف تذوى .. والمعلم هو المسئول عن ترسية الأعمال .. وتوفير السيولة النقدية ودراسـة المشاريع وشراء المعدات والمواد .. وتشغيل مقـاولى الباطن وصرف المستخلصات ومناقشة العملاء حتى تسليم المشروع .

هذا النظام يصلح للأعمال الصغيرة والمحدودة التى يستطيع أن يلم بتفاصيلها فرد واحد .. ولكنه لا يصلح للأعمال الكبيرة والمركبة .. التى يجب أن يتصدى لها نظام .. ومجموعة من المتخصصين .. وبرامج متابعة اى ادارة حديثة .

فى الادارة الحديثة تتحول المقاولات من اعمال حرفية صغيرة الى صناعة بكل ما تحمله الصناعة من معنى خطوط الانتاج والانتظــام .. وبالتالى على وسائل وطرق وعلاقات الانتاج ان تتغير .. انكم هنا تعملون بطريقة المعلم ولكن البركة فى العقول المتفتحة .. لقد خطوتم خطوة واسعة فى طريق تصنيع المقاولات وادارتها بلغة عصرية تتناسب مع التطــور السريع فى العالم كان الرجل يتكلم بجدية وايمان .. وشعر صديقنا انه لم يقل كل ما عنده أن ما قاله هو عناوين يمكن ان يدرج تحتها مناقشات طويلة .

كان مدير الادارة يتابع المناقشة باهتمام .. وكان قد بدأ يشـــعر بريح التغيير فى الشركة .

نظر الى صديقنا بحب وسأله ــ أنا طلبتك لكى اعرف كل منكمـا بالآخر . الاستاذ صديق قديم وهو من مقــاولى البــاطن المتخصصين فى تركيب اعمدة ومد شبكات الكهرباء الضغط العالى والمتوسط والمنخفض . وهو قد حصل على عملية فى العراق حضر لى كى ارشح له مهندســا

ممتازا ليكون مدير فرع شركته هناك وينفذ المشروع .. ولقد رشحتك .. (مد يده موقفا اياه عن الاعتراض) . رغم اننى اعرف ان مد شبكات الكهرباء بالنسبة لك كالطب مثلا .. لا تعرف عنها شيئا ولكن الموضوع ابسط من ذلك .. انه ادارة وتنظيم .. وانت على درجة كفاءة عالية فى كليهما .. تدربت عمليا فى القوات المسلحة .. واستكملت النظرية معنا .. لا أريد اجابة الآن .. ولكن فكر .

أخرج الآخر كارت من حافظته وسلمه اياه .. وقال نتقابل الاسبوع القادم فى مكتبى الساعة الخامسة مساء .. أنا تشرفت بمعرفتك ياباشمهندس .

لم يكن يتصور ان الامور سوف تتطور بهذا الشكل وبهذه السرعة فلقد كان ضد فكرة السفر للعمل بالخارج .. وهو ايضا لا يمكنه أن يتقبل ادارة عمل لا يعرف طبيعته .

ولكنه سافر للعراق .

لقد قال له — كل ما أريده الشرف والرغبة فى بذل الجهد وقوة الاحتمال . الناحية الفنية يمكن شراؤها بواسطة المستشارين من اى مكان فى العالم .

.. اتفقا .. استقال .. وقع عقدا معه لمدة عامين .. ولحق به فى بغداد .

استقبله الشيخ بترحاب فى منزله .. رغم الجنديين المصاحبين له ورغم بنادقهما المسددة له استعدادا للرد الفورى على اى محاولة اعتداء .

قدم له شرابا مثلجا مستوردا شربه رغم تحذيرات الأطباء من الدودة الأثرية . فهم يقولون أن هناك مرضا أثريا انقرض من العالم سمعوا عنه من كتب تاريخ الطب — عن دودة تسرى مع الدم وتخترق الجلد فى مواقع مختلفة ولا علاج لها الا لفها على عود كبريت كلما خرج منها جزء على الا تقط والا تكاثرت وهذا المرض ينتشر عن طريق بيض الدودة الموجود بمياه الآبار فى هذه المنطقة .

طلب منه امداده باليمنيين الذين وعده بهم لمساعدته .

ووعده الآخر بخمسمائة يمنى ليعملوا معه فى اليوم التالى .

توافد اليمنيون على الموقع .. أعداد كبيرة ولكنها لم تصل للعدد الذى وعد به وبمجرد حضورهم انتشروا فى الموقع بين الرجال .. وأحاط كل جندى عدد منهم .. وانطلقت الضحكات وحلقات السمر .. كان من الصعب السيطرة على الموقف .

لم يرفض صديقنا الحوار .. فهم (أى جنود سرية المهندسين) افضل من قدم الى اليمن .. لقد جاءوا للتعمير .. ولا يعقل أن .

ولكنه تذكر تحذير القائد من انه قد يندفع خلف فكرة ما وينسى الأمن فصل جنوده وبتعليمات محددة لرقباء السرية منع اختلاطهم باليمنيين ثم حاصر الموقع بمجموعة منهم للحراسة مستعدين للاشتباك .. وطلب من زعماء القبائل المصاحبين للعمال تجميعهم فى مجموعات عمل لكل مجموعة واجب محدد .

عندما انتظم الموقع وبدات الثيران تجر الزحافات وتقطع الأرض وتكومها وقف صديقنا يحيطه جندياه الحارسان يتكلم مع بعض زعماء القبائل .

كان احدهم شابا طويلا نحيلا أسمر ذا رائحة نفاذة وله شعر طويل مسترسل كعادة رجال قبيلتهم .. داعبه الحارسان .. فوجدا فيه انسانا أكثر بساطة منهما فبدءا يصفان له التليفزيون والعمارات والأسانسيرات والقطارات بشكل ساذج ومضحك .. يزيد من طرافته انعكاسه على الرجل .

كانا يصفان التلفزيون بانه صندوق يخرج منه الرجال والنساء يرقصون ويغنون والعمارة على انها منازل بنيت الواحدة فوق الأخرى .. والأسانسير صندوق تضغط عليه فيرتفع .

كان الرجل مبهورا بما يقصانه عليه .. وكان يسأل الضابط فيصدق على كلامهما بمرور الوقت تسيب الموقف ثانيا .. تجمع بعض اليمنيين وبعض الجنود خلف العربات يتحدثون ويضحكون بصوت منخفض حتى لا يشعر بهم الضابط ووجد ان الموقف ميئوس منه وانهم لن يتقدموا وانما يعرض رجاله للخطر .

فجمعهم وحيا اليمنيين واستعد للرحيل .. عندما جرى خلفه

الشاب الطويل يرجوه أن يتوسط لدى الحكومة اليمنية لتسمح له بالسفر الى مصر لكى يرى السيدات البيضاوات الخارجات من الصندوق يرقصن ويغنين .

عندما سأله صديقنا .. واين ستقيم وكيف ستعيش .

رد عليه اغرب رد .. قال له ـ عندك .

عندما عادوا الى المعسكر وجدوا ان مجموعة اصلاح قد حضرت من الحديدة ونجحت فى إصلاح البلدوزرين .. تقابلتهم فرقعة الموتورات .. لتعود سيمفونية العمل ثانيا ومن أعلى العربات كان الجنود يرقصـون ويهللون .. ويقفزون ليحتضنوا رجال الاصلاح .. فالبلدوزرات بالنسبة لهم لم تعد ماكينة حديد وانما اصبحت كائنات اسطورية رائعة يحققون بها ارادتهم فى التغيير .

فى بغداد كان عليه أن يبدأ من معرفة الواقع .. بدا بدراسة العقد ودراسة المواصفات ثم بمناقشة بعض الخبراء الذين احضرهم الباشـا وهذا هو اللقب الذى اطلقه عليه اصدقاؤه .

كان الموضوع ابسط من خيالاته .. انه حفر مكان للعامود ثم رفعه وتركيب كابولى اى ذراع أعلى الأعمدة .. وتركيب عوازل .. وشـد السلك .. واطلاق التيار .. أنشطة محدودة واضحة .. كانوا سيحفرون بحفار مثل البريمة ويرفعون الاعمدة بالأوناش بعد تركيب الذراع عليهـا والعوازل ثم يسحبون السلك ويركبونه بواسطة فرق متخصصة .

انتاجية العـربة المركب عليهـا البـريمة والونش كانت لـدى من استخدمها قبلهم من خمسة الى ثمانية اعمدة فى اليوم .

وطبق صديقنا ما تعلمه فى السد .. تجربة اولى .. متابعة سـير العمل تعديل طرق الانشاء .. زيادة المعدلات .. تدريب العاملين .. ثم بتركهم للعمل .. بعد مدة تهبط معنويات العمال والمشرفين .. يقيم حفلا لهم ويناقشهم .. ويعدل من نظام حياتهم ويعـودون للعمـل .. نفس التجربة . ولكنها أدهشت الباشا لقد ارتفع معدل حفر وتركيب الأعمدة الى عشرين وخمس وعشرين عامودا فى اليوم بواسطة عربة واحدة .

وبدأ يتعلم كيف يخطط لبرنامج .. ثم كيف يعدله حسـب تغـير الموقف .. هنالك تنقص الأعمدة .. تعدل البرامج .. هنـاك نقص فى

الأماكن الصالحة للتركيب تنقل الفرق . كل ـ ماتعلمه طبقــة ولكن كانت هناك مشكلة للقائمين بفرد وسحب وتركيب السلك أتوا بها من مصر .. معلم ومجموعة من الصبيان .. فرضت أتاوات عليه .. ورفض الاستسلام وتعطل العمل .. لجأ للباشا .. لمفاوضة المعلمين الذى استسلم لطالبهم وبدأ العمل يتقدم ولكن ببطء لقد كان صديقنا متأكدا انهم يعلمون حساسية الموقف .. لذلك فلقد ذهب للقاهرة وعاد بفرقتين آخريين .. وبدأ العمل يتقدم .. ليتوقف ثانيا .

طلبه قائد سرية الاستطلاع .. كان فى خيمته الشيخ ويمنى آخــر وكان على باب الخيمة بلدوزر على كاتينة مترب ومظهره يدل على الاستهتار فى اســـتخدامه .

استقبله الشيخ بالأحضان .. ثم قدم له اليمنى .. انه ســائق البلدوزر الواقف فى الخارج وانه بعد مباحثات ومناورات طويلة مع الحكومة اليمنية استطاع أن يحصل عليه لمساعدتهم وطلب منه استلامه .

كاد قلبه أن يقفز فرحا .. لقد ازدادت فرصة انهاء العمل قبــل السيول بالقادم الجديد . تفحصه . .كان يمنيا تقليديا مع فارق انه يدخن بشراهة وعيناه غير مستقرتين ويتكلم بعصبية .

سأله — أين تعلمت ادارته .. ؟؟

رد — مع الصينيين على طريق الحديدة صنعاء .

احتفل به الرجال .. أعطوه سجائر وطعاما ومياها .. وحبــا فى نفس الوقت . ولكن صديقنا كان حذرا لم يتصــور انه قادر على ادارة البلدوزر .. ولكنه خيب ظنه عندما بدأ يعمل لقد كان ماهرا جدا .. عمل معهم يومين وفى اليوم الثالث ترك البلدوزر وهرب .. وحل محله احــد الصف ضباط .

كان العراق فى ذلك الوقت هو البلد العربى الوحيد الذى يمكن لاى مصرى أن يذهب اليه بدون تأشيره دخول .. ولذلك فلقد امتلأ بالمغامرين الهاربين من تدهور الحالة الاقتصادية والساعين الى اللحاق بســباق التطلعات الطبقية .. كل منهم يقترض اجرة السفر ويركب الطائرة .. وفى بغداد يكتشف أن العمل ليس فى انتظاره وان الذهب ليس ملقيا على الأرض فى الشوارع وتختفى الدولارات المحدودة فى لمح البصر ثم يبحث

عن اى وسيلة تتيح له فرصة أكل ثلاث وجبات والنوم بعدها فى مكـان مغلق .

ويعرض نفسه فى سوق العمل بقروش ويستغلهم الفرنيون والتجار وينتشرون فى طول العراق وعرضه .. يمكنك أن تجدهم فى أقصى قرى الجنوب بنفس القدر الذى تجدهم فيه بأقصى قرى الشمال .

وكانت الشركة التى يديرها صديقنا قد بدأت فى الانتشار أيضا : ورغم أن خمس أو ست شركات مصرية كانت تعمـل فى ذلك الوقت فى مجالات شتى من الانشاء إلا أن شركته الوحيدة التى كان يطلق عليهـا الشركة المصرية وكان سائقو التاكسيات يتدفقون أمام بوابتها بعشرات من المصريين يوميا الباحثين عن عمل أو ثلاث وجبات ومكان للمبيت .

فى البداية كانت رومانسية صديقنا تدفعه لمساعدتهم .. ولكن زاد الامر تعقيدا فتحركت نزعته العملية .. ولم لا يعملون فى فرد وشدوتركيب السلك اختار عددا منهم شبابا وحاصلين على مؤهلات متوسطة دبلـوم صناعة زراعة تجارة .. وطعم بهم فرق شد السلك التقليـدية .. كان يراقبهم ويهتم بمن يتقدم منهـم وبعد فترة اقصر من تصـوره كـان فى استطاعته أن يكون من مجموعة منهم فرقة منفصلة رغم اعتراضات رؤساء الفرق التقليدية تقدمت الفرقة تحسن انتاجها وزاد وبعـد مدة كانت الدافع لباقى الفرق التقليدية لزيادة انتاجها حتى لا يغلبهـم (شـوية الافندية) .

بمرور الوقت انقسمت الفرقة لفـرقتين .. فاربع فرق .. حتى اصبحت معظم الفرق التى تعمل فى هذا النشاط من شباب المتعلمين .. واختفت ظاهرة تأخر شد السلك فى الشركة .

كان للبلدوزر الثالث الفضل فى سرعة تقدم العمل بشكل لا يمكن تصوره لقد كان المعدل قد ارتفع من خمس وعشرين مترا يوميا الى اربعين مترا قبل وصوله .. ثم ارتفع الى مائة بعد أن بدأ المشاركة فى العمـل وازداد حماس الرجال .. النصر يلهب الحماس ويقود الى مزيد منه وايضا التجربة ترفع الكفاءة .. وقسم قائد المامورية وصديقنا عبء الاشراف عليهما بالتبادل .. لقد اصبح عملهما .. مجرد مصـاحبة الرجـال وتحديد الأهداف لهم .. وكانت المامورية تعمل ورديتين احداهما صباحا من الخامسة حتى الحادية عشر على الاكثر .. ثم من الرابعة ظهرا حتى السابعة وكان لهم روتين خاص .

فصيلة من الجنود بجسات ومكتشفات الالغام تسبقهم للتأكد من خلو

الطريق من العوائق . عربة الجنود خلفها ثم البلدوزران .. ثم عربة أخرى للجنود وبذلك كانت وحوشهم الأسطورية فى حماية كاملة .. ولم ينسوا ابداً نصائح قائد الكتيبة . الجنود وجوههم للخارج .. فى أيديهم بنادقهم فى مقدمة العربة جندى حاملا رشاشه كل منهم على رأسه خوذته عدا الضابط .. كان منظرهم يثير الضحك .. ولكن لم يحدث فى يوم أن حاول أى متسلل أو يمنى الاعتداء عليهم .

وانتهى السد .. هكذا ببساطة .. لقد أصبح أصدقاؤنا أسطورة فى ذلك المكان .. وكان جندى المهندسين يسير رافعا رأسه بين باقى الجنود فهو من بناة السد .

ولم تسقط الأمطار فبدأوا يحسنون فى الموقف .. عمقوا المجرى الذى صنعه السيل .. عندما كان هناك سد من قبل ليضمنوا سهولة انسياب المياه الى ميدى .

صنعوا سدودا صغيرة توجيهية اى لتوجيه المياه .. وهم يعرفون أن السيل سيقضى عليها بعد فترة ولكنها لمجرد توجيه الماء حتى يتحدد المجرى النهائى . ولم تسقط الأمطار .

اصبحوا فى قمة القلق .. لقد أنشأوا السد .. وهم فى انتظار أن يصمد كان أكثرهم قلقا قائد السرية فهو الذى صمم السد قلبه من الطفلة وغطاؤه من التربة النفاذية .

وزار قائد الكتيبة الموقع لساعات لمجرد الاطمئنان .. حضر بطائرة الصباح وعاد بطائرة الظهر .. يهمس فى اذن صديقنا لقد توصى لكما بنوط حسن اداء الواجب وسيرقى الصف ضباط استثنائيا .

الحرارة ترتفع المطر ينهمر .. يزداد انهماره .. يتفون عرايا تحت المطر فالجو حار .. يضحكون .. المياه تزحف من اعلى الجبال .. عبر المجرى ببطء .. تكون بركا صغيرة منفصلة .. تتصل البرك بعضها ببعض .. تترابط المياه تزداد سرعتها .. عربتان من عربات اللواء تغرزان فى مجرى السيل والمياه تحطهما .. الثعابين تهرب من المجرى وتهاجم اماكن الاعاشة المياه تصل الى السدود التوجيهية .. تتحول الى المجرى الجديد .. تزداد اندفاعا تحطم السدود .. تصل الى السد .. القلوب تخفق .. قائد سرية المهندسين .. قائد المأمورية .. صديقنا .. الصف ضباط ..

.. سائقو البلدوزرات جميعهم يغنون فوق جسم السد .. الماء يصطدم بالسد يتوقف أمامه .. يرتفع منسوبه .. السد يحجز الماء .. المياه تغير مجراها .. تتجه الى ميدى فلاح يمنى يرمى نفسه فى المياه المحولة .. الدموع تطفر من عينى صديقنا الشيخ يشد على يده فيسحبها .. الاطفال يلعبون فى المياه .. نزل حتى وصل الى الفلاح المبتل بالماء والطين .. يشد على يده .. مبروك مبروك الرجال يرقصون من الفرح .. يتنبه الجميع .

الآن الموعد المناسب لاغتيالهم .. الجنود يحيطون بصديقنا فهو الذى رصدت السعودية عشرة آلاف ريال يمنى على رأسه .. ينسحبون بهدوء تاركين اليمنيين يرقصون ويغنون .

لا يستطيعون النوم .. انتهت المامورية وبنوا السد وتحولت المياه .

فى نهاية الليل كانوا قد خلعوا خيامهم ورتبوا مهماتهم فى العربات ورصوها فى مدخل السرية .. مع الفجر تسللوا خارجين من حرض فى اتجاه الحديدة كاللصوص حتى لا يشعر بهم الاهالى فمن يعلم .

كان يقرأ كتابا عن اسطورة جلجامش ويستمع الى موسيقى واغانى عراقية من فرقة الانشاد .. كانت المغنية تحكى قصة جسر الحديد الذى انبرى من دوس رجليها وكانت الاسطورة تقص قصة الطوفان الذى قضى على الجنس البشرى عندما فاجأه الباشا بسؤال — هل انت شيوعى ؟؟

تعجب من السؤال .. فمنذ مدة لم يواجهه احد بمثل هذا السؤال .

أجاب بتردد — من الذى أوحى اليك بهذه الفكرة .. !!

— بعض الضباط المهندسين الذين يعملون بالعراق لقد عرفوك وقالوا انك شيوعى .

— ضحك ثم قال ثانيا .. توقفت الضحكة وبدأ يتكلم بجدية .

— انا لست شيوعيا او ماركسيا .. انا مثقف جزء من تكوينه الفكرى ماركس وانجلز وفرويد وداروين وبرتراند رسل وسارتر وكل ما هو له قيمة فكرية فى هذه الحياة انا لست ماركسيا رغم معرفتى بالنظرية وفهمى لها .. لان الماركسى محور حياته الفكرى والثقافى نابع من النظرية وانا لى روافد كثيرة اثرت على فكرى ولست شيوعيا لان الشيوعى ماركسى يعمل على تغيير المجتمع حوله ابتداء من قريته حتى نهاية الكرة الارضية .. وانت تعرف جيدا اننى أحاول تغيير المجتمع ولكن ليس قسرا ولا الى الشيوعية .

فوجىء الباشا بهذه المناقشة .. كان قد احبه .. ووثق فيه وسلمه شركته .. وكان يغيب عنه بالشهور ويعود ليجد الامور تسير فى خطها .. لقد اتفقا منذ البداية على ضغط المصاريف .. كل مهندسين لهما حجرة واحدة .. كل اربعة من المشرفين لهم حجرة .. حتى هو شاركه فى استراحته المكتب والضيوف .

وكانت المرتبات التى يمنحونها للجميع اقل من معدل السوق .. كان يغذى العاملين بالاحلام والامل من تعديل مرتباتهم وطريقة معيشتهم عندما يسددون الدفعة المقدمة للعميل .

وكان صديقنا قد تعلم كيف يربط الناس من خلال الكلمات .. تعلم من دورة التوجيه المعنوى ومن خلال رحلته بالقوات المسلحة .. وكانوا يثقون فيه وفى وعوده عندما سأله الباشا هذا السؤال .. كانوا قد اتموا تسديد الدفعة المقدمة لقد كان شرطها غريبا أن تسدد فى نصف المدة .. بدلا من المدة بكاملها .

وكان الباشا يقول اننى لا اريد أكثر من الوفاء بالتزامى تجاه العميل تسديد الدفعة المقدمة وبعد ذلك نقتسم الارباح .. ليصبح كل من عمل بالمشروع راضيا .

وشعر صديقنا بالقلق .. لماذا هذا السؤال الآن .. ؟؟

لقد عرض عليه فى اليوم السابق مشروع تعديل مرتبات العاملين حتى تتساوى مرتباتهم بالسوق فيوقف نزيف الهجرة من شركته الى الشركات العراقية المحيطة التى ترحب بأى فرد من العاملين بالشركة المصرية .

وتحققت المخاوف .. قفل باب الحجرة بالمفتاح .. احتضنه وبكى .

— انا وحيد .. اننى اعتمد عليك اعتمادا كاملا .. لقد قمت بالواجب واكثر سأمنحك خمسين الف دينار .. تصبح بها شريكا لى فى شركة جديدة انشئها .

تملص منه صديقنا ثم واجهه .. لقد وعدتهم .. لقد غذيتهم على الحلم لعام ونصف .. ولا استطيع أن اتراجع .. لا يمكننى أن اكون مخلب القط .

كان صديقنا قد تغير فى العراق .. غيرته الدنانير العراقية .. أصبح يدخن سجائر مستوردة ويستخدم كولونيا مستوردة ويرتدى ملابس باريس ولندن وروما وسافر أكثر من مرة لأوروبا .. اكل الجبن الفرنسى والشيكولاتة

السويسرى . وشاهد افلام البورنو واقتنى بعض المجلات الفاضحة .. وارتاد الاماكن فى مصر اثناء اجازاته كانت محرمة عليه .. كان قد بدا يدور فى عجلة الاستهلاك ولكنه .. لم يفقد شرفه ابدا .. ولم يحمل نفسه فوق طاقته المادية .. لقد كان ينفق فى حدود دخله .. لذلك فقد اجاب على الباشا .

ــ عظيم .. يشرفنى مشاركتك ولكننى وعدت العاملين وعلى الوفاء بالوعد اذا كنت ترفض اعتماد التعديل .. فاننى آسف .. سأضطر لابلاغهم .. من وافق على ذلك وبقى .. فبارادته .. ومن أبى فليتصرف مثلى .. عقدى ينتهى بعد شهرين .. وابلغك من الآن اننى لن اجدده .

الفصـــل الثـــامن عشر

فى الحديدة استقبلوهم باحتفال ضخم .. لقد عادوا من منطقة الخطر بعد أن ادوا المهمة ودون أن يخدش لهم جنـــدى .. توافد الضـــباط من الوحدات المختلفة لزيارتهم .. وملوا من رواية الأحداث .. كل مجموعة جديدة تسأل نفس الأسئلة ويجيبون نفس الاجابات .

هل حاول الســعوديون ضربكم .. هل رحب بكم اليمنيون .. هـــل حقا رصدت السعودية عشرة آلاف ريال على رأسه .. ما شكل السد .. وهل صمد التراب لاندفاع الماء .. ولماذا ترك سائق البلدوزر اليمنى معدته وهرب ..

فالضباط فى الحديدة لم يكن لديهم عمل الا ترديد الاشاعات والقصص التى تشبه الحواديت .

وبدأ يدور فى روتين الحياة اليومية ــ الطوابير ــ التدريب ــ السباحة ــ الاستماع الى الحواديت وترديدها فى بعض الأحيان .. متابعة محطات الاذاعة فى العالم ولا مانع من متابعة أخبار الدورى العام فى مصر .. لقد كان نادى الاسماعيلى مكتسحا للدورى ونادى الترســـانة على أعتـــاب الحصول على الكأس .

وشعر صديقنا انه يقضى اجازته السنوية على شاطىء الحديدة .

وكان قائد الكتيبة سعيدا بما حدث .. فخورا برجاله .. يتحـــدث عنهم كما لو كانوا ابطالا .. وفى بعض الأحيان يبالغ امامنا فى حجم الانجاز الذين حققوه .

ولكن قائد القوات وقائد الفرقة كان لهما رأى آخر .

لقد قرر قائد الفرقة تكريمهم .. وأقاموا لذلك حفلا بمقر الكتيبة .

شكرهم وشكر قائد الكتيبة على الانجاز العظيم الذى رفع راس فرقتهم عاليا ثم صدق على ترقية جميع الصف ضباط الذين اشتركوا فى العمل الى رتب أعلى وصرف خمس ريالات لكل جندى وهدية رمزية للضابطين .

لقد رفض قائد القوات منحهما نوط حسن أداء الواجب .. فقد زادت الأنواط والترقيات عن حدودها وكان عليه البدء فى السيطرة عليها .

علق رئيس العمليات الجديد بعدما لاحظ خيبة الأمل فى العيون .. لو انكم وضعتم لغما تحت عربة من العربات أو اطلقتم بعض الطلقات الفشنك لرقاكم ترقية استثنائية .. ولكن لعدم معرفتكم بأصول اللعبة رفض حتى التصديق على النوطين .

فى ذلك اليوم عرف صديقنا أن الضابط الملحق على المخابرات لعمل الأشراك الخداعية .. ذلك الذى كان يحلم بشمسية على بلاج السويس وترمس ممتلىء بمكعبات الثلج .. وريكوردر .. وزوجة يلجأ الى حضنها .. أتذكرونه .. انفجر فيه آخر شرك خداعى كان يعده قبل سفره .. أطار ساعديه وساقه وأصابه بالعمى وفقد السمع .. وتم نقله الى مستشفى المعادى بالقاهرة .

غطس فى المياه الدافئة أمام معسكرهم . حاول أن يلملم نفسه .. لم يتصور كيف حدث هذا .. ؟؟ لقد كان ماهراً فى صنعته .. ولكن هكذا قالوا الخطأ الأول فى المفرقعات هو الخطأ الأخير .. لقد تغير صديقنا بعد انتهاء انشاء السد .. ان دوامة العمل لم تتح له الفرصة للتفكير وهكذا حالنا جميعا .. نظل نعمل .. ونعمل .. ونعمل .. كما لو كنا نهرب من مواجهة أنفسنا .. وبدأ يواجه نفسه .. عندما استرخى فى معسكره بالحديدة بدون عمل يذكر .. ماذا يفعلون هنا .. ؟؟

لقد تحول اليمن الى ميدان معركة اشتركت فيه جميع الدول .. كل الجنسيات تعمل .. وتتجسس .. ويرقب بعضها بعضاً .

أمريكا تمهد طريقا بين صنعاء وتعز تنشئه شركة من شركاتها بواسطة طبقة من الحجر الوردى السائد فى المنطقة فاصبح طريقا ورديا على جانبيه عربات جيش وأجهزة لاسلكية وأخبار .. عن الجيش المصرى .. وروسيا والصين والمانيا الشرقية يسارعون لانشاء مشاريعها نفس الطابع والغرض

والجميع يعلنون ان مهمتهم اخراج اليمن السعيد من سعادة عصور ما قبل التاريخ الى مرارة القرن العشرين .. انهم يعدون لشيء أكبر من حرب اليمن .

الضباط والجنود لا هم لهم الا شراء سلع لم يشعروا باحتياج لها فى الظروف الطبيعية ومن اجلها يغيرون الاسترلينى والدولار .. وتتغير نظراتهم وتصرفاتهم لتصبح نظرات شره وتصرفات كسل .

كان أحدهم قد رفع صوت الراديو بحيث وصله صوت عبد الحليم حافظ فى اغنيته الجديدة وهو يسبح فى الماء الدافىء .. على حسب الريح متودى الريح متودى الريح متودى .. وياه انا ماشى .. ماشى ولا مهدى .

لقد تحول الجيش الى جيش متاجر بدلا من جيش محارب .. كل منهم يحاول ان يجنى أكبر قدر ممكن من الفائدة فى اقصر وقت .

لقد ضبطوا احد قواد اللواءات وهو يحاول تهريب عشرة كراتين سجائر تصور .. كل كرتونة تحتوى على خمسين قاروصة .. كل قاروصة عشر علب أى خمسة آلاف علبة سجائر كليوباترا .

آخرون كانوا يهربون الثلاجات والغسالات والريكوردرات .. لقد كانت طائرة الأنتينوف الضخمة تهبط فى مطار القاهرة فى ممر خاص محملة بأكداس مكدسة من البضائع التى تحملها عربات الجيش المنتظرة فى المطار الى المنازل .. لا تمر على جمرك او تفتيش أو خلافه .. وكان يستقبل الضباط والجنود موظفو الخزينة فى المطار يصرفون لهم شيكات بدل السفر ويخرجون من المطار ليجدوا الآف الأيدى فى انتظارهم لامتصاص ما جلبوا معهم ولاستثمار غيبتهم .. سائقو التكسيات يريدون أجرة مضاعفة وبقشيش وسجائر ق.م (قوات مسلحة) كانوا يقولون انها افضل من السجائر التى تباع فى السوق .. وأهاليهم .. الزوجات والأولاد والبنات يرتدون الهدايا ويختالون بها على الآخرين .. ويعدون كشوف الطلبات الجديدة .

والراقصات وساقطات الكباريهات يفرغن ما فى الجيوب .. وتنتشر الأمراض السرية القادمة من اليمن والتى احضرها الجنود من بنات ابو منحية .

ويتغير المجتمع .. تستطيع ان تميز العائد من اليمن من طريقة تصرفه ومن شرهه ومن تعاليه على أقرانه .

وتتحول الجنيهات المصرية الى أوراق نقدية اجنبية وتتحول أوراق النقد الأجنبية الى ريالات يمنية .. ثم الى بضائع استهلاكية .. ويغرق الاقتصاد المصرى وتبدأ الشهوة من أجل الاستهلاك .. ويعقبها الانفتاح .

ان صديقنا الذى نجا من اغراءات غزة عندما كان فى سيناء .. ومن طوفان اليمن الاستهلاكى لم يصمد فى العراق .. لقد تعمد الباشا اتلافه أن يغذى انتهازيته .. أن يربطه به .. ليدير سواقى الزيت .. عندما رافقه الى باريس لمناقشة بعض الشركات الفرنسية حرص على أن يجعله يرى فى أول يوم الشانزليزيه .. حيث الثراء الفاجر وبيجال حيث الانحلال الفاجر أيضا .. كان يدخل به الى الأماكن التى يبيعون فيها أغلى البضائع.

يحاول أن يشترى له منها.. على حسابه .. على حساب المشروع .. ورفض صديقنا .. ثم استسلم .. ثم أعتاد .. اعتاد على كريستيان ديور .. وجيفنشى وبيير كردان .. واعتاد على الدرجة الأولى فى الطائرة وعلى أن يحيط نفسه بهالة من الثراء الكاذب .

وكان الآخر يتصور انه اشتراه .. وانه غير قادر على العودة لقالبه القديم فوافق على انهاء عقده .. متصورا أنه سيعود بعد أن يتعلم الدرس.

لقد انفق صديقنا معظم دخله .. وهو اليوم فى مصر .. بدون عمل دون دخل الا معاشا صغيرا لا يشبع .. والافا محدودة من الدولارات هى كل ما نجا من المذبحة الاستهلاكية .. واكواما من الأجهزة التالفة او التى ستتلف والملابس التى انتهت موضتها .. وعربة فاخرة .. أو كانت فاخرة يوم أن اشتراها جديدة .. وعادات نخرت فى جسده .. واستعبدته .. وكان امامه أحد الخيارين العودة محطما .. أو الاستغناء .. وتسلح صديقنا بسلاحه التقليدى .. قوة الاستغناء .. ولكن فى اى مجتمع .. فى مجتمع الانفتاح حيث يقيمون الرجل بما فى جيبه وما يستطيع أن ينفقه .

لقد كان من السهل التسلح بقوة الاستغناء عندما كان المجتمع بالكامل فى وضع الاستغناء .. عندما كان صديقنا فى سيناء واليمن .. ولكن فى مجتمع الفارق فيه بين من يملك ومن لا يملك واسعا .. ومميزا ولا يمكن عبوره او تجاوزه يصبح الاستغناء اقرب للرهينة .. اقرب للقابض على الجمر بيده كما حدثنا الرسول .

وهكذا بدأ صديقنا يعدل من سلوكه .. وبدأ يقبل ما لم يقبله .

كان مدير ادارة المشروعات فى شركة المقاولات قد استقال ايضا .. وكان قد دار دورة قريبة من دورة صديقنا وكون مكتبا استشاريا يعمل فى ادارة التشييد ويقدم خدماته للراغب من مئات الشركات التى طفح بها

الاقتصاد المصرى خلال السنوات السابقة .. كان يعلمهم كيف يدرسون مشروعا .. وكيف يخططون برنامجا .. وكيف يتابعون الأعمال .. وكان هذا العمل يمنحه دخلا مناسبا يسمح له بأن يعيش بشكل طبيعى ويقضى اجازة فى الصيف واخرى فى الشتاء فى بلد من بلاد العالم يتعرف عليها وعلى حضارتها ولكن عن طريق شركات السياحة لأنها ارخص .

ساعده صديقنا فى عمله .. حتى تعرف على مجموعة شركات استثمار .. طلبت منه أن يكون مستشارا لها متفرغا .. لقاء ألف وخمسمائة جنيه شهريا .

عاد صديقنا الى نمط الحياة الذى اعتاده خلال عمله بالعراق .. غير سكنه ليصبح من قاطنى حى الزمالك .. وجدد عربته . .وارتاد انضر الأماكن وانفق ببذخ .. وزاد رصيده فى البنوك .. وسافر الى معظم بلاد العالم . وتعرف على الشركات الأجنبية واتقن اللغة الانجليزية .. واصبح صديقنا الذى وقع فى يوم ما عقد شراء اسهم الشركة المصرية الامريكية المشتركة وهكذا الأيام .. ما لم تغيره غزة واليمن .. غيره الانفتاح .

سألته — لقد مضى شهر ولم نجد مشتريا .. ولم تأت بجديد عن مشروع المدينة السكنية .. انهم لن يتركوك هكذا .. ان الانجليزى يكرهك ويقلب عليك الجميع .. اننى أعرفهم .. اللهجة التى سألونى عنك بها توحى بعاصفة قريبة .

كان قد انهى دراسة عطاء جديد .. لقد طلب منهم أن يدرس العطاءات بنفسه وفى القاهرة اذا كانوا يريدون عملا جديدا .. وكان فى انتظار احدهم كى يراجعه معه .. ويوافق على التقدم به .

كانت علاقتهما قد بدأت تفتر بعد ان اكتشف كل منهما أن الآخر ليس هدفه .

وبعد أن غرق فى علاقات نسائية أخرى عسى أن تشفيه من آثارها .

قال لها بصراحة — انا غير موافق على هذا المنهج . .لا استطيع أن اعمل عملا مخالفا للقانون .. حتى لو لم اكن مقتنعا بالقانون نفسه .

انفجرت — قل انك ضعيف ولا تصلح لشىء .. ثم اكملت ..

هذا جزائى ان رشحتك لهم .. ودعمتك .. واحببتك .. كل الرجال

خائنون لا فرق بينك وبين الآخرين .. فليبحث كل منا عن مصلحته .

عندما جاء مندوبهم .. لم يكن اى شخص لقد كان صاحبه الشركة صديقها بنفسه لقد استدعته .

قال له — اننا لن نتقدم فى هذا العطاء .. دراستك تصلح لشركة مصرية وغير مجزية لشركة امريكية .. سنجمد نشاطنا فى بلدكم حتى نستطيع أن نحصل على عملية تمولها المعونة الامريكية لذلك قررنا ان نجد « شريك نائم » هل لديك مانع للتنازل عن اسهمك فى مقابل اعادة الكمبيالة لك وعدم تحملك لأى مصاريف خلال المدة السابقة .

ووافق صديقنا فورا .. لقد كان هذا قراره .. ثم توالت الاحداث سريعا . لقد كانت هى « الشريك النائم » الذى عناه صاحب الشركة .

وتنازل لها عن أسهمه .. لقد طردوه من وظيفة كومبرادور .. وعينوها بدلا منه فهى الاصلح للوظيفة .

الفصــل التــاسع عشر

كان يستمع الى كونشرتو الفلوت لموتسارت وهو يقلب كتــابا عن رينوار ويتأمل راقصة بالية مرسومة بالطريقة التأثيرية .. عنـــدما هلل الجنود فى المعسكر .. لم يهتم ثم لاحظ هرجا .. احدهم يندفع فى اتجاهه على شاطىء البحر .. لقد اسقطنا خمسين طائرة يا فندم .

اين .. وكيف .. ولمن ؟؟

لقد قامت الحرب فى سيناء .. كانوا يعلمون أن هناك تحركات وان عبد الناصر هدد اسرائيل لحشدها جيوشها امام الحدود السورية .. وانه اغلق خليج العقبة .. ولكن لم يتصور أن تنشب حرب .

ثم توالت الأنباء غارات اسرائيلية على مطارات مصر .. والطائرات الاسرائيلية تسقط كما لو كانت ذبابا اطلقت عليه مبيــدا حشريا .. وبدأ الضبط والجنود يديرون مؤشرات الراديوات الترانزيستور يستمعون الى اذاعات العالم .

الاذاعة المصرية تتكلم عن الانتصارات .. والاذاعات الاجنبية تصف الهزائم وتبلبلوا من يصدقون .

ثم توالت الاحداث .. وقف اطلاق النار .. الاعتراف بالهزيمة استقالة عبد الناصر .. جماهير ٩ و ١٠ يونيو .

انسحاب تكتيكى من اليمن .. القوات المتوغلة تنسحب تحت حماية القوات القريبة .. الطائرات والبواخر تمتلىء بالعائدين .. مصر فى حاجة اليهم يزداد المجهود العصبى .. يتوتر .. يشحنون المعدات .. العربات

السلاح الجنود .. أسعار البضائع ترتفع بشكل جنونى .. الجنود والضباط ينفقون آخر « بوكشة » يحملونها .

المركب تتحرك خارج الميناء .. يقف ينظر الى مبانى الحديدة وهى تبتعد .

انهم متجهون الى مصر .. يتمتم .. بلادى .. بلادى .. بلادى .. ينفجر فى البكاء .. بكاء عصبيا .. مستمرا .. لا يهدأ الا بعد أن يحقنوه بسائل مخدر .. لينام .

الباخرة ترسو على ميناء الادبية .. الوجوه حزينة .. الضباط يتحركون فى الخفاء تنتقل الكتيبة الى الجبهة مباشرة .. حركة تنقلات بين الضباط .. قائد الكتيبة ينتقل ليصبح قائد لواء كبارى .. ضباط جدد قادمون من أرض الهزيمة .. التحصص لا تنتهى .. العمل الدءوب لاعادة بناء التحصينات .. التدريب على العبور .. حرب الاستنزاف .. صد موجات الطيران الاسرائيلى .. بناء قواعد الصواريخ .. وتستمر الحياة .

تجدد الخلايا التى ماتت وتضمد الجروح التى اثخنت .. وتأمل فى مستقبل افضل بعد أن أوضحت النكسة انحرافات المسيرة .

ومات الزعيم .. شعر الكثيرون أنهم قد فقدوا السند .. الأمل .. الاطمئنان فقدوا الأب الذى تعهد برعايتهم وحل أزماتهم ومواجهة أعدائهم .. وتحقيق انتصاراتهم .. وشعر آخرون بانزياح الغمة البوليسية .. والديكتاتورية وعبادة الفرد .

ولكن الشعب المصرى خرج ليودع آخر الفراعنة كما قال الامريكيون محطما جميع الكردونات التى حاول الجيش والبوليس صناعتها .

كان صديقنا احد المكلفين بصناعة حاجز ما بين الزعيم والشعب .. ولكن عندما شاهد المدفع قادما من بعد .. لم يستطع الا أن ينضم مع الزاحفين هاتفا .. الوداع يا جمال .. يا حبيب الملايين .. لقد احبه ووثق فيه وعمل تحت قيادته أصلب أيام حياته .. واختلف معه قليلا .

وانتهت خدمة صديقنا فى التشكيلات .. نقلوه الى المخازن .. مخازن المهندسين بالهرم .. محطما .. مرعوبا .. ثائرا .. متذمرا .. مما يحدث بعد وفاة القائد .. ثم حمل لقب مشاكس الذى أهله للاحالة الى المعاش .

وهكذا وجد نفسه [illegible] رابع مرة بدون دخل .. لقد قطعوا مرتبه يوم أن باع لها إسمه واستقلاله .

وتظاهر بعدم الاهتمام .. سيجد وظيفة ما .. وظيفة أفضل .. وانتظرها شهرا .. وآخر .. وآخر .

وبدأت سحب التغير تتجمع .. لقد تضايق من المدينة .. من أنفاسها المشبعة بالعادم والتراب .. وحريق النفايات ونتائج الجباسات ومصانع الأسمنت .

أصبح يتوتر من الأصوات والميكرفونات واجهزة التنبيه .. وصياح البشر .

واصبح يتحدث عن التلوث البصرى فى فوضى الانشاء والاعلان والملبس والذوق العام .. والتلوث السمعى بالاغانى والمسلسلات .. والتلوث الخلقى فى التزاحم والتصارع والكذب والخداع .

واصبح لا يطيق عربته .. ترعبه الشوارع .. ويرعبه السائقون .. ويرعبه الراجلون ويضيق بالميكانيكية والكهربائية .. والمنادين .

وبدأت سحب التغير تمطر .. كان يتكلم عن الهجرة من المدن واللجوء الى البساطة والطبيعة .. وقوة الاستغناء .

واثرت الأمطار فى تربة نفسه فباع عربته .. وشقته .. واعتزل البشر الا هى . بعينيها الواسعتين الممتلئتين دائما بالدموع .. هل تعرفونها .. أخته . وطاف صديقنا يبحث عن مكان يصلح لاقامة البشر .. أسوان .. الأقصر الوادى الجديد .. الواحات .. سيناء .

وفى سيناء الجنوبية وجد ضالته .. أبو زنيمة .. أبو رديس .. الطور شرم الشيخ .. دهب .. نويبع .. أمضى الشهور يتجول بينها .. يرقب بحب أقرب للتصوف .. الجبال الشامخة وعلاقتها بالسهول المنبسطة والبحر شديد الزرقة .. شديد العطاء .

وفتنته حبيبته القديمة سيناء .. كان يقول اننا مجرمون فى حق أنفسنا وفى حق هذا الجمال .. كان يتخيل المسارح والقرى والمنازل والحقول والمصانع والمناجم و .. البشر السعداءالطيبين .. ويقول .. هذه هى ملجأنا الأخير بعيدا عن كل تزيف .. بعيدا عن نهر الأباطيل .

وهدأ صديقنا .. لم تعد تبهره الملابس المستوردة/.. ولا الحفلات الصاخبة . ولا العلاقات المبتذلة .. لقد اكتشف فان أقل قدر من الملابس يكفى لوقاية البشر .. وأقل قدر من الطعام يطيل العمر .. وأن هواء المدينة والسجائر تتلف صدر وقلب وعقل الانسان .

وزهد فى المال .. كانت تقبض كل شهر معاشه وتذهب به اليه .. فينفقه كما لو كان بينه وبين النقود عداء .. وكانت تعجب كيف تحول

الى هذا الحال .. لماذا فقد صلابته .. وكفت عن احضار النقود . كانت تشترى له احتياجاته .. ملابسه .. طعامه .. وتدور تبحث عنه على الشواطىء المترامية الأطراف حتى تجده جالسا متأملا شيئا ما .. بحرا .. صخرة .. اشعة الشمس .. جبالا عاليا .. طفلا صغيرا .. حيوانا متعبا قادما من المغرب يبحث عن السكينة .

كانت واثقة انه لم يتغير وانما هى لحظة تأمل .. وفى كل زيارة كان يفاجئها بفكرة غريبة .. فى احدى الزيارات حدثها عن الموظفين الرسميين القادمين من وادى النيل يمضون عقوبة ما حكمت بها الأقدار عليهم .. فى زيارة أخرى حدثها عن الجنود المصريين الذين يحمون الاسرائيليات العاريات تماما من نظرات المتطفلين ويأكلوه بأعينهم .

وفى مرة أخرى عن الامكانيات المهدرة التى عرف قيمتها المستعمرون ولا يلقى لها بالا الرسميون .

كانت الأيام تزيده نحولا واستطال شعر راسه وذقنه .. واتسخت ملابسه اصبح مثلهم .. مثل الهيبيز القادمين من الغرب الرافضين لحضارتهم وكان يتكلم مثلهم .. عندما سألها عن رصيده فى البنك خافت .

لقد كان لازال يملك مبلغا ادهشه هو نفسه بعد ان باع العربة والشقة .

لقد قرر امرا .. قرر أن يخوض الصراع ثانيا ..

ان سيناء مشبعة بالتحدى .. جنود فصل القوات .. عرايا اسرائيل اهمال الرسميون .. لا مبالاة اهل الوادى .

واقام صديقنا مستعمرته على شاطىء ذى رمال بيضاء ناصعة البياض وبحر أزرق متدرج اللون هادىء .. مبنى صغير مريح بسيط .. وعربة نصف نقل لشراء الاحتياجات .. واعلانات على الطريق .

أغسلوا انفسكم فى المياه الطاهرة .. اخلعوا أثوابكم القديمة وارتدوا أثواب العصر .. كفروا عن خطاياكم فالشمس النقية تمحوها .. الى أيها المتعبين وحاملى الأثقال .. فالعمل يخلصكم من احمالكم .

وكانت أول القادمين .. وتبعها آخرون هربوا من سخم المدينة ليبنوا حياة جديدة على الأرض المغضوب عليها .. واتسعت المستعمرة لتضم عشرات من الهاربين .. يسبحون .. يتنفسون .. يستمتعون .. ويعملون فى أرض الميعاد بعد أن كانوا على شفا الموت .. على شفا الجنون .

١٩٨٤/٤/٢٢ .

محمد حسين يونس

مطبعة اخوان مورافتلى

رقم الايداع ٥/٣٧٩٣

صمت قليلا ثم اشار بيـده وكفه •

علينـا ان كنـا نريد الا نغرق فى الطوفان ان نتوقع الآثار المترتبة على ذلك ••

كان يعدد له الآثار بنفس الطريقة التى يحلل بها بنـود عطـاء لتقـدير سعره •

- اول هذه الآثار القضاء على المكاسب الاشتراكية أو تجميـدها او تفريغها من مضمونها •• وسيعانى القطاع العـام الكثير من ذلك •

- بعد التجميد ستغرق الدول الصناعية السوق بفائض منتجاتها من كل نوع وصنف ومستوى وسعر •• فى البـداية سـتكون الأسعار منافسة للمنتجات المحلية وبعد ان تقضى على الصناعة المصرية سترتفع الأسعار تدريجيا بشكل لا يمكن تصوره •

علينا ان نستوعب دروس التاريخ عبود باشا خفض سعر الكحول الى مليم للتر •• كان هذا السعر اقل من التكلفة •• عندما اغلقت جميع المصانع المنتجة للكحول رفع سعر اللتر الى عشرين مليما بعد ان احتكر السوق ثم اكمل نشـاطه •

- سيتغير الهيكل الاقتصادى •• الزراعة ستزوى •• الصناعة ستنتهى ولن يبقى الا التجار والوكلاء والسماسرة اى ان البناء التحتى سيصاب بالضعف والتحلل ••

- وسيعقب ذلك تغير البنـاء الفوقى - القوانين - التقاليـد - الفن - الأدب - الثقافة - الذوق العام •

سيطفو على السطح كل ما هو غث وسينتحر الشرفاء •• لن ينجو فرد واحد من الطوفان ••• سنغرق جميعا •• تذكر •

١٩٠ قرشا محـلى
٢٥٠ قرشا للتصدير